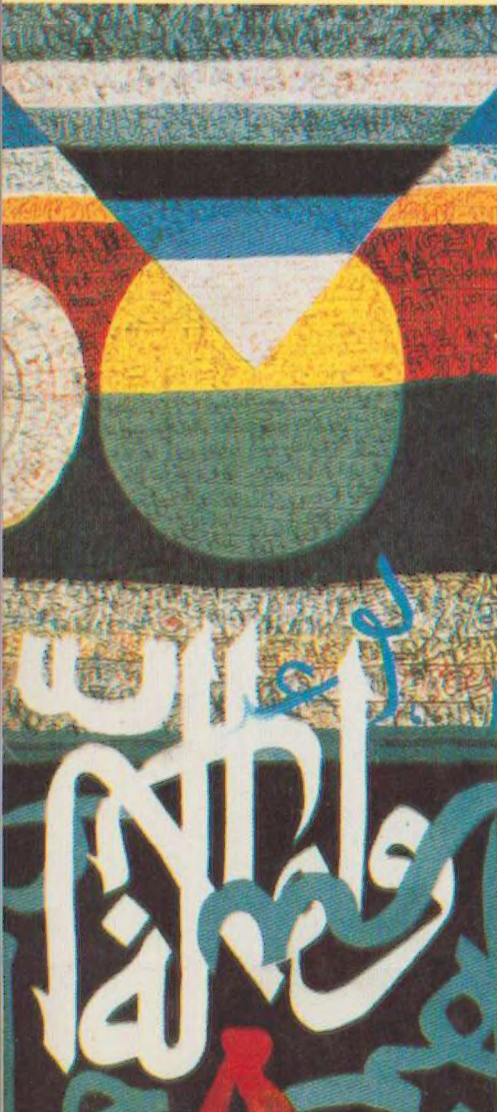


د. محمد حسين الأعرجي

# أجداد وأحفاد

تراجم وفكريات



## أجداد وأحفاد (تراجم وذكريات)



Author: Dr. M. Hussein al-Araji  
Title : Ancestors and Grandsons  
Al- Mada : Publishing Company  
First Edition 1998  
Copyright © al-Mada

اسم المؤلف : د. محمد حسين الأعرجي  
عنوان الكتاب : أجداد وأحفاد  
الناشر : المدى  
الطبعة الأولى : ١٩٩٨  
الحقوق محفوظة

### دار المدى للنشرة والنشر

سورية - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦  
تلفون : ٢٧٧٢٠١٩ - ٢٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٢٧٧٣٩٩٢  
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

**Al Mada** : Publishing Company F.K.A.

Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 2776864 , Fax: 2773992

P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

د. محمد حسين الأعرجي

---

# البداد والفساد

تراجم وذكريات







## مقدمة

هذا كتابٌ يكادُ يكون مدخولُ النسبة في كُتبي وليس مدخولها تماماً في كتب الآخرين ؛ لأنه مباحثٌ متفرقةٌ لا يكادُ يجمعها جامعٌ ، سوى أنها في تراجم أدباء قُدماء كبارٍ ، وذكرياتٍ عن أمثالهم من المعاصرين الكبار . ومن هنا فهو مباحثٌ متفرقةٌ ولكنها مؤتلفةٌ . وحسبك من مفارقة أن يكون المتفرقُ مؤتلفاً .

تألفتُ هذه المباحثُ بما يُعجبك من ثورتِي بكر بن عبد العزيز العجلي ، والجواهري - على الرغم من أنَّ بينهما أحد عشر قرناً - ولكنَّ بكرة لا تأتلف مع الجواهري فنياً حتى لو قلتَ لي : إنَّ بكرة لا يبلغُ خمسَ قامة الجواهري شعرياً لوافقك . والجواهري لا تأتلف مع بكر فارسَ ميادين وقرعِ حروبٍ حتى لو قلتَ : إنَّ الجواهري لا يبلغُ خمسَ قامة بكر فارسَ ميادين لما جادلثك . ولكنهما مع هذا وذاك مؤتلفان إذا نظرتَ إلى ما ينقصُ بكرة إزاء الجواهري ، وإلى ما ليس في الجواهري من بكرٍ ، وأهمُّ من هذا أنَّهما مؤتلفان إذا نظرتَ إلى معنى ثورة الشاعر في القرن التاسع الميلادي ما هي ؟ وإذا نظرتَ إليها في القرن العشرين ما معناها ؟ وما أقوله عن بكرٍ والجواهري أعيدُه مُنزلاً الناسَ منازلهم عن الآخرين ؛ ابن الأعرابي والمخزومي ، الحِماني ومصطفى جمال الدين ، الخوارزمي والطاهر ، وهكذا .

ولك أن تسألني عن هذا الائتلاف المختلف فأقول : لم يكن في ذهني أن أصنع ما صنعتُ فأوقع القارئ بما تراني مُدافعاً عنه ، وإنما هي دراساتُ كتبها عن أعلامِ قُدماء أسهموا في تكويننا الثقافي العربي من مثل : ابن الأعرابي ، وأبي الفرج الأصبهاني ، وأبي بكر الخوارزمي ، وسواهم . أقول : هي دراساتُ كتبها في أزمانٍ متفاوتةٍ بدواعٍ لو شئت أن أجملها لك بجملةٍ واحدةٍ لقلتُ هي : اهتمامي بتحقيق بعض كتب أولئك الأعلام ، فقد كنتُ حَقَّقْتُ كتاب : «مقطّات مراثٍ» لابن الأعرابي ، وكنتُ حَقَّقْتُ «الأمثال المولّدة» لأبي بكر الخوارزمي ، و«تلقيح العقول» لابن أبي اليسر الرياضي ، وحَقَّقْتُ سواها .

وإذاً فقد حَقَّقْتُ تلك الكتب ، وقلتُ عن أصحابها ما قلتُ ، فما معنى الإعادة ؟

وأقول الحق : إنّه لم تكن هناك إعادة ، إلا بمقدار ما ستري ، فما قُدِّرَ له أن يُنشرَ في هذا الكتاب من تلك الدراسات نُشرَ في الجزائر يوم كنتُ أستاذاً في جامعتها طيلة ست عشرة سنة ، ولكن من مآسي الكتاب في الجزائر أنّه لا يراء إلا الأشقاء الجزائريون أنفسهم ، فإن قُدِّرَ له الانتشار في أقطار المغرب العربيّ بيعَ على أنّه سبعة تكاد تكون مُهرّبة . وحسبك من هذا أنّي كنتُ رأيتُ كتاب : «الأمثال المولّدة» في مكتبة أظنّها تُسمّى مكتبة الجامعة بطرابلس الغرب سنة ١٩٩٤ فعجزتُ عن شراؤه ؛ إذ رأيتُ أنّه سَعِرَ بخمسة أمثال سِعْرِهِ في الجزائر . وإذا شئت أن أزيدك علماً بمأساة ما يُنشر في الجزائر ، ويندرة توزيع الكتاب الجزائري قلتُ : إنني كنتُ ندمتُ على استغفاني سَعِرَ الأمثال فعُدْتُ في اليوم الثاني مقرراً أن أشتري ما تحتمله حافظة نقودي من نُسخه التي كانت بي حاجة إليها ، فلم أرَ للكتاب أثراً . وإذا سألتُ صاحب المكتبة عن كتاب رأيتُه أمس اسمه : «الأمثال» كنتُ كمن يسأله عن الكبريت الأحمر!

وإذاً ، فما نُشرَ في الجزائر هو في حكم غير المنشور إلا بمقدار . هذا

إلى أنَّ طائفةً من هذه الدراسات من مثل بكر بن عبد العزيز ، وابن المرزبان ،  
وبرية بن أبي اليسر ، والمخزومي ، وجمال الدين لم تُنشر حتى هذا اليوم .  
فإذا وضَّح هذا - ويُخَيَّلُ إليَّ أنه واضحٌ - كنتُ في غنى أن أعتذر عن إعادة  
النشر .

وأعود إلى رأس ما كنتُ فيه من أمرٍ فأقول : إنَّ هذا الكتابَ مدخولُ  
النسبة في كثري ؛ لأنه عبارةٌ عن مباحث ، وليس كتاباً في موضوعٍ واحدٍ تبدأ  
فيه بحرف الألف وتنتهي منه أو ينتهي منك عند حرف الياء . أمّا في كتب  
الآخرين من الأساتذة الأجلاء فهو أمرٌ مألوفٌ جداً ، بل لعله يَبْلُغُ من هذه الألفة  
أن تولَّتُ مثلُ هذه الكتبِ إعلاءَ شأنِ بعضِ منهم ، وإلا أقمّا سمعتُ بحديث  
الأربعاء لطفه حسين ، والمعقول واللامعقول لزكي نجيب محمود ، ومقالات لعلّي  
جواد الطاهر ؟ ثمَّ أمّا سمعتُ بكتاب العلامة الراحل مصطفى جواد : « في التراث  
العربي » ؟ هذه واحدةٌ فأما الثانية فهي أنه يمكن أن يُوحى الكتابُ للقاري ،  
وهو يقرأ فيه : « أدبيان خالدان ، أبو الفرج الأصبهاني ، الطاهر... » - على سبيل  
المثال - أنني أُمْنِيهِ بموازنةٍ يخرجُ منها برابطةٌ قويّةٌ تُولَّفُ بينهما ، كأن أُثِبَتِ  
أن الطاهر كان أخبارياً كما كان أبو الفرج ، أو أن أبا الفرج كان ناقدًا كما كان  
الطاهر . والحقُّ أنني لم أقصِدْ إلى ذلك ، ولو كنتُ أقصده لكان من حقِّ  
الجواهري أن يُقرَنَ إلى المتنبي لا إلى بكرٍ فإن لم أستطع أو لم يسمح لي شعرةُ  
فإلى البحرّي ، وكان من حقِّ جمال الدين أن يكون ابنُ عمِّ الشريف الرضي ،  
والمخزومي ابنًا باراً بأبيه : الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وأن أنسب الطاهر إلى  
عبد القاهر الجرجاني ، وهكذا . ولكنني - كما قلتُ - لم أرِدْ هذا ، لا لأنني لا  
أريده ، وإنّما لأنه لم يتهيأ لي في هذا الكتاب ، ولم يستقم .

وجليّةُ الأمر أنَّ هذا الكتاب هو قصيدةٌ مطوّلةٌ حديثةٌ وليست طويّلةً ، وإن  
شئتُ التخصيص قلتُ : إنّه مثل قصيدة « مديح الظلِّ العالي » لمحمود درويش .

ويجمع بين هذا الكتاب وتلك القصيدة أنَّ لكلَّ مقطعٍ منها معنى ، فإذا أردت أن تجمع من كلِّ تلك المقاطع معنى عاماً مُشترَكاً ينمو بين يديك نمواً عضوياً خرجت بقول الإنجيل : « باطلُ الأباطيل ، وقبضُ الرِّيح » ، وكذلك الشأن في هذا الكتاب : فكلُّ مقطعٍ فيه مُستقلٌ بنفسه ، ولكن أرجو ألا يكون في النهاية باطلُ الأباطيل ، وقبضُ الرِّيح ، لأنَّ للكتاب - أيَّ كتابٍ - شأناً غيرَ شأن القصيدة .

فإذا سألت درويش عن مقاطع قصيدته كيف انتظمها نسقٌ واحدٌ - وكلُّ مقطعٍ فيها يكاد يشتم أخاه وهو إن لم يكن أخاه فيها فجارٌ جاوره - وجدت أنَّ المقاومة التي جُوبه بها العدو الصهيوني في اجتياحه بيروت ١٩٨٢ ، وقرَفَ درويش من التواطؤ العربي على ذلك الاجتياح هو الذي جمعَ المقطعَ وابنَ عمه ، والبيتَ وربيبَ أبيه .

وكذلك كتابي فقد جمعتُ فيه ما يُظنُّ أنه متنافرٌ وهو مُتَّفِقٌ ، وما يُحسبُ أنه بعيدٌ وهو قريبٌ .

ويبقى هنالك فرقٌ جوهريٌّ بين مديح الظلِّ العالي - وأكثرُ الشعر الحديث من هذه البَابة - وهذا الكتاب ، وهذا الفرق هو أن درويش أراد أن يمدح المقاومة فهجاها من حيث لا يريدُ في قوله :

« كم كنت وحدك يا ابنَ أُمي يا ابنَ أكثرٍ من أب  
كم كنت وحدك »

فكان شأنه في ذلك شأن الشاعر الذي مدحَ زبيدة بنت جعفر زوج الخليفة هارون الرشيد بقوله :

أزبيدة ، ابنة جعفر      طوى لسانك المُثابِر  
تُعطين من رجليك ما      تُعطي الأكف من الرُّعابِ

أقول هذا لأنّ درويش لو كان مدح بهذا القول دهقاناً من دهاقنة الفرس ، وليس عربياً من بني بكر أو تغلب لقامت « بسوس » أخرى ، وإلا فتأمل أن يقال لعربي يفهم شيئاً من العربية : إنّ أمّ واحدة ولكنّ آباء كثيرين كيف سيكون ؟ وإياك أن تفهم أنني لا أعرف قصد درويش من أنّ الأنظمة العربية كلّها تدعي أبوة القضية الفلسطينية ولكنها تخونها ، إياك أن تفهم هذا فما سقت من مديح زبيدة ما سقت عبثاً .

المهمّ أنّه أراد أن يمدح فهجا ، أمّا أنا فقد أردت أن أدرس دراسة موضوعية - وقد فعلت فيما أزعم - فوجدتني مُعجباً في الأعم الأغلب بهؤلاء الناس الذين كتب عنهم . ولا أظنّ أنّ إعجابي كان قائماً على شفير هار أو يوشك أن ينهار ، فأما القدماء فحسبك أنّ منهم من مات جسدياً قبل ألف سنة أو ما يزيد على ألف سنة وما زلنا نطعم من أطايب مائدته ما نطعم ، وأمّا المعاصرون فقد كتب عنهم ما قدّر لي أن أبلّوه بنفسي من أمرهم أريد أن أشهد بشهادة « من كتبها فإنه أتمّ قلبه » ؛ ولهذا كان اسم الكتاب ما تراه : « أجداد وأحفاد » .

ولكنّ شهادتي هذه عن هؤلاء العمالقة الكبار ما كانت لتكون لولا تحريض صديقين أثيرين عندي جداً بما فسح لي من صدر ما يُصدران هما : أستاذي علامة الجزيرة العربية الشيخ حمد الجاسر ، وأخي الكبير : الأستاذ أبي ثابت الدكتور غانم حمدون ، فلولا تحريضهما ما كنت كتب ما كتب ؛ لا لأنني قليل الوفاء ، ولكن لأنني كسول لا أكاد أكتب إلاّ بتحريض ، ولأنني كنت أظنّ أنّ ما اخترنته الحافظة ، فوعته الذاكرة لا يستحق أن يُنشر على الناس . فأما الحميم أبو ثابت : غانم فأنا مدين له بكلّ ما كتبته إلاّ شهادة واحدة هي : « علي جواد الطاهر » التي كلّفني بكتابتها مُتفضلاً الشيخ حمد الجاسر لكي تكون رثاءً للطاهر في آخر كتاب صدر له بعد وفاته هو : « معجم المطبوعات العربية » وكتبته تلك الشهادة وطُبعت في كتابه . أمّا ما عدا ذلك فكلّه من



أفضال أبي ثابت ، ومكارم «الثقافة الجديدة» في تخليد رموز ثقافتنا الوطنية الأصيلة . فللعزيز أبي ثابت وللعلامة الجاسر أجزل الشكر ، وأصدق الثناء ، فقد تفضلاً عليّ من حيث حسبا أنهما - وحاشاهما - كلّفاني .

والآن لماذا قرّنتُ هذا القرآن البعيد في الكتاب ؟

وأقول : إنني فعلتُ ذلك لسببين أولهما أنني لم أرد للكتاب أن تتجاوز مباحثه على غير نسقٍ كأن يكون فصلٌ فيه عن بكرٍ ، وبعده فصلٌ عن الجواهري ، وفصلٌ عن المخزومي وبعده أخوه عن ابن الأعرابي ، وهكذا ، ولم أرد له أيضاً أن يُقسم تقسيماً تقليدياً ، وإلا فما كان أسهلّ التقسيم التقليدي عليّ ، فأقول : القسم الأول : بكر... ابن الأعرابي... الخوارزمي... وهكذا ، ثم آتي إلى القسم الثاني فأقول : الجواهري... جمال الدين... المخزومي... الطاهر... وهكذا .

أما السبب الثاني فهو أنني أردتُ أن أنبّه إلى اللحمةِ الخلقةِ بين ماضينا وحاضرنا الثقافيّين ، لأنني أرى أنّ هذه اللحمة تكادُ تنقطع إن لم تكن قد انقطعتْ - ودغ عنك التنظيرُ الأجوف - فعلاً عن جهلٍ مُرعبٍ يسمّيه أدعياءُ الأدبِ حادثةَ مرّةٍ ، وأصالةَ مرّةٍ أخرى . فإذا نظرتُ في رطانةِ الاثنينِ من أدعياءِ الحداثةِ والأصالةِ وجدتها رطانةَ غريبةٍ واحدةٍ ، ووجدتُ أنّ كلّ ما هنالك من فرقٍ بينهما أن اغتربَ الأدبُ الحديثُ في الجغرافيا ، واغتربَ الأدبُ التقليديُّ في التاريخ ، وسيكون من المضحك حدّ الاختناق أن توازنَ بين موتين أيّهما أفضلُ : الموتُ أم المنيّةُ ؟

هذا ما عنّي لي أن أكتبه فكتبته غيرَ مُدّعٍ أنّه أدبٌ فضلاً عن أن أدعي أنّه صوابٌ ، فإن كان فيه ما يُقرأ فتلك فرحةٌ كلّ مَنْ يكتبُ شيئاً للناسِ ينشره عليهم ، وإن لم يكن فيه ذلك فإنّ فيه لأجيالنا القادمة نمطاً من تفكيرٍ ، وهماً من هموم .

محمد حسين الأعرجي

الأستاذ بجامعة آدم مشكيفج - بوزنان ، بولندة

بوزنان ١٩٩٨/٤/٢٣

# شاعران ثائران

بكر بن عبد العزيز العجلي

محمد مهدي الجواهري



# بكر بن عبد العزيز العجلي

وديواته

لم يقف مصدرٌ من مصادر الأدب المعروفة عند بكرٍ شخصاً ، أو شاعراً ،  
فما كان هذا الشاعرُ يُعرَف لولا أن نازعته نفسه إلى الإمارة ، ولولا أنه ثار من  
أجلها مما جعل مصادر التاريخ الإسلامي تمرُّ به نازعاً ثائراً .

وإذا كانت هذه المصادر تقف عنده ، وقد أقلته السنون أن يشور وأن  
يشاقق أهل السلطان في عصره ؛ فإنها لم تكد تلمحهُ وهو طفلٌ ، ولم تحفل به  
وهو صبيٌّ ؛ مما يجعل الدارس يتلمسُ أمر سيرته تلمساً حذراً ، فيقول :

هو بكر بن عبد العزيز بن ذلف بن القاسم بن عيسى (والقاسم هو  
المعروف بأبي ذلف العجلي) بن إدريس بن معقل بن عمرو بن شيخ بن معاوية  
بن خزاعي بن عبد العزى بن ذلف بن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لجيم  
بن علي بن بكر بن وائل...<sup>(١)</sup> ، يُكنى بأبي ذلف<sup>(٢)</sup> .

لا نعرف متى ولد ، ولكننا نرجح أنه توفي عنه أبوه عبد العزيز ، وهو

(١) الأنساب ١٠ ، ٢٨٢ ، والأغاني ٢٨١٧ ، وسلسلة نسب في جمهرة أنساب العرب ٢١٢ ، مختلفة فيه ؛  
« معقل بن سيار بن شيخ بن سيار بن عبد العزى... » ودرجت مصادر ترجمته أن تقول : إنه بكر بن عبد  
العزيز بن أبي ذلف اختصاراً ، ولكن ابن حزم لم يعل أن جدّه هو ذلف ، ويوافق ما قاله ابن حزم ما جاء على  
وجه الورقة الأولى من ديواته .

(٢) لم يذكر أحدٌ كنيته وإنما هي من شعره .

صغير؛ إذ لم نجد له في حياة أبيه ذكراً مثل الذي وجدناه لأخويه : دلف ، وأحمد . وإذا كنا لا نعرف تاريخ وفاة أبيه على وجه اليقين ؛ فإننا نعرف أن أخباره قد انقطعت عنا بعد سنة سبع وخمسين ومائتين يوم « فارق... الرئ » من غير خوف ، وأخلاها «<sup>(١)</sup> لصاحب طبرستان الحسن بن زيد العلوي ، مما يدل على أنه توفي بعد ذلك بمدة يسيرة ، فإذا صحَّ هذا صحَّ معه أن يكون شاعرنا قد وُلِدَ قبل سنة : ٢٥٧ هـ .

وأجدني ميّالاً إلى القول إنه وُلِدَ في سنة ٢٥١ هـ على وجه التقريب ؛ يدفعني إلى ذلك أنه شارك أخاه أحمد في الواقعة التي كانت بينه وبين عمرو بن الليث الصفار في شهر ربيع الأول من سنة ٢٧١ هـ<sup>(٢)</sup> . فقد وجدناه يفخر ببلانه في هذه الواقعة<sup>(٣)</sup> ، على الرغم من سكوت مصادر التأريخ عن مشاركته فيها . فإذا قدرنا أنه كان ابنَ عشرين يوم شارك فيها كانت تلك سنة ولادته .

على أن مما يلفت النظر في آخر ورقة من شعره ما رواه الناسخ من أن الخليفة المتوكل سألَه عن دواء الخمار ؛ فقد ورد فيه : « قال المتوكل لأبي دلف : بلغني أن عندك دواء للخمار قال : نعم تقبيلُ الأبكار ، ومصُّ الفلج »<sup>(٤)</sup> . وهذه الراوية لا تصحُّ أن تُنسب إلى أبي دلف الجدِّ لأنه كان قد مات قبل خلافة المتوكل ، ولا تصحُّ أيضاً أن تُنسب إلى صاحبنا لأنَّه في حياة أبيه لم تكن تؤهِّله . كما رأينا - أن يشاركه وقائعه ، فإذا علمنا أن كنية والد شاعرنا بكر هي أبو دلف ، ولعلَّ دلفاً هو ولدُه الأكبر ملنا إلى أن الذي سألَه المتوكل هو والد الشاعر وليس الشاعر .

(١) الكامل في التأريخ ٧ ، ٢٤٩ .

(٢) السابق ١١٦١ ، ٧ وتاريخ الطبري ١٠ ، ١٢٠ .

(٣) تنظر قصيدته التي مطلعها :

ليس هذا وأن ذات الحجال فاصرمي قد صرمت منك حبال

(٤) في الأصل : الثلج . وهو تصحيف .

وعليه ، وُلِدَ بَكْرُ في حدود سنة ٢٥١ هـ في بلاد الجبل - كما يغلب على الظن - لبَيْتٍ عربيٍّ عريق أصله من الكوفة ، ولكنه انتقل إلى أصبهان في زمنٍ لا نعرفُه على وجه التحديد ، وإن كنا نعرف أن عيسى بن إدريس العجلي كان « هو وأولاده يقطعون الطريق في بريّة نواحي أصبهان ، ثمّ تَابَ وجمع عشيرته ، وأجرى الماء في أرض الكَرَج ، وتوطّنها ، ثم ابْنَهُ أَبُو دَلْفٍ القاسم بن عيسى... زاد في عمارتها ، وجعلها تُشَبِّه البلدة »<sup>(١)</sup> . وكان بناؤها في زمن الخليفة المهدي .

والبيت الذي وُلِدَ فيه بَكْرُ بيتٌ إمارة ورثها عن باني مجد هذا البيت ، أعني به : أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي ، إذ لم يكن أحدٌ من أهل بيته ذا شأنٍ قبله ؛ فإذا كان أبوه عيسى بن إدريس - كما رأينا - قاطع طريقٍ ، فإنَّ جدّه إدريس بن معقل « كان عطاراً »<sup>(٢)</sup> . ولعلَّ هذه الحقيقة - زيادةً على سلسلة النسب - هي التي جعلتُ عبد العزيز أبا شاعرنا يُسمي أحد أبنائه بِدَلْفٍ ، وجعلتُ الشاعر نفسه يكتبني بأبي دلف كما هو واضحٌ من شعره . وكأنَّ أفراد هذا البيت كانوا حريصين أن يخلّدوا اسمَ باني مجدهم جيلاً بعدَ جيل .

وهو بيتٌ شعرٍ أيضاً ، فقد كان أبو دلف العجلي شاعراً مثل أبيه<sup>(٣)</sup> ، وكان ابنه عبد العزيز شاعراً أيضاً<sup>(٤)</sup> . أما الحديث عن شجاعة أهل هذا البيت وفروسيّتهم فقد تكفّلت به كتبُ التاريخ ؛ فقد كان أبو دلف - على سبيل المثال - من قواد الخليفة المأمون ، وكان ابنه هشامٌ من قواد المستعين<sup>(٥)</sup> .

(١) الأنساب ١٠ ، ٣٧٨ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٣١٢ .

(٣) تنظر مقطوعة عيسى العجلي والد أبي دلف في ثمار القلوب ٣٦١ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ٥٣١ ، ونقل الدكتور شوقي ضيف عنه دونما إشارة في تاريخ الأدب العربي . العصر العباسي الثاني ٤٠٩ .

(٥) ينظر الكامل في التاريخ ١٦٤ ، ١٦٥ .



ويهمني من أمر هذا البيت أنه كان لأبي دلف من الأولاد يوم أن توفي  
 ممن نعرف - ولست في معرض التاريخ له ولأولاده - دلف ، وعيسى ،  
 وإبراهيم<sup>(١)</sup> ، وهشام ، وأنه كان لدلف ، ممن نعرف أيضاً ، ولدان هما :  
 محمد<sup>(٢)</sup> وعبد العزيز ، فأما محمد فقد أنجب علياً الجد الثالث لابن مأكولا  
 صاحب «الإكمال» ، وأما عبد العزيز فقد أنجب ستة أولاد هم :

- دلف .

- وأحمد ، وكنيته أبو العباس<sup>(٣)</sup> .

- وعمر<sup>(٤)</sup> .

- والحارث ، وكنيته أبو ليلي ، وأبو وائل .

- وبكر ، وكنيته أبو دلف .

- وهطال<sup>(٥)</sup> .

وكان أبو دلف قد أسس لنفسه - كما هو معروف - «سلطاناً مستقلاً في  
 الكرج بين همدان وأصفهان ، وكان والياً عليها للمأمون والمعتصم»<sup>(٦)</sup> .  
 فاستأنف حفيده عبد العزيز على أيام الخليفة المعتز بالله عمل جدّه ، فولي  
 الجبل سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وكان الذي ولّاه وصيف ، فبلغت ولايته  
 بعد سنتين الأهواز ، وجندي سابور ، وتستر ، فقد جباها له ولده دلف<sup>(٧)</sup> .

(١) ينظر شعراء عباسيون ٢ : ٣٧٠ .

(٢) لم يذكره ابن حزم في جمهرة أنساب العرب .

(٣) كنى أولاد عبد العزيز مأخوذة من شعر بكر .

(٤) هكذا هو اسمه في ديوان أخيه بكر ، وهو يرد في كتب التاريخ على : عمرو ، وكذلك سناء ابن حزم ، وليس  
 بصحيح ، وتابعه عليه الدكتور يونس السامرائي في شعراء عباسيون ٢ : ٣٧٠ .

(٥) انفرد ابن حزم بذكره ، ولم يرد شيء من أخباره في كتب التاريخ ، ولعل السبب في ذلك أنه لم يكن مثل  
 إخوانه عنفواناً وثورة .

(٦) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٥٢٠ .

(٧) ينظر تاريخ الطبري ٩ : ٢٧٢ ، ٢٨١ .

وَحَلَفَ دلفاً أباه - وهو على قيد الحياة - في ولايته حتى وثَبَّ به القاسمُ بنُ مَناه وهو بأصبهان ، فقتله سنة ستٍّ وخمسين ومائتين ، فخلَّفه أخوه أحمد على ولاية الجبل حتى وفاته في آخر شهر ربيع الأول من سنة ثمانين ومائتين<sup>(١)</sup> .

وبوفاة أحمد بقي من أولاد عبد العزيز أربعة هم : عمر ، وبكر ، والحارث ، وهطال ، فتنازع عمر وبكر على الولاية .

ويُخَيَّل إليَّ أن عمر كان أكبر سنّاً من بكر ، وأنَّ رئاسة بني عجلٍ ، وولاية الجبل كانتا له ، ولكنَّ الخليفة المعتضد لم يُوَلِّه إلا بعد سنةٍ من قيامه الفعلي بالولاية ، مما جعله يتمرّدُ على الخلافة ، ويُشاقِقُ الخليفة .

ووقف بكرٌ أوّل الأمر مع أخيه ؛ فقاتلا معاً - بعد وفاة أخيهما أحمد - رافع ابن هرثمة ، وانهزما أمامه في جمادى الأولى من سنة ثمانين ومائتين<sup>(٢)</sup> . ولكن عبيد الله بن سليمان ، وزير المعتضد ، وبدراً غلامه استطاعا أن ينفذا إلى مطامح بكر في الولاية فيشيراهما أشدَّ ما تكون الإثارة ، حين وعدا بكرأ - وقد دخل في أمانهما - أن يتولّى عمل أخيه إذا هو حاربه ، مما أطمعه في ولاية أخيه ، وجعله ينازعه إياها<sup>(٣)</sup> .

ولم تكن ولاية الجبل التي طمع فيها بكر يوم ولأها المعتضدُ عمر بن عبد العزيز لتتعدى «أصبهانَ ونهاوندَ والكَرْجَ» مما جعلَ عمر - كما يبدو - مستمراً في سخطه على الخلافة وفي تمرّده ، حتى دخل في الأمان سنة ثلاث وثمانين ومائتين .

وإذ دخل عمر - كما قلْتُ - في أمان بدرٍ وعبيد الله انقلب الرجلان على بكرٍ - كما هو منتظر من الأعياب السياسة وأشراكها - وأناطاً أمره وأمر أخيه

(١) ينظر السابق ٩ ، ٥١٣ .

(٢) ينظر الكامل في التاريخ ٤٥٧ ، ٧ .

(٣) ينظر تأريخ الطبري ١٠ ، ٤٧١ ، والكامل في التاريخ ٧ ، ٤٧٩ .

برأي الخليفة المعتضد قائلين له : « إن أخاك قد دخل في طاعة السلطان ، وإنما كنا وليناك عمله على أنه عاصٍ ، والآن فأمرُ المؤمنين أعلى عيناً فيما يرى من أمركما ، فامضيا إلى بابه »<sup>(١)</sup> .

ولم تكن خسارة بكر لتمرَّ على نفسه مرّاً هيناً ، فجمع من أصحابه العرب ما جمع ، وتوجه بهم إلى الأهواز ، « فوجَّه المعتضدُ في طلبه وصيفاً موشكير ، فخرج من بغداد في طلبه حتى بلغ حدودَ فارس ، وكان لحِقَّه... ولم يُواقِفْه ، وباتا كلُّ واحدٍ قريباً من صاحبه ، فارتحل بكرُ في الليل فلم يتبعه وصيف ، ومضى بكرُ إلى أصبهان ، ورجع وصيف إلى بغداد ، فكتب المعتضد إلى بدرٍ يأمره بطلب بكر وعربيه ، فتقدَّم بدرُ إلى عيسى النوشريِّ بذلك »<sup>(٢)</sup> ، فانهزم عيسى أمامه : فقال بكرُ يذكرُ هربه ، وإحجامَ وصيف عن مقاتلته قصيدته التي مطلعها ،

عني إليك فليس حين ملام      هيهات أجذب رائد اللوام

وفي شهر صفر من سنة أربع وثمانين ومائتين أعادَ النوشريُّ الكرَّةَ على بكر وهو في حدود أصبهان « فقتل رجاله ، واستباحَ عسكريه ، وأفلتَ في نفرٍ يسير »<sup>(٣)</sup> ، فلحقَ بمحمد بن زيد العلوي بطبرستان ، وكان قد مهَّد لهذا اللحاق - على ما يبدو - بقوله :

أنا الرَّبَّعيُّ بكرُ لستُ أبغي      فإنَّ البغيَّ يزوي بالكرام  
ولكنني بعون الله أدعو      إلى آل الرسولِ عرى الأنام

على أنَّ قولِي هذا لا يعني أنَّه قال ما قال قبل توجَّهه مباشرةً إلى محمَّد.

(١) الممدران نساها .

(٢) تاريخ الطبري ١٠ : ٤٧ ، والكامل ٧ : ٤٨٠ .

(٣) تاريخ الطبري ١٠ : ٥١ ، والكامل ٧ : ١٨٤ . ويبدو أنَّ مصادر التاريخ لم تذكر كلَّ معاركه ، ففي إحدى هذه المعارك المنسية سار إليه المعتضد ومعه بنو حمدان . ينظر ديوان أبي فراس ١١١ .

تملقاً له ، فألقي بذلك عنه تشيعه ؛ إذ أن بكرأ قد ورث التشيع - كما يبدو -  
عن جدّه أبي دلف<sup>(١)</sup> ، وعن عائلته .

وأغلب الظن أن أخاه الحارث كان يقف إلى جانبه في صراعه مع عمر مما  
جعل عمر يعتقله في قلعة لهم بالكرج تدعى : الزُرّ ، فكان من أمر الحارث -  
وقد انهزم أخوه بكر - أن ينتقم لهزيمة أخيه ، فاستطاع أن يكسر قيوده ، وأن  
يفلت من معتقله في القلعة ، وأن يُجهز أصحابه يخرج بهم على السلطان ،  
فكانت بينه وبين عيسى النوشري وقعة «دون أصبهان بفرسخين ، فأصاب أبا  
ليلى [الحارث] سهم في حلقه... فنحره فسقط عن دابته ، وانهزم أصحابه ، وأخذ  
رأسه إلى أصبهان»<sup>(٢)</sup> . ثم إلى بغداد ، ثم استوهبه أخوه عمر من المعتضد  
فوجهه إياه فدفنه<sup>(٣)</sup> .

ويكى بكر - كما هو منتظر - أخاه الحارث حتى لحق به ؛ إذ توفي في  
طبرستان سنة ٢٨٥هـ<sup>(٤)</sup> . أما تفاصيل هذه الوفاة فيقال : إن محمد بن زيد

(١) ينظر في تشيعه مروج الذهب ١ : ٧٥-٧٦ ، ووفيات الأعيان ١ : ٧٧-٧٨ وقد أجهد الدكتور يونس  
السامرائي نفسه كثيراً في نفي التشيع عن أبي دلف البجلي جد بكر ، وكأن التشيع لآل البيت سبب يجب  
أن ينزهه البجليون الكوفيون عنها . ينظر شعراء عباسيون ٢ : ٢٢-٢٣ . وينسى الدكتور يونس أن  
الكوفة موطن الشيعة الأول ، على أنني أظن أن ماترويه بمض المصادر من أنه قال : «من لم يكن مغالياً  
في التشيع» هو من أكاذيب خصومه عليه . ومن أعاجيب الدكتور يونس أن عدّ وقوف أبي دلف إلى  
جانب المأمون وسواء من الخلفاء العباسيين دليلاً على عباسية الرجل فإذا صحّ دليله هذا فمعناه أن  
الإمام الرضا كان من شيعة بني المباس أيضاً ، لأنه قبل أن يكون ولي عهد المأمون ، فأبى عاقل يقبل  
هذا ؟ ومن أدلته أنه كان مقرّباً «إلى قاضي القضاة أحمد بن أبي داود الذي كان يُمثّل الجانب العربي  
في تلك الحقبة» وهو دليل آخر يثبت على العجب . فهو يفترض أن كلّ شيعي هو فارسي بالضرورة .  
فإذا كان هذا هكذا فكثير عزة فارسي ، والكميت ، ودعبل ، ومحمد بن صالح العلوي . والحماني  
العلوي . وأبو فراس الحمداني . والشريفان الرضي والمرتضى وعشرات سواهم كلّهم من الفرس . فهل  
قال أحد النسابين بهذا ؟

(٢) الطبري ١٠ : ٦٦ ، والكمال ٧ : ٤٨٨ .

(٣) ينظر الطبري ١٠ : ٦٧ .

(٤) مروج الذهب ١ : ٢٢٦ ، وينظر : الكامل في التاريخ ٧ : ٤٨٤ .

العلويّ قد «... أكرمَه ، وأقطعَه بلاد رُؤيان ، وجالوس ، وقبل أن يصل... إلى ولايته الجديدة هذه قُتلَ مسموماً في مدينة ناتل...»<sup>(١)</sup> .

وهكذا طُويت حياةُ شاعرٍ فارس وهو في العقد الخامس من عُمره .

والآن وقد التقطنا من حياة بكرٍ ما يَسرُّته مصادرُ التاريخ لنا منها ينبغي أن نقفَ وقفَةً قصيرةً عند شعره . وهذه الوقفة لا تعدو أن تكون عرضاً لما انطبع في نفسي وأنا أقرأ ديوانه ، فأقول :

يوشك أن يكون ديوانُ بكرٍ بدءاً بين دواوين الشعر العربيّ ؛ إذ تلتبسُ قضيةُ الصدق الأخلاقيّ فيه بالصدق الفنيّ التباساً قلَّ أن نجد نظيراً له عند الشعراء الآخرين . ومن هنا لا يكاد يمرُّ بك بيتٌ لا تجد مصاديقه في حياة بكرٍ نفسها ، هذه الحياة التي أوشتُ أن تنقسم - لولا إلماحاتٍ حيّةٍ إلى المرأة - على جانبين لا ثالث لهما هما « فروسيّته » وتوجّهه على أهل بيته .

فأما فروسيّته ففي ما سقناه من تفاصيل حياته ما يقفُ شاهداً لا يعرف الزورَ عليها ، وأما توجّهه على أهل بيته فبحسبه أن يكون فُجّع - وهو يعاني مرارةَ الهزيمة - بأقرب الناس إلى نفسه ، وأعزهم عليها ، أخيه أبي ليلى الحارث .

ولعلَّ حياةَ حافلةٍ بالمعارك - مثل حياة بكرٍ - تُغري العارف بها بانتظار أن يرسمَ له بكرٌ في شعره لوحاتٍ معاركه ، وتوثيقاً تفاصيلها بما يجعلها لوحاتٍ فريدةً في تأريخ الشعر العربيّ تتحدّث عن هذه المعارك من داخلها ، وترصد أحاسيسَ أبطالها ، وحركاتهم ، وليس كما فعل الآخرون من شعرائنا حين راحوا

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٥٢١ . ويبدو أنه اعتمد تاريخ طبرستان لابن اسفنديار وهو بالفارسية ، إذ ليست هذه المعلومة في سائر المصادر ، وكثرها الدكتور شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني ٤١١ : دون أن ينص على مصدر أو مرجع . فهل يُحسن الدكتور ضيف الفارسية ؟ وناتل . وتسمى ناتلة أيضاً بلد بتواحي طبرستان بينها وبين أمل خمسة فراسخ .

يصفونها مُتفَرِّجين مرَّةً ، ومُتَخِيلين أخرى . ولكنَّ هذا الانتظار يذهب سدًى ، لأن نزعة الفخر - وربما جاءت هذه النزعة من ثقافته الشعرية - كانت تطغى على شعره طغياناً جعله ، وهو يتحدث عن هذه المعارك ، يثكي ، على حافظته لا على خياله ، فلا نظفر منه في وصف وقائعه بأكثر من « التقت حلقاتُ البطان » و« صمَّت صمام » و« صابت بقر » و« شمَّرت الحربُ عن ساقها » وما إلى ذلك مما درج الشعراء العربُ على وصف ضراوة النزال به ، وصراع المتحاربين ، فأصبح لكثرة تكراره من قبيل العبارات الجاهزة التي لا تعني شيئاً ، ولا تثير في مخيلة السامع شيئاً .

وكان من المقدَّر لهذا الجانب أن يجعل شعره باهتاً لا قيمة له ، ولكنَّ تدفقه الحاد ، وشبوب أحاسيسه جعل الأمر مختلفاً .

وإذا ، استحال خوض المعارك عنده إلى فخر ، وهذا طبيعياً مُنتظرٌ ممن هو مثله نسباً ، وشجاعةً ، ومنزلةً ، وكان يحفز نفسه إلى الفخر بكلِّ هذا عنده ، كما قلتُ ، ثقافته الشعرية . ولكنَّ هذا الفخر - وهذا من آيات صدقه - لم يُنسبه أن يتذكَّر الجانب الآخر من حياته أيام الرِّخاء ، والدعة ، أعني جانبَ اللهو في حياة من هم مثله من الأمراء .

وينبغي ألا نتصوَّر أنه انشغل بهذا الجانب من حياته ؛ إذ هو لم يكده يَمَسُّهُ إلا مسّاً رقيقاً لا يشي بأنه من ذوي النفوس الصغيرة الذين يفرقون في ملذاتهم غرقاً يُنسيهم كلَّ شأنٍ من شؤونهم الأخرى :

ليس هذا أوان ذات الجبال	فاصرمي ، قد صرمتُ منك حبالِي
أنا منكَنٌ ما صفا جانب الدَّه	بر . وما سالمتُ صروف الليالي
فلذا ما ألمَّ خطبُ تريني	شمرياً مُشمَّر الأذيال

ويلفتُ النظر مع هذا أنه لم يُفرد قصيدةً للغزل بامرأة ، أو للحديث عن نداماه ، فهل الحرمانُ من لوازم الحبِّ ؟!



وعلى أن كتب التاريخ تصوّر لنا أنّ الصراع الذي خاضه مع أخيه عمر على الولاية كانت تُغذّيه نوازغُ فرديّةٍ - وكدتُ أقول : أنانيّة - إلا أن ديوانه يُنبئ عن حسٍّ عربيٍّ أصيلٍ ، قد يرى فيه الآخرون حسّاً قومياً ، وقد يستشهدون على رؤيتهم تلك بقوله :

... ألقى الأحبة في العراق عصيهم  
وتخاذل العرب الذين تصدّعوا  
أو بقوله :

موتوا جميعاً بني عدنان وانقرضوا  
... أراكم نُهزاً للصائلين ، وقد  
فصرتُم بعده نهباً لطالبيكم  
في كلّ يوم بأيدي الكاشحين لكم  
فليس في موتكم نفع ولا ضرر  
كانوا لكم لهزة والحرب تستعز  
فتنحرون كما قد تُنحر الجُرز  
دم كريم على أسيافهم قدز

ولعلّ الذي عمّق هذا الحسّ في نفسه أن الذين قاتلوه كانوا في الغالب من الأعاجم ، فلم يُقاتله عليّ بن المعتضد ، وإنّما قاتله وصيف موشكير ، ولا أخوه عمر بن عبد العزيز وإنّما عيسى التّوشرّي ؛ مما جعله ينظر إلى صراعه مع أخيه على أنه صراعٌ عربيٌّ أعجميٌّ . ولم يكن هذا الحسّ غريباً - لدى الحقّ - على القرن الثالث الذي عاش فيه بكرٌ ؛ فقد رأينا أبا عليّ البصير - وهو من أبناء هذا القرن - «واقفاً بباب الجوسق ، وكانت المواكب تمرُّ به فيسأل عن أصحابها فيقال : هذا فلانُ الخَزريّ ، وهذا فلانُ الفرغانيّ ، وهذا فلانُ الديلميّ ، ولا يُذكرُ له أحدٌ من العرب المذكورين ، ولا من أبناء المهاجرين والأنصار ؛ فيقول : يا بني النّعمة اصبروا لهم كما صبروا لكم»<sup>(١)</sup> .

والآن ، وقد عرفنا الهموم الكبيرة في ديوانه ، نقول : إنّ الهموم الكبيرة -

كما نعرف جميعاً - لا تصنع وحدها شعراً ؛ إذ ليس من المهم في الشعر أن يقول فقط ، وإنما الأهم فيه أن كيف يقول ؟ أي كيف يصوغ الشاعر هذه الهموم فنياً ، فكيف صاغ صاحبنا همومه وطماحه ؟

لم تكن موهبة بكرٍ من المواهب الكبيرة<sup>(١)</sup> ، بل لعله لم يكن من المقدّر له أن يصل إلى قرننا لولا صدقه في الذي عالج ، وفي الذي قال ؛ ولولا ضربة حظّ بارعة ؛ إذ هو من هواة الشعر الذين يقولونه في شؤونهم الخاصة شأنه في ذلك شأن أبيه ، وجدّه أبي دلفر ، وأبي جدّه .

وعلى أن هذه الحقيقة - أعني هواية الشعر - يمكن أن تكون له ، إلا أنها يُمكن أن تكون عليه . هي له بما يأسرنا به من صدقه ، وهي عليه إذ لم يُعط النظر في شعره ، ولم يمدّ الشعرَ همّاً من همومه التي ينبغي أن ينصرف إليها . والحقُّ أنَّ حياته لم تكن تسمح له بمثل هذا الانصراف . على أن هذا كلّه لا يعني أنه لم تكن له قصائد جيّدة من مثل قصيدته التي مطلعها :

طلابُ الغلا بركوبِ العَرَز      ولا ينفعُ المُشفّقين الحَدَز

فقد وجد فيها الناسُ في عصره من الجودة ما جعل المولّدين يتخذون من مطلعها مثلاً يتمثلون بصدقه كلما دعت الحاجة<sup>(٢)</sup> .

وكان من الممكن أن تكون قصائده جميعاً على مثل هذا المستوى ، أو ما يُقاربه لو كان لبكرٍ من الثقافة الواسعة ما كان لمعاصريه من الشعراء ، ولو كان له من الموهبة الشعرية ما كان لمعاصريه من الشعراء ؛ ولكنّ موهبته - كما أسلفت - لم تكن من المواهب الكبيرة . على أنَّ هذا لا يعني أنها كانت من المواهب الضحلة .

(١) تولّف كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٢ ٥٢١ أن أباهما كان يقول : « أدركتُ الناس يقولون : خُتم الشعرُ ببكر بن عبد العزيز » مُحيلاً على شرح الحماسة للتبريزي ٥٦٦ . وليس النضر عن صاحبنا . وإنما خلط بينه وبين بكر بن النطّاح .

(٢) ينظر الأمثال ٢٤٥ : ٢١٨ .

أما ثقافته الشعرية فقد اقتصرت - كما يبدو - على الشعر الجاهلي دون أن  
تمس شيئاً من رؤية المولدين لطبيعة الشعر ، ودون أن تقترب من أساليبهم في  
قول الشعر إلا على استحياء .

ومن هنا كان أسلوبه أقرب إلى الجاهليين منه إلى معاصريه ، وكانت لغته  
الشعرية نفسها أقرب إلى لغتهم ، حتى ليبدو من العسير على قارنه غير  
المتخصص ، وهو يقرأ قوله :

فولوا شِلاًلاً فما يعلمون      أَمْزَحْ خِيَامَهُمْ أَمْ عَشَرَ

أقول من العسير أن يكتشف أن عَجَزَ البيت لامرئ القيس وليس له .  
وحتى ليصعب عليه أن يجد فرقاً بين قول مُهَنْهَل بن ربيعة التغلبي :

إِنَّا لَنَضْرِبُ بالسَّيْفِ رُؤُوسَهُمْ      ضَرْبَ الْقُدَارِ نَقِيعَةَ الْقُدَامِ

وقول بكر :

وَأَضْرِبَنَّ الْهَامَ دُونَ حَرِيمِهِمْ      «ضرب القُدَارِ نَقِيعَةَ الْقُدَامِ»

وعلى أن هذا يمكن أن يكون دليلاً على براعة بكر ، وهو يوانم بين ما  
يقول وما يُضْمَنُ من قولٍ بحيث لا يندُّ قوله عن قول الآخرين ، ولا يضطرب  
فيضمن بذلك استواء البيت إلا أن هذا لا ينفي دلالة الأولى أعني : قرب لغته  
من لغة الشعر الجاهلي .

وترتب على كون بكر هاوي شعرٍ لا محترفاً شيء آخر يتعلق ببناء  
قصيدته ، فكان البناء له ولتاريخ القصيدة العربية ؛ إذ أن قصائده جاءت قصيرة  
لا يبلغ أطولها الأربعين بيتاً . أما سائر ما في الديوان فهو مقطعات ، فكان من  
مميزات هذه القصائد أنها توفرت لا على الوحدة الموضوعية فحسب ، وإنما كان  
في بعضها من النمو والحيوية ما يكاد يُوقِّر لها وحدة عضوية . وإذا كان لا بد  
من مثل فتحصرني قصيدته التي يتحدث فيها عن أسرِه ، والتي مطلعها :

لطمت خدّها وأعلنت الرثّة (م) لمّا رأت قيوداً ثقالاً

وإذا كان ذلك كذلك فمن البدهي أن أقول : إنّ قصائده لا تعرف شيئاً اسمه مقدّمة ، وإنما هي تنطلق منذ البداية إلى موضوعها حتى آخر بيت فيها .

وإذا كان من ملاحظة على هذا البناء فهي أن القصيدة لا تشعرك - في أحيان - أنّها أكملت دورتها فانتهت نهايتها الطبيعية . ويمكنني أن أضرب على هذا مثلاً بقصيدته التي ذكرتها آنفاً : طلابُ الغُلابِ يركوبُ الفرزُ

فقد انتهت عند قوله :

أنا ابنُ الذّوابِ من وائلٍ	وفي السّمعِ من عجلها والبصرِ
نمتُ بي إلى هضبةٍ في الدّري	تُنهيه من بسطةِ المُفتخِرِ
وأياّمنا في قراعِ الكُماةِ	ولكُ الفُناةِ مشاهيرُ عُزُرِ

أقول : انتهت عند هذا الحدّ ، وهي نهاية يتوقّع معها القارئ أن يكون لها ما بعدها ، ولكنّ توقّعه يخيبُ ، لأنّ الشاعر شاء أن يُنهي القصيدة قبل أن تنتهي هي ، وقبل أن تخبو جمره عنفوانها . ولعلّ قِصرَ نفسِ الشاعر يقفُ وراء مثل هذه النهاية<sup>(١)</sup> .

وتُحسُّ أحياناً أنّ انفعاله أكبرُ من أدواته الشعرية ، أو أن المعاني الشعرية تُعاصيه فيلجأ إلى مبالغاته هي أقرب إلى سذاجة الانفعال العاديّ منها إلى الانفعال الفنّي ، كمثّل قوله يُخاطبُ العربَ بعد موتِ أخيه أحمد :

لو كان فيكم لربُّ الخلقِ من أربٍ ما ماتَ سيّدُكم ما أورقَ الشّجرُ

وتبدو لك القافية في أحيانٍ قليلةٍ لا تنهضُ بالبيتِ نهوضاً يُبقي معناه في نفسك فضلاً عن أن يؤكّده كمثّل قوله :

(١) ونظر أيضاً قصيدته التي أوّلها :

ومجرُّرُ لقناتِهِ خرَّقَ العنوفُ يريْدُ قرنا

ومُقامُ العزيزِ في بلدِ الدُّلِّ (م) إذا أمكن الرُّحيلُ مُحالٌ

فالقافية : « محالٌ » نزلت - كما هو بيّنٌ - بالبيت من علياء سماوات الشعر إلى وهدة النثر المألوف .

واضطرتّه القافية - ذات مرّة - ألا يفرّق بين الفصل والوصل فيقول :

ولربّما أبصرْتُني في رِيطَةٍ بين الغواني مُرجّلاً وكحِلاً

ولبكرِ نظراتُ في الحياة مبثوثةٌ في قصائده كان من المُقدَّر لها أن تكون خالدةً خلود نظرات المتنبي لو كان رزق موهبته ، ولكن هذه النظرات رغم سيرورة بعضها لم تأتلق بتوهج الحياة الذي يهبها السيرورة المتألقة المتوهجة على مرّ العصور .

ورغم كلّ هذا فشعر بكرٍ يرقى إلى درجةٍ رفيعةٍ بموقفه - والشَّعرُ موقفٌ - وبصدقِهِ مع نفسه ، ولعلّه بسببِ من هذا يبقى قريباً إلى النفسِ حميماً كما لو أنه حديث صديق صدوق يبوح لك بأسراره حالي فرجه وحزنه .

# شعر عن الجواهري

## الشاعر والنبوءة

ولهذه النبوءة قصّة : فقد زار الكويت بدعوة منها عام : ١٩٧٩ إذا صدقت  
الذاكرة ، وقرأت كعنه فيها إحدى الزاعمات أنهن ممن يعرفن الغيب من خلال  
قراءة الكف ، فقالت له : إنك لن تموت قبل أن تبلغ المائة ، وكان سعيداً بهذه  
القراءة إلى درجة أنه كان يُباهي بها .

ولكنه كان قبل هذه القراءة - وهو المحب للحياة - يكابرُ أصدقاءه بأنّه لن  
يموت قبلهم حتى لا تُذكّر أنه خاطبنا ذات يوم : المخزومي ، والطاهر ، وأنا :  
- والله لأكل حلاوتكم (يقصد الحلاوة (الحلواء) التي اعتاد أهل الميت أن  
يُطعموها الناس يوم مرور أربعين يوماً على وفاته) .

وقد أكل حلاوة المخزومي ، والطاهر ومنات من أصدقائه أمثالهما ، ولم  
يأكل حلاوتي حتى إنه سألني ذات يوم مازحاً :

- ولك ، إذا متُ ترثيني ؟

- موت وشوف أبو فرات (بمعنى مت تر) .

- طاح صبعك .

وكان للجواهري من صحة الحدس ما يدخل في عالم النبوءات فعلاً



(وقديما خلط العربُ النبوءةَ بالشعر ؛ لأن من وظائف الشعر عندهم النبوءة) .  
فمن نبوءاته أنه كان قد رافقه أحدُ أصدقائه من الشعراء العراقيين على متن  
طائرةٍ تُقلِّهما من براغ إلى بغداد . وأحسَّ الجواهريُّ أن الطائرة ستعترضُ إلى  
شيء ؛ فلم يكتم ذلك عن رفيق رحلته ، ولكنَّه وهو يُفاتحه بما أحسَّ لم يكن  
يدري أن صاحبه سيرتعبُ كلَّ ذلك الرَّعب ؛ فقرَّر أن يتمادى في تهويل حدسيه ؛  
فتناول زجاجة البيرة التي أفرغها تَوّاً ، وكتب على ورقة : « أنا الشاعر العراقي  
محمد مهدي الجواهري أحسُّ بأن هذه الطائرة ستسقطُ فلا يخرج منها أحدُ  
سالمًا » ثم كتب الساعة والدقيقة ووَقَّع ، ولفَّ الورقة فأدخلها في الزجاجة  
وأحكم سدَّادها . فعَلَّ الجواهريُّ كلَّ هذا ببرود أعصاب ، وكان صاحبه يحسُّ أن  
قلبه نزل إلى سُرَّته - من الخوف - ولم يعد في صدره .

وما هي إلَّا دقائق حتى اضطربت الطائرة ، وأشعل قائدُها الضوء الأحمر ،  
وطلب من ركابها شدَّ الأحزمة ، ثمَّ هبط مضطرباً في مطار صوفيا . حدثَ كلُّ هذا  
والجواهريُّ سعيدٌ يضحك أنَّ صاحبه خائفٌ وأن نبوءته تحقَّقت .

وإذ روى لي الحكاية ، كان صاحبه قد رواها لي من قبل ، مما جعلني  
أسأله : وأنت ألم تحسَّ بالخوف من الموت ؟

قال : لا ، لأنني بالغتُ في تصوير حدسي لما رأيْتُ رُعبَ صاحبي .

وإياك أن تظنَّ أن الجواهري ممن يتلذَّذُ بخوف الناس ، ولكنه كان من  
الولع بممازحة أصدقائه ونصب المقالب لهم شيئاً عجيباً ، ولن يكفَّ عنك إذا  
نصبَ لك المقلبَ إلَّا حين يتأكَّد من أنك استوفيته . وكانت علامةُ الاستيفاء  
عنده أن يهتف مُبتهج الصدر ، سليم الطوية :

- أكلها طريمش .

طاف هذا في ذهني كما يطوف النَّدى في رمالٍ قاحلة وأنا أستمع منصعقاً  
إلى نَبأ وفاته ؛ فوجدتني مُنشدّاً إلى كلِّ ذكرى عذبةٍ من ذكرياته حتى إنني

هَرَعْتُ إلى خزانة صغيرة في مكتبتني أَلْب فيها بعض ما أحتفظُ به من رسائله  
إليّ وأوراقه ؛ فورقةٌ يُعدّد فيها القوافي التي يمكن أن يستعملها في قصيدة لا  
أظنُّ أنها اكتملتْ أو نُشِرتْ ؛ لأنه لا أكرم من الجواهري في قراع خصومه ،  
وأخرى يُعدّد فيها ما أنفق من كروونات جيكتة في هذا الشهر أو ذاك ليعرف  
كيف يتدبّر أمره ، وثالثة يتعلّم بها بعض الكلمات الجيكية يكتب نُطقها بحروف  
عربية ، وخامسةٌ وسادسةٌ ، وهكذا .

ولكن كيف تهنيأ لي أن أعرف الجواهري وأنا لا أكاد أبلغ نصفَ سئه . إنَّ  
لذلك قصّة ترتبطُ أعمق الارتباط بإيمان الجواهري بضرورة أن يمتلك كلُّ إنسانٍ  
ضميراً اجتماعياً يضعُ المقاييس في نصابها .

كان ذلك في عام : ١٩٦٩ يوم انعقد مؤتمر الأدباء العرب في بغداد<sup>(١)</sup>  
الذي ألقى الجواهري فيه :

يا ابن الفراتين قد أصفى لك البلدُ زِعماً بأنك فيه الصادحُ الغرْدُ  
فقد كان من أمرِ هذا المؤتمر أن تألّب جماعةُ الكتبة من جمعيّة المؤلّفين  
والكتاب المراقين على الجواهري ؛ وكأنّهم لم ينسوا ثأرهم عن قصيدته الميمية  
« دارة المجد » التي قالها قبل ستِّ سنواتٍ من انعقاد المؤتمر المنشورة في  
الجزء السابع من ديوانه ، ، والتي لم يُنشر فيها قوله مخاطباً عبد السلام عارف  
رئيس الجمهورية العراقية ، وجمال عبد الناصر الذي هيأً للانقلاب الأسود ؛  
انقلاب شباط عام ١٩٦٣ :

يا عبدَ حربٍ وعدوّ السلام      يا خيزي من زكى وصلى وصام  
يا ابنَ الخنا إنّ دماء الكرام      نارُ تُلطّي في عروق اللثام

(١) ويظهر أيضاً أنستاد أن كبيراً قد تكرر الحديث عن هذه الذكرى في ذكرياتي عن أستاذي علامة الدكتور  
علي جواد الطاهر .

أبكي بأنَّ الطفلَ بعدَ الرضاع      يُذبحُ والدَّبْحُ له كالْفِطامِ  
فهنئِ الفرعونَ في «مصرِهِ»      بينَ الخواني وكؤوسِ الصَّدامِ  
أنَّ العراقَ انشَهبتْ دورُهُ      عشيَّةً ثمَّ استتبَّ النظامُ  
وكان للأزهرِ من شيخِهِ<sup>(١)</sup>      عمامةٌ قد باضَ فيها الحَمَامُ

أقول : تألَّب جماعةُ الكتبة فكان أن ألقى في المؤتمر المحامي هلال ناجي قصيدةً يردُّ فيها على الجواهري قصيدته :

من قالَ والخسفُ يطوينا وينشرنا      وفي جراحاتنا من قيده أثرُ  
«فضيَّقَ الحبْلَ واشدَّدَ من خناقِهِمْ      فربُّما كان في إرخائه ضررُ» ؟

وكان كلُّ هذا مما يمكن أن يتكفَّل به الفقيـد في القاعة . فأما الذي لم يتكفَّل به فهو أنَّه كان بسيم الذويـب - وهو ضابط شرطـة يحبُّ الأدب ويكتب الشعر من أعضاء جمعية الكتاب والمؤلفين - قد قرَّر أن يُصدر كُتَيِّباتِ اسمها «شعراء المؤتمر» ينقلُ فيها للناس القصيدة التي ألحَّها هذا الشاعر أو ذاك ثم ينقدُها . وكان من انعدام الحسِّ الأدبيِّ في أمر هذه الكُتَيِّباتِ ، ومن غلبة أمر التجارة عليها بحيث أن كان يقرأ الشاعرُ قصيدته الليلة فتصدر بعد أيام .

وقرأتُ ما قال عن الجواهريِّ فرأيتُ الجهلَ يمشي في كُتَيْبِهِ على قدمين ، ولم يكن يهمُّني أنذاك أن أناقشَ الحقْدَ على الجواهري أو الخصومات السياسية معه أو ما أشبهه : لأن سَنَيَّ لم تكن تؤهِّلُني أن أناقشَ مثلَ هذه الأمور .

وهالني جهلُ بسيم الذويـب أن ينصبَّ خبر «إنَّ» في القصيدة لكي يقول : إنَّ الجواهريَّ يجهل أن خبرها مرفوعٌ ، وهكذا : لأنَّ ما كتبتُ منشورُ يُمكن أن يُرجع إليه . فكتبتُ إلى جريدة «النور» التي كانت تنطق باسم حزب الأستاذ جلال الطالِباني مقالاً أناقشُ فيه ما قاله المرحوم الذويـب - وكان المشرف على

(١) من دأمانه أن أقول : أنني غير متأكد من روية مصدر البيت

الصفحة الأدبية في (النور) يومذاك الفقيد الأديب هاشم صاحب - ولم أكن أعرفه - وإذا بي أجد المقال يحتل الصفحة الأدبية من «النور» بكاملها!! .

ولك أن تتصورَ مشاعر ولدٍ لم يكد يُجاوز المراهقة ويزعم أنه يهوى الأدب - وهو يرى أن أوّل مقالٍ يُنشرُ له يحتلُّ صفحةً كاملة - كيف تكون ؟ فأما الولدُ فلا يستطيع أن يتذكّرَها تماماً ، ولكنه يستطيع بوضوح تام أن يتحدث عن آثارها في حياته .

فكان من هذه الآثار أن دخلَ إلى صفّه في كلية الآداب أول مرّة الدكتور الراحل علي جواد الطاهر ، فقرأ أسماءَ الحاضرين وحين وصل إلى أن يقرأ اسمه سأله :

- أأنت صاحب مقالة «النور» يوم أمس ؟

فقال وهو خائفاً وجلّ متلجلجاً :

- نعم أنا - وسكت الدكتور .

ولكن حين انتهت المحاضرة وخرجنا وجدتُ الدكتور الطاهر مع الفقيد الدكتور باقر سماكة يقول له :

- هذا هو الذي أنفقنا جلستنا أمس مع الجواهري في مقالهِ : إنّه فلانُ .

ولا أتذكّر في كلّ أيامي أنني كنتُ أتصورُ أن الدنيا كانت تستحق أن تُعاشَ كما تصوّرتها يومذاك وإلا فكيف تكافئُ ولداً مثلي لم يُجاوز تماماً أعتاب المراهقة أن يكون حديث مجلس الجواهري .

وكانت الصاعقة الأخرى في حديث الطاهر أن الجواهري كتب أبياتاً في المسألة برمتها وأنه يريد أن يراني .  
وقلتُ لأستاذي الفقيد الطاهر :

- إن شاء الله .

وكنْتُ أدري سلفاً أنَّ الله لن يشاء ، لأنني لا أتصوّر أن أكون في حضرة الجواهري ، وأنا الذي لا يستطيع أن يدخّن يومذاك في حضرة أساتذته خجلاً .

ولم أر الجواهري إعظماً له حتى خاطبني في ذلك مرّة أخرى ابن عمي المحامي أحمد الأعرجي ؛ فقد كان أحمد وكيله القانوني في كلّ شيء إلى الدرجة التي وصفه بها إليّ في رسالة أنه « لو شاء أن يحرمني أنا وعيالي من لقمة الخبز لفعل » .

ولا أظنّ أن الجواهري أعجِبَ بالمقالة التي كتبها لأنها كانت من قلم عبد القاهر الجرجاني ، أو تي . أس . إليوت ، وإنّما كان - ولا شك - معجباً بروح الإنصاف فيها .

وبهذا يجب أن نفسّر حملته على الدكتور محمد مندور في قصيدته « دجلة الخير » ابتداءً من قوله :

ويا زعيماً بأن لم يأتِه خبرُ عَمّا يُنشَرُ في تلك الدواوين

بل إن الجواهري كان لا يمتنع أن يحمل على أقرب أصدقائه إذا رأى أنّهم سكتوا عن إحقاق الحق ، فقد أجرت مجلة الديار اللبنانية في أواسط السبعينات مقابلة مع الشاعر الأستاذ عبد الوهاب البياتي انتقص فيها من شاعريّة الجواهري ، فكتب بوحى من هذه المقابلة قصيدته « أزح عن صدرك الزّبداء » وإذ انتهى فيها من الأستاذ البياتي عرّج على أصدقائه المقربين الذين لم يقولوا رأيهم في المقابلة فكان من رأيهم فيهم :

بهم عـورُ إلى مـدَدٍ وأنت تُريدُهم مـدّدا

وأرجو ألاّ تسألني عن هؤلاء الأصدقاء من هم ؟

ولعلّ هذا هو السبب الذي لم يجعله يرثي الدكتور طه حسين وهو

صديقهُ : لأن الدكتور طه كان لا يرى مانعاً أن يُعيد ما ينشرهُ الجواهري في العراق في مجلة «الكاتب المصري» ، ولا يرى حرجاً أن يُثني على شاعريّة الجواهري بلسانه ، ولكنّه لا يرى أن يُثني عليه بقلمه .

وأتذكّر أننا كنّا جالسين في مقهى فندق «الآليه» بالجزائر ، (ويسمى الآن فندق السفير) فجاء أحدُ الشعراء الجزائريين يُسلم عليه وهو لا يعرفه ، فدعونا للجلوس معنا ، وقال الشاعر الجزائري أثناء الحديث أنه مُعجبٌ بما كتبه طه حسين عن الجواهري فسأله الجواهري :

- أين ؟

فقال : في حديث الأربعاء .

فأجابهُ بحدّة :

- أتحدّثك إذا كان ذكر فيه حرف الجيم من اسم الجواهري! ثم أردف :

- أتدري لماذا ؟ لأنني عراقي .

ويتحدّث كلُّ من عرف الجواهري أنه شاعرٌ نرجسيٌّ لا يُعجب إلا بما قال ، ولكنّ ذلك ليس صحيحاً تماماً ؛ فقد كان من مذهبه في إحقاق الحقّ أنه لم يكن يبخلُ الناسَ أشياءهم ، وأتذكّر الآن حادثتين أولاهما أن دوّت في العراق قصيدة الصديق الشاعر الأستاذ مظفر الثّواب «وتريات ليلية» فبلغ دويّها مسامع الجواهري ؛ فسألني ذات يوم عما إذا كان لديّ فكرةٌ عنها أو أنني سمعتها ، فقلتُ له :

إنها من القصائد التي تستحقّ الدويّ رغم أن بناءها ، من الناحية النقدية ، مُفكّكٌ شيناً ما ، وإنني أحفظُ بنسخةٍ منها يلقيها بصوته ، فطلب مني الشريط وإذا سمعَ قال :

الناسُ مُحقّقون في الإعجاب ، إنها قصيدة!!

أما الحادثة الثانية فهي أن اقتحم عليه داره ذات يوم الفقيد الشاعر عبد  
الأمير الحصري وهو طافح لا يكاذ يعقل من السكر ليقول له :

نظمت خمسة أبيات فيك أريد أن تسمعها : فقال له - بعد تلكؤ لأن  
الجواهري وهو من المفرمين بالكأس كان يحب الشرب ولكنه كان يكره  
المبودية حتى ولو كانت عبودية السكر - هات :

فقرأ الحصري أبياتاً خمسة دالية لا أتذكرها الآن ولكنني أتذكر أن القافية  
كانت من قبيل : « عمد ، رأد ، جدد ، أخذ » وهكذا ، وبإذ وصل الحصري إلى  
البيت الأخير وكان معناه : أن لكل الناس عمراً محدوداً واحداً قال في عجزه :

إلا قوافيك - واسلم - عمرها...

وسكت الحصري وهو - في خيال السكر - يقول للجواهري : هات  
القافية ، فقال له :

- طاح حظك ، ولك هو أكو غير « لبد » ؟  
وفي الأسطورة أن « لبد » من النسور التي عُمِرت طويلاً ففُضِرَ بطول  
عمرها المثل - فقال الحصري : وهو يقهقه لا :

إلا قوافيك - واسلم - عمرها الأبد

واتنفذ الجواهري كالمسوع - وكان من عادته أن يبلي سروال بجامته ولا  
يمس قميصاً فيبقى جديداً لأنه يلبس مع سروال البجامة قميصاً عادياً - فسحب  
من جيب قميصه خمسة دنانير حلف أنه لا يملك غيرها ، وأعطاهما للحصري  
وهو يعانقه قانلاً له :

- ولك هذي لعيون هذي القافية والله ، ولو كان معي أكثر منها لوهبتك إياه .  
وكدت أنسى وأنسيك ما أنا فيه من حديث لقائي به أول مرة فدعني  
أقول :

كان أول انطباع لي عنه وهو يتبسّط في حديثه معي أنه أنسانٌ مثلنا وليس نصف إلى كما كنتُ أتصوّر ، وبدأت أواصر المودة تنعقد بيننا حتى بلغ من حسن ظنّه بي أن كان يرسلُ قصائده للنشر في جريدة الجمهورية على يدي ، وخولّني أن أشرح ما أجدهُ مبهماً من أبياتها<sup>(١)</sup> .

وبدأت انطباعاتي عنه وعن شخصيّته الساحرة ، وعن مزاجه العنيف تتكوّن يوماً بعد يوم .

والآن إذ أسترجع هذه الانطباعات ، وأعيد النظر فيها أجدُ أنّ أبرز ما يميّز الجواهريّ تناقضُ شخصيّته تناقضاً يكاد يكون نادر الحدوث في تاريخ الشعر العربي . ولا أشكُّ في أنه كان يُحسُّ بهذا التناقض إحساساً عميقاً .

فمن هذا الإحساس العميق كان الجواهريّ فريداً في تمرية نفسه وفي محاسبتها ، ولي في قصيدته « أزح عن صدرك الزبدا » مثالٌ صارخٌ على هذه التمرية فقد قال فيها يحاسبُ نفسه :

وتطمعُ تجمعُ القمرين	حسنهما أن انفردا...
عجيبُ أمرِكَ الرّجراجُ	لا جَنَفاً ولا صَدَدا
تضيّقُ بعيشةِ رَعْدٍ	وتهوى العيشة الرّغدا

ولا أريد أن أطيل في ضرب الأمثلة ؛ لأن هذه الظاهرة واضحة كلّ الوضوح في ديوانه حتى لكانه لم يكن ابنُ قوله في « المقصورة » :

أقولُ لنفسي إذا ضمُّها	وأترائبها محفلٌ يزدهى
تساميَ فإنيك خيّرُ النفوسِ	إذا قيسَ كلُّ على ما انطوى

ومن هذا التناقض أنّ الجواهريّ لا يرى في الدنيا مجداً كمجد الشعر

(١) من الأمانة أن أقول ؛ إن معظم شروح قصائده في السبعينات هي من عملي وإن الطبعة المراقية من ديوانه ، والروية من بعدها . قد أخذتُ بهذه الشروح .



وكمجده شاعراً ، ولكنه كان أيضاً - مثل سلفه المتنبي الذي يلومُه أنه كان يطمحُ إلى مجد السلطة - يتحرَّق إلى مجد السُلطة . وأتذكَّر أنني أجريتُ معه حديثاً سنة ١٩٨٢ في بيته ببراغ استغرق اثنتي عشرة ساعة ضاع منها أثناء تنقلاتي في بلاد الله العريضة ثلاث ساعات ، فكان أن سأله فيه :

هل كان يطمح أن يُستوزَّر في صدر شبابه أيام كان في النجف كما استُوزِرَ الشيخُ محمد رضا الشيببي ، وابنُ عمَّة الجواهريِّ الشيخُ عليُّ الشرقي ؟ فأجاب :

- كنتُ أكاد أمزِّق عباوتي ؛ لأنني لم أستوزر مثلهما ، وإلا فبماذا يفضلاني ؟

وكتب في عام ١٩٨٠ إلى أحد أصدقائه من زعماء الأحزاب السياسية العراقية المعارضة رسالةً (ومسودة الرسالة عندي في ورقة من أوراقه) يقول له فيها من بين ما يقول :

«المصيبة يا حبيبي... أن هناك من لا يتذكَّرني إلا عندما يحتاج أن أغنيه ؛ حتى لكأنني لستُ شيئاً غير ذلك ، وحتى لكأن كلَّ ذلك التاريخ وكلَّ تلك الجولات ، وكلَّ تلك التضحيات لا تستحقُّ أكثر من أن تُسمَّى شعراً ، وصاحبها شاعراً . وعلى هذه المقاييس المضحكة والمبكية معاً ، كان الواقع المرُّ يُطبِّقُ عليَّ حين تُقتسم الحصصُ ، ولك أن تتذكَّر الشواهد عليها » .

ولعلَّ هذا التحرُّق إلى السلطة هو الذي خلق من الجواهريِّ شاعراً سياسياً فريداً في كلِّ عصور الشعر العربي .

ولكن لا ينبغي لأحد أن يظنَّ أن تناقضات الجواهريِّ كانت تجورُ على ضميره ، أو على موقفه . ولي على ذلك شاهدُ لن أنساهُ هو أنَّه كان ينشرُ في الصفحة الأخيرة من جريدة الجمهورية « مختارات الجواهري » - وكان يُشرف على الصفحة الصديق الحميم سعود الناصري - وكان كلَّفني الجواهريُّ بالإشراف

على هذه المختارات شرحاً وترجمةً لشعرانها ؛ وإذ وقف الجواهري موقفه من كامب ديفد ، ومن الزعماء الذين يزعمون أنهم يعارضونها صدر قرارٌ من رئاسة الجمهورية العراقية بمنع نشر اسم الجواهري في العراق ، ووقعت جريدة الجمهورية في حيص بيص - كما يُقال - وأبلغني رئيس تحريرها بحرجه من القرار ، وبلغتُ به الجواهري فتَهَلَّلَ له كما لو أنني أرفُ له خبر أن إحدى ملكات جمال العالم تَضَعُ قلبها وجسدها تحت مشيته .

ولم يكن كلُّ هذا غريباً عليّ ولا غريباً على من قرأ شعر الجواهري ، ولكن الغريب أننا كنا نتقاسم مكافآته عن المختارات من جريدة الجمهورية ، إذ كان له ثلثان منها ولي ثلث ، وأتذكرُ أنَّ المبلغ كان خمسةً وسبعين ديناراً له منها خمسون ، ولي خمسة وعشرون ، وأن جريدة الجمهورية قد أصرَّت أن تدفعَ لنا مكافأة المختارات حتى بدون نشرها ، وبلغ إصرارها على ذلك أن استدعاني مُحاسِبُها أن أتمسَّم مكافآت ثلاثة أشهر ، فقلتُ له : ينبغي أن أَسْتَشِيرَ الجواهري .

واستشرته - وليس أحداً يُحِبُّ المالَ كالجواهري ، ولكن لا كحُبِّ البخلاء - فهو يحبه لكي ينفقه في رفاة أبنائه وفي ملذآته - فسألني :  
- وأنتَ ماذا رأيك ؟ فقلتُ :

- إنني لن أتمسَّم مالاَ عن عملٍ لم أقم به ، فبلغ من الفرح أن هَتَفَ بي :  
- ولك اليوم أنت تستحقُّ كونيَاك أَرارات ، وكان يُحِبُّه كثيراً ، وأتى بزجاجةٍ منه ، وشربنا فقال :

- كنتُ خائفاً فقط من أنك محتاجٌ إلى مكافئتهم تستعين بها على أمورك ،  
أما وقد أسعدتني برأيك فالبس واشرب . صحتك!

ومن هذه التناقضات أن كان دقيق الحسابِ المعياً فيما يهمه من أمرٍ حتى

لقد قال في آخر بيتٍ من قصيدة - غير منشورة - يُهديني بها الجزء السادس من ديوانه عن نفسه :

بَقْدَرِ ما كان من ضَعْفٍ ومن ثَقَةٍ      فيما يُحاوله كانت ذرائعُه  
ولكنْ هذا الذي يُعدُّ ذرائعه على وفق قوَّته وضعفِه ، وكأنه من  
الستراتيجيين الكبار ، يبلغ من البراءة ، وسلامة الطويَّة أن استضافه في بيته  
طاغيئةً وغدُ من طغاة العراق الأوغاد ، فطلب من الجواهري أن يقرأ له شيئاً من  
شعره فابتدأ أبو الفراتين ، والله أقرأ لك آخر ما كتبتُ من أبياتٍ لم تكتمل بعدُ  
ولم تُنشر :

قالوا : سكَّتْ وأنتَ أظفَعُ مُلهِبِ      وعيَ الجموعِ لزندها قداح  
فأجبتُهم ، أنا ذاك حيثُ تشابكت      غلبُ الفوارسِ تحتَ غابِ رماح  
لكنْ وجدتُ سلاحَهم في عَطَلَةٍ      فرميتُ في قَمَرِ الجحيمِ سلاحي  
حتى إذا وصل إلى قوله فيها :

ولقد أقولُ لصاحبي لم أدْرِه      أسيانٌ أم ثَمِلًا : أفقِ يا صاح  
كنْ فوق داجية الخطوبِ وربيها      وألحْ من أذيَّها الملحاح  
وثخَّذْها فلقد تحدَّتْ صخرةُ      طوفانِ نوحٍ ببطشه المجتاح  
قال له مُضَيِّفه بنفاد صبرٍ :

- ما عندك قصيدة غزل ؟

ولن أطيل في هذا التناقض الذي أعدّه سرُّ إبداع الجواهري ، ولكنني أريد  
أن أحدثك عن جانبٍ آخر منه هو أيضاً سرُّ عِفَّةِ الجواهري ، وعظمته في مقارعة  
خصومه من سياسيين وغير سياسيين . فالفقيد الجواهري عنيف المزاج - كما  
قلتُ - ويفرضُ عليه عنفُ المزاجِ هذ ، وروح التحديِّ اللذان جُبِلَ عليهما أن  
يقول ما يراه ممَّا يجرح الآخرين بأكثر مما يجبُ أو أن يسيء إلى أولادهم

وأسرهم فيمتنع عن نشره تارة ، وعن إكمال ما بدأ به تارة أخرى على الرغم من أنه كان هو المبدوء بالإساءة دائماً .

ولم يكن هذا الخلق بغريب على رجل يبلغ من الترفع عن الصغائر وعن مهاترات الخصوم مبلغاً جعله يقول :

تَقَحَّمْتُ الوَعْيَ وَتَقَحَّمْتَنِي      وَخَضْتُ عَجَاجَهَا حَرْباً سَجَالاً  
فَكَانَ أَجَلٌ مِّنْ قَارَعَتْ خَصْمُ      بُنْبُلٍ قَرَاعِهِ رِيحَ الْقِتَالِ

ولكنني مع هذا أريد أن أضرب مثلين على ما قلتُ أعلم أنه لو كان حياً لما سمح لي بقولهما ، ولكنَّ الجواهري لم يكن ملك نفسه وإنما هو ملك تاريخنا الأدبي ، وملك وطننا العراق .

فأما المثل الأول فهو أنه كان قد هجا مصطفى العمري بقصيدته المشهورة « طرطرا » وأن القصيدة قد طبعت في الجزء الثالث من الطبعة العراقية من ديوانه ، وكان قد كمل طبع الجزء وانتهى ، لولا أن أوقف صدوره حين رأى نفسه يقول :

إِنَّ أَبَا مـــــــــــــــــــــؤَيْدٍ      عَرِيَانُ مِثْلُ الْقَمَرِ  
يَصْنَعُ مَسَا يَصْنَعُ لَمْ      يَخْشَ وَلَمْ يَسْتَتِرِ  
يَنِيكُ أَمَّ الْمَرْتَشِي      نِيكَ الْحِمَارِ النَّعْرِ  
وَيَسْتَهِنُ بِالْوَسِي      ط شَاكِراً وَيَزْدَرِي  
إِنَّ أَبَا مـــــــــــــــــــــؤَيْدٍ      لَا يُشْتَرَى بِقَمَرِي

واستغربت اللجنة من موقفه ، واحتجَّت بأن الأبيات سبق أن نُشرت في جريدته « الرأي العام » وأن الأمانة التاريخية تقتضي أن يُنشر كلُّ ما كان قد نُشر كما هو فلم يقتنع بكلِّ هذا - وكان أكثر أعضاء اللجنة إلحاحاً على الموضوع الأستاذ رشيد بكتاش - فقال :

- لا أمانة ، ولا مماناة . قلتُ ما قلتُ يوم كان أرشدُ العمري حيّاً بيده السلطة يستطيع أن يدفع عن نفسه وعن ولده . أما الآن فما هو ذنبُ ولده مؤيد أن يُذكر اسمه في موضع لا ناقة له فيه ولا جمل ؟ لا ، لن يُنشرَ هذا المقطع في الديوان ، وهكذا كان ومن يملك نسخة من الطبعة العراقية للديوان يجد أن الأبيات التي ذكرتها جديدة على طبعته .

أما المثلُ الثاني فهو أنه استدعاني ذات يوم على عجلٍ - وكان الوقتُ ظهراً - وكان ذلك في سنة : ١٩٧٧ إذا صدقت الذاكرة ، وإذ تغدينا معاً قال :

- اسمع أبا هاشم أنا عُدرتُ في مُستحققات ديواني الذي طبعته وزارة الإعلام ، فقد كوفنت عن طبع سِتّة أجزاء : بنسبة آلاف دينارٍ عراقيٍّ . صحيح أنا الذي اقترح المبلغ ولكنك تعلم أنني بريء في هذه المسائل ، وقد خاطبوني الآن يريدون مني الجزء السابع وكأنهم اشتروا كلَّ شعري إلى يوم وفاتي ، فرفضتُ وعرضتُ عليهم أن يُطبع الجزء السابع بعقدٍ جديد ، ومبلغٍ جديد فوافقوا على أن يزورني اليوم : طارق عزيز - وكان يومها وزير الإعلام - ومحمد جميل شلش - وكان مدير النشر ، وعليّ الحليّ تتفاوض على الديوان . وطلبتك الآن لكي تُرتّب لهم جزءاً سابِعاً وهاهي مسوداتُ القصائد على الطاولة ؛ لأنه من غير المعقول أن تتفاوض على شيءٍ غير موجود . أريد أن نصنع ملفاً سميناً أعدهم أنني سأسلّمه للجنة بعد الاتفاق .

ولم يكن لدى الجواهري جزءٌ سابِعٌ ، وإنما كان عنده مشاريع قصائد بعضها لم يكتمل ، وبعضها كتب منه بيتاً واحداً هو المطلعُ فحسب . ولكنّه كان متأكّداً أن لديه الكثير مما يُطبع لو لم يكن على عجلةٍ من أمره .

ورثبنا الجزء السابعَ فرأيتُ من مسودات الجواهريّ المثلُ الثاني الذي وعدتُك به ، فقد رأيته يهجو إحدى الوزارات العراقية على عهد عبد السلام عارف ، وكان فيها وزيران ممن يعرفهما حقّ المعرفة أحدهما ابنُ بلدته وقد

عَيَّنَ وزير الوحدة والقيادة السياسية المؤخدة ، وثانيهما صحفي له تاريخٌ معه .  
فقال في مشروع قصيدته - كما وعثها الذاكرة - وهي قصيدة فائية لا أظنُّ أنه  
أكملها :

سَقِي وَحْتَمُ أَنْ تَسْقِي      مَادَامَ رَأْسُكَ تَحْتَ خُفٍّ  
مَادَامَ مِنْبُودُ الْقَطِيبِ      فَرِ وَزِيرَ دَوْلَتِكَ الْمُصَفِّي  
وَالْأَقْرَعُ الرِّكَاضُ بِالْمُصَّبِيَانِ      مِنْ صَفٍّ لَصَفٍّ  
رَجُلُ الْقِيَادَةِ وَالسِّيَاسَةِ      وَالتَّوَكُّدِ وَالتَّحْقِيقِ  
سَقِي لِمَنْ أَلْفِ مَضَتْ      تَتَدَحَّرَجِينَ ، وَبَعْدَ أَلْفِ

وصحيحٌ أن اللغة لا تُجيزُ للجواهري - كما هي في المعجمات وهو أوسعُ من  
أيِّ معجم - أن يقول : سَقِي ، لأن الفعل رباعيٌّ ، ولكنه لو كان يريد الاقتراب  
من الصغائر لما عديم حيلة .

ومن ترقعه عن الصغائر أن انعقدَ مؤتمرُ قَمَّةِ فاس سنة ١٩٨١ الذي عَرَضَ فيه  
الملكُ السعوديُّ فهد بنُ عبد العزيز ما عُرِفَ - بعدئذٍ - بمشروع فهد لتسوية  
الصراع العربي الإسرائيلي ، والذي اختلف عليه الحاكمون العربُ إذ ذاك ؛ فقال :

أَقِيمْ بِفَاسٍ مُؤْتَمَرُ تَخْلَى      ذُووهُ عَنْ طَبَاقٍ أَوْ جِنَاسٍ  
وَمَا كَانُوا الرُّؤُوسَ فَهَمَّ ذُنَابِي      وَلَا نَاساً فَهَمَّ أَشْبَاهُ نَاسٍ  
وَلَكِنْ نَصَّبُوا شُرْطَةً غَلَاظاً      يُدَاسُ بِهِمْ عَلَى غَنَّتِ الْقَدَاسِ  
وَبَعْدَ تَلَاوَةٍ لِلذِّكْرِ كَانَتْ      كَتَفُطِيَةِ الْجَنَائِزِ بِالْقَدَاسِ  
وَبَعْدَ تَضَارُبٍ فِي الرَّأْيِ أَفْضَى      وَكَادَ إِلَى التَّضَارُبِ بِالْكَرَاسِ  
تَهَاوَى جَمْعُهُمْ عَجْلاً كَسِقَطٍ      تَهَاوَى بَعْدَ أَوْجَاعِ النَّفَاسِ  
وَعُودَرٍ غَيْرَ مَا تُسَنِّبُ ، وَلَكِنْ      فِسا يَفْسُو فِساءَ فَهُوَ فَاسِي

وعجز البيت الأخير ليس للجواهري وإنما هو تضمينٌ لقول الشاعر العربي  
القديم يهجو أحد أبناء مدينة فاس المغربية بقوله :

وما فاسن ببلدته . ولكن فسا يفسو فساء فهو فاسي

وتكرّم الجواهري أن لم ينشر مثل هذا القول ؛ لا لأنه لم يره من مستواه الشعري - رغم أنه من مستواه النضالي - ولكن لأنه رأى في نشره والأمة برمتها سائرة في طريق الاستسلام ضرباً من الصفائر التي يترقّع عنها .

وسعيد من عاش في عصر الجواهري وحادثه ؛ فقد كان وحده أزهى عصور الشعر العربي ؛ حتى لكان المتنبي العظيم كان ينظر إليه بعين الغيب يوم قال ؛

غضبت لما رأيت صفاته بلا واصف والشعر تهذي طماطمه

وأذكر أنني سأله - ونحن في شقتي بالجزائر ومعنا الصديق العزيز الدكتور أبو العيد دودو - أن كيف استطعت وأنت تكره فيصل الثاني كل هذا الكره أن تجود كل ذلك التجويد في قصيدة تتويجه ؟ فقال ؛

- صحيح أنني أكرهه ، وصحيح أنني نادى على القصيدة ، ولكن بما أنني نظمتها فكان ينبغي أن تليق بشاعرية الجواهري .

وأسأل الآن ؛ هل ثمة من شاعر يزعم فيجازف أن يقول قصيدة في رثائه تليق بشيء من شاعرية الجواهري ، أو يطمح أن تليق ؟!!

لقد قتلنا متنبئينا مرتين ؛ مرة في دير العاقول عام ١٩٦٥ م ، وأخرى في قصر السبكي بدمشق بعد ألف عام وشيء أعني في عام ١٩٩٧ . وإن عجبنا فاعجب أن تُقاسمنا سوريا الشقيقة تأريخ شاعرينا العملاقين ، فهيناً لكرمها بتاريخهما .

بوزنان - بولندة

في ١٩٩٧/٨/٨

# لُخْوِيَّانٌ عَبْقَرِيَّانٌ

ابن الأعرابي  
مهدي المخزومي





# ابن الأعرابي

في «مقطعات مراث»

لا أظن أن بي حاجة الى أن أعرف بأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي ، المعروف بابن الأعرابي ، فهو أشهر من أن يُعرف ، والحديث عنه في كتب التراجم وطبقات اللغويين حديثٌ مستفيض<sup>(١)</sup> . ولكنني أريد أن أقف على نسبة هذا الكتاب ؛ فهو كتاب لم تذكره فهارس الكتب مثل فهرست ابن النديم ، وفهرست ابن خير الإشبيلي ، وكشف الظنون وما إليها من الكتب المعروفة المتداولة ، ولم تعرض إليه كتب التراجم التي تحدثت عن مصنفات ابن الأعرابي مما جعل مُحَقِّقِي كتاب «أسماء خيل العرب وفرسانها» يقولان - وهما يعرضان الى كُتبه : «مقطعات مراث».. وفي نسبة هذا الكتاب الى ابن الأعرابي شك<sup>(٢)</sup> . والحق أنني لا أعرف إن كان هذا الشك قد جاءهما من عند نفسيهما هما

(١) ترجمته في «المعارف» ٤٥٦ ، ومراتب النحويين ١١٧ ، وتهذيب اللغة ٢٠١ ، طبقات النحويين واللغويين ١٩٥١ ، الفهرست ٢١٢-٢١٤ ، تاريخ العلماء النحويين للتوحي ٢٠٥١ ، تاريخ بغداد ٢٨٢ ، الأنساب ٢٠٧١ ، فهرست ابن خير ٢٧٢ ، نزهة الألباء ١٥٠١ ، مجمع الأدباء ١٨ ، ١٨٩٠ ، إنباء الرواة ١٢٨٠ ، وفيات الأعيان ٢٠٦١ ، الوافي بالوفيات ٧٩١ ، مرآة الجنان ١٠٦١ ، انبئة في تاريخ أئمة اللغة ٢٢١١ ، النجوم الزاهرة ٢٦٤٠ ، بغية الوعاة ١٠٥١ . وقد أثبت هذه المصادر محققاً أسماء الخيل وفرسانها لابن الأعرابي . ورتبها ترتيباً زمنياً فأخذتها عنهما . ينظر أسماء الخيل : ٢٢-٢٣ .

(٢) السابق ٢١١ . والمحققان هما د . نوري حمودي القيسي . ود . حاتم صالح الغامر .

أم ردّاه عن آخر . أقول : لا أعرف ؛ لأنني رأيتهما ينصّان - في المقدمة - على اعتمادهما ما كتبه الدكتور رمضان عبد التّوّاب يعرف بصاحبنا وبمؤلفاته في تقديمه كتاب « البئر » ، ورسالة الأستاذ كامل سعيد عن ابن الأعرابي <sup>(١)</sup> ، ولكن الذي أعرفه أنهما لم يذكرّا باعثهما على هذا الشك ، ولم يعرضا إلى دواعيه مما يجعلني أتبنّى هذا الشك ملتصقاً له الأسباب مرة ، وممتحناً أمره مرة أخرى ، عسى أن أصل إلى شيء أطمئن إليه .

وينبغي لي قبل أن أخوض في مسألة النسبة أن أقول : إن نسخة الكتاب هي بخط علي بن ثروان الكندي المتوفى بعد سنة ٥٦٥هـ نسخها عن نسخة بخط الوزير أبي القاسم المغربي المتوفى ٤١٨هـ ، وكان الوزير المغربي قد نسخها عن نسخة بخط الإمام ثعلب المتوفى ٢٩١هـ قرأها على شيخه : ابن الأعرابي .

ولكن هذا أمرٌ قد لا يكون له كبير اعتبار إذا قام بوجهه أمرٌ آخر أقوى منه يدفعه ، مما يجعلني أعود إلى رأس أمري في التماس أسباب الشك وفي امتحانها فأقول : لعل مما يدعو إلى الشك في نسبة هذا الكتاب إلى صاحبنا أنه لم يُذكر - كما سبق القول - في مؤلفاته ، ولم يشتهر أمره فتكون منه نقولُ تنصّ على النقل منه باسمه . وفي الرأي وجاهةٌ ، أو شيءٌ من وجاهة ، ولكنني لا أستطيع أن أقبله على علّاته ؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يزعم أن كتب التراجم ، ومصنفات المفهرسين قد استوعبت كل آثار علمائنا ، وبحسبي من هذا أن محققي « أسماء الخيل » نفسيهما كانا قد حققا ديوان عدي بن الرقاع العاملي بشرح ثعلب ، دون أن يذكره في مؤلفات ثعلب أحدٌ من القدماء ، ولم يكلفا نفسيهما عناء إثبات نسبة الشرح إليه بله أن يشكّا .

أما لماذا لم يشتهر فتكون منه نقولُ كثيرةٌ ، فيغلب على ظني أن وراء ذلك

(١) السابق ٢٢ : حاشية . والكتابان غير متوفرين في الجزائر ليتاح لي العلم بالأمر .

سببين أولهما أنه عاصر ديوان الحماسة لأبي تمام<sup>(١)</sup> الذي هو - دون شك - أوسع اختياراً من «مقطعات مراثي» مما أتاح له أن يُخمله ، وثانيهما أنه يلوح لي أن كتاب «النوادر» لابن الأعرابي قد غُطّي على سائر كتبه ، وليس قليل الدلالة أن يكون له ثلاثة وثلاثون كتاباً ثم لا يكاد يدور لواحد منها في مؤلفات القدماء ذكرٌ كما دار اسم النوادر . ولكن هل يعني خمول كتاب ما في عصره ، أو بعد عصره الشك في نسبته الى صاحبه ؟ أظن أن : لا .

وقد تحرّيت اسم الكتاب منسوباً الى ابن الأعرابي في المظان التي رجعت إليها فلم أجد أثراً لذلك ، ولكنني وجدتُ قرائن تدل دلالة إن لم تكن قاطعة فهي شبه قاطعة بصحة نسبة الكتاب ، فمن هذه القرائن أن تكون نسخة منه بخط الوزير المغربي ، إذ لم تكن العناية بمثل هذا الشعر غريبةً عليه ، فقد كان - كما يقول عنه أبوه - يستظهر - من بين ما يستظهر : «نحو خمسة عشر ألف بيتٍ من مختار الشعر القديم... وذلك... قبل استكمالهِ أربع عشرة سنة»<sup>(٢)</sup> . وإذا كان هذا لا يقطع - كما هو بين - بنسبة الكتاب ، فإنه قاطعٌ بأن يكون مثل هذا الكتاب من اهتمام الوزير المغربي . فإذا صدقنا هذا فما الذي يمنعنا من تصديق الوزير أن أصل نسخته كان بخط ثعلب وأنه قرأ هذا الأصل على ابن الأعرابي ، لاسيما أنه أثبت ما لفت نظره من خط ثعلب على نسخته ، وما الذي يمنعنا من تصديق علي بن ثروان الكندي وهو يشير الى ما وجدده بخط ثعلب والى ما رآه بخط الوزير ؟ لاسيما إذا عرفنا أن ابن ثروان كان «مشتهراً بالمعرفة موثقاً بقوله»<sup>(٣)</sup> .

وأريد أن أعرض الآن الى قرائن أخرى لعلها أوضح مما سقّته فأقول : إن

(١) أنه أبو تمام بعد سنة ٢١٣ أثناء قفوله من حضرة عبد الله بن طاهر في خراسان ، وكان ابن طاهر قد وليها

سنة ٢١٣ هـ . ينظر وفيات الأعيان ٣ : ٨٤١ .

(٢) السابق ١ : ١٨٢ .

(٣) بغية الوعاة ٢ : ١٥٢ .

منها افتتاح ابن الأعرابي كتابه يقول : « العربُ تقول : من كل شيء تحفظ أخاك حتى يأخذ القناة » فقد وجدنا هذا القول قد رواه تلميذه الجاحظ ناسباً إيّاه إلى أبي المجيب الرُّبَيعي<sup>(١)</sup> . ولا نعرف أحداً قال إن الجاحظ سمع من أبي المجيب هذا ، ولا أعرف إن كان قد أدركه أم لم يُدركه<sup>(٢)</sup> ولكن الذي نعرفه أن أبا المجيب الرُّبَيعي من فصحاء الأعراب ، وأنه ممن روى عنهم ابن الأعرابي<sup>(٣)</sup> .

وشيء آخر هو أن ابن الأعرابي روى المفضليات عن زوج أمه المفضل الضبي ، فكانت روايته إياها أصح الروايات ، وإننا لنجد تأثير المفضليات في هذا الكتاب ؛ فقد اختار هنا ما قالته امرأة من بني حنيفة هنالك ؛

ألا هلك ابن قُرّان الحميدُ أخو الجَلَى أبو عمرو يزيد<sup>(٤)</sup>

وكان قد روى قصيدة أبي السّفّاح الثعلبي مرتين في المفضليات<sup>(٥)</sup> ، ورواها هنا مرة ثالثة .

على أنه يمكن لأحد أن يحتج عليّ باختلاف رواية ابن الأعرابي في المفضليات عما هي هنا مما يجعلني مضطراً أن أفسّر ذلك ، فأقول : إن مرده هذا الاختلاف - كما يُخَيَّلُ إليّ - أنه قد التزم برواية قصائد « المفضليات » كما سمعها من شيخه المفضل فأداها عنه ، وكان يومذاك شاباً في مقتبل العمر ، أما حين اختار كتابه هذا فقد كان قد تجاوز مرحلة الطلب ، وانتصب للناس ، هذا إلى اتكانه على ذاكرته ، فقد قال ثعلب إنه لزمه بضع عشرة سنة ما رأى بيده كتاباً قط<sup>(٦)</sup> . ومن شأن حال كهذه أن تجعل الرواية تختلف قليلاً

(١) ينظر البيان والتبيين ١ : ٢٧٢ ورواه « مائزات تحفظ... » ونقله عنه أسامة في المعاد ١٨٨٠ .

(٢) لم يرِدْ ذكرُ لأبي المجيب قط في كتاب شارل هلا ، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء .

(٣) ينظر الفهرست ٣١٥٠ .

(٤) تنظر المقطعة في المنفليات ٢٧٢٠ .

(٥) ينظر السابق ٣٢١٠ .

(٦) ينظر الفهرست ٣٩٢٠ .

في هذه الدفعة عن تلك ، فإذا عرفنا أنه من المؤلف لدى العلماء أنهم «يؤلفون الكتاب ، ثم يقرأونه على الناس ، ويجيزونهم بروايته ، ثم تمضي الأعوام فيأتي آخرون فيقرأون عليهم الكتاب ، فربما زادوا فيه ما شاءوا وربما نقصوا منه ، وربما روهوا خبراً بإسناد ، ثم عادوا فرووا الخبر بغير هذا اللفظ بإسناد آخر ، وطرحوا الإسناد الأول ولفظه . وهذا سبب من أسباب اختلاف نسخ الكتاب الواحد»<sup>(١)</sup> أقول إذا عرفنا هذا أدركنا سبب اختلاف رواية الكتاب الواحد فما بالك بمن يروي كتاباً وهو في زمن الطلب ثم يؤلف كتاباً يروي عنه ، أيكون عليه أن يؤدي ما رواه أول مرة في كتابه ، وكأن ليس له من شيخ إلا المفضل ؟ ثم ما بالك برواية الشعر يجد الراوي نفسه وقد قدم البيت على أخيه في هذه الرواية ، وكان قد أخره عنه في تلك ، وأبدل لفظه مقارنةً بلفظة نسيها ، وهكذا ؟

وإذا ، لا غرابة البتة أن نجد خلافاً بين ما رواه ابن الأعرابي عن المفضل وما رواه هنا . وما يقال عن ابن الأعرابي نفسه يقال عما خالف فيه ثعلب شيخه ابن الأعرابي وهو يروي بعض هذه المقطعات في مجالسه<sup>(٢)</sup> .

وقرينة أخرى هي أننا نعلم جميعاً أن صنعة محمد بن حبيب المتوفى ٢٤٥هـ ديوان جرير إنما كانت بروايتين اعتمد في إحداهما رواية شيخه ابن الأعرابي<sup>(٣)</sup> ، وإننا لو اجدون مقطعة جرير يرثي الخليفة الوليد بن عبد الملك في هذا الكتاب مطابقةً تماماً رواية الديوان ، إلا في حرف واحد ، أشرت إليه في الحاشية بعد أن عرضتها على الديوان ، مما يدل على أن الروايتين - أعني رواية ديوان جرير ورواية المقطعات - واحدة ، لأن كليهما عن ابن الأعرابي .

(١) من مقدمة جبهة نسب قریش ١٨١ .

(٢) قيل عن ثعلب إنه «لا يمس يده كتاباً ، اتكأ على حفظه ، وثقة بمن ذا منه» معجم الأدباء ، ١٠٧ : ٥ .

(٣) ينظر ديوان جرير ١٨٠ .

وأمر آخر يكاد يقوم مقام القرينة إن لم يكن هو أن مقطعة حارثة بن بدر  
 القداني في رثاء زياد بن أبيه المروية هنا قد وردت في الكامل للمبرد ، والعقد  
 الفريد إلا بيتاً واحداً هو قوله ،

ولا تلين إذا غوسرت مفسرةً وكل أمرك ما يؤسرت ميسور  
 فانفرد ثعلب برواية هذا البيت حتى كأنه ينقله عن ابن الأعرابي<sup>(١)</sup> .

ومن القرائن على صحة نسبة الكتاب ما رواه القالي بسنده من شعر عن  
 ثعلب عن ابن الأعرابي في الأمالي ، كما صنع - على سبيل المثال - حين روى  
 قصيدة زينب بنت الطثرية عن ابن دريد عن ابن الأنباري عن ثعلب<sup>(٢)</sup> ، وإذا  
 كان لم يرفع سنده إلى ابن الأعرابي ، فقد رفعه أبو الفرج الأصبهاني حين روى  
 القصيدة عن الأخفش عن السكري عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي<sup>(٣)</sup> .  
 وكما فعل حين روى قول الأعرابي المذكور هنا :

فتى مثل ضوء الشمس ليس بباخلٍ بخير ، ولا مُهدٍ ملاماً لباخر...  
 عن ثعلب عن ابن الأعرابي<sup>(٤)</sup> ، وكما فعل بقصيدة خالد يرثي أخاه عمراً التي  
 مطلعها :

أب القُرَيِّ ولم يؤب عمرو لله ما وارى به القبر  
 فقد روى ثلاثة أبيات منها عن ثعلب عن ابن الأعرابي<sup>(٥)</sup> بزيادة بيت لم يرد هنا .  
 ولا أريد أن أتقصي مروياته بمقدار ما أريد أن أشير إلى ما لفت نظري من

(١) ينظر قواعد الشعر ٦٤ ويمكن أن تكون روايته قرينة أخرى على صحة ما ذهب إليه الدكتور رمضان عبد  
 التواب من أن قواعد الشعر لثعلب غير مدفوع .

(٢) الأمالي ٢ : ٨٢٠ .

(٣) الأغاني ٨ : ١٨٢ وقد رواها ابن الأعرابي عن شيوخه .

(٤) الأمالي ٢ : ١٦٠ .

(٥) ذيل الأمالي ٢٦٠ - ٢٧٠ .

أمر أبي علي القالي حين يروي عن نوادر ابن الأعرابي ، إذ ينص عليه فيقول - على سبيل التمثيل أيضاً - « وقرأت على أبي بكر بن دريد للحسين بن مطير الأسدي في نوادر ابن الأعرابي »<sup>(١)</sup> . ويقول : « وقرأت على أبي عمر في نوادر ابن الأعرابي عن أبي العباس »<sup>(٢)</sup> . ولكنه حين يروي بعض المراثي ، مما ورد هنا بسنده المتصل المرفوع الى ابن الأعرابي لا ينص على اسم كتاب بعينه ، فهل يعني هذا أنه يروي عن غير النوادر ؟ وإذا كان ذلك كذلك فهل هو يروي عن هذا الكتاب ؟ أما ابن الأنباري - تلميذ ثعلب - فقد روى عنه عن ابن الأعرابي قول الحارث بن عمرو الفزاري المروي هنا :

لا يبعد الله رب العباس والمليح ما ولدت خالده<sup>(٣)</sup>

دون أن ينص على كتاب بعينه ، على حين نصّ البغدادي أنها في كتاب النوادر بنسبة أخرى<sup>(٤)</sup> مما دلّ على أن هذه المقطعة من مرويات ابن الأعرابي نسبها في النوادر لنهيكة بن الحارث المازني مازن قزارة<sup>(٥)</sup> ، وعاد هنا فنسبها للحارث . ولم يكن ابن الأعرابي بدعاً في هذا ، فهو مألوف في مصنفات الأقدمين . ومألوف أيضاً أن يستخدم المؤلف مقطعة في كتاب ، ويعود فيذكرها في كتاب آخر .

وملاحظ آخر هو أنني رأيت بعض ما تفرد به ابن الأعرابي من رواية بعض المقطعات شاركه فيه تلميذه الجاحظ فأعاده ، إذ لم يذكر مصدره من المصادر شاعراً اسمه محرز بن علقمة يرثي أخاه شريكاً - ومقطعته هنا - إلا الجاحظ<sup>(٥)</sup> . فهل يكون هذا من غير دلالة .

(١) الأمالي ١ : ١٦٣ .

(٢) السابق ٢ : ٢٢٢ وأبو عمر هو أبو عمر المظفر .

(٣) الزاهر ١ : ٣٢٤ .

(٤) خزانة الأدب ٤ : ١٦٤ .

(٥) البيان والتبيين ١ : ٥٠١ ، وأعادهما في ٢ : ٢٦٤ .



وشيء آخر لا أريد أن أسكت عنه هو تفرد صاحب هذا الكتاب برواية طائفة من شعر الفقاعسة مثل هند بنت معبد الفقعسية ، وعرفطة بن الطماح الفقعسي ، وسليم بن ربيعي الفقعسي ، وأخيه البراء بن ربيعي الفقعسي ، وأبي الحجناء الفقعسي ، فهذه الرواية الواسعة عنهم - قياساً الى حجم الكتاب - ثم التفرد برواية مقطعاتهم إنما هي من جنس علم رجل من أهل الكوفة سمع من بني فقعس - وهو فيها - فألف من سماعه « نوادر بني فقعس »<sup>(١)</sup> . أما ذلك الرجل فهو صاحبنا . فإذا كان لكل ما سقته شيء من معنى - ولابد أن يكون - فهو أن هذا الكتاب أشبه بعلم ابن الأعرابي من علم سواه ، لاسيما أنني لم أجد - وقد ترجمت لكل من استطعت أن أترجم له من شعرانه عامداً - لم أجد شاعراً واحداً تأخر زمانه عن زمان ابن الأعرابي .

كل ذلك يجعلني مطمئناً الى أن الكتاب لابن الأعرابي ليس في نسبته إليه شبهة أو شك ، فإذا صح هذا واتسق ، فلا يشق أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، فنقبل أن يكون الكتاب من علم ابن الأعرابي ونأبى أن يكون اسمه « مقطعات مراثي » كما وجده الوزير المغربي بخط ثعلب .

ويزيد من اطمئنائي الى صحة عنوانه هو أن لفظ المقطعات كان كثير الدوران في مؤلفات من عاصروا ابن الأعرابي أو عاصرهم ابن الأعرابي ؛ فقد ألف - وأنا أمثل ولا أستقصي - أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدوي المتوفى سنة ٢٠٧هـ « كتاب مقطعات الأعراب »<sup>(٢)</sup> وألف المدائني المتوفى سنة ٢١٥هـ « كتاب المقطعات المتخيرات »<sup>(٣)</sup> ، وتحدث الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ عما رسمه في كتابه « من مقطعات كلام العرب الفصحاء »<sup>(٤)</sup> ، ووجد المبرّد المتوفى

(١) الفهرست ٢١٤٠ .

(٢) الفهرست ٤٥١٠ .

(٣) السابق ٤٦٦٠ .

(٤) البيان والتبيين ٧٢٢ ، وأعاد « مقطعات الكلام » في ١١٧٠ .

٢١٠ هـ وهو يذكر كلام الحكماء أن يعود « إلى المقطعات »<sup>(١)</sup> وهكذا ، مما يدل على أن العنوان ليس بشاذ عن لغة عصره .

### طبيعة الكتاب :

كان من الأسئلة التي شغلتني - وأنا أقرأ الكتاب - إن كان هذا الكتاب كتاباً مرويات أم كتاب اختيار ، فكان الغالب على الظن أنه كتاب اختيار ، انتخب فيه ابن الأعرابي أجود ما كان في حافظته من مقطعات في الرثاء ، ولعل هذا الكتاب وأضرابه مما اختاره العلماء من شعر كان مرحلةً طبيعية مهدت السبيل لأبي تمام أن يؤلف « كتاب الحماسة » إن جاز أن يسمى تأليفاً بعد سنة ٢١٣ هـ كما سبقت الإشارة<sup>(٢)</sup> .

أما الذي جعلني أظن أنه كتاب اختيار فهو ما رأيته من صنيعه تُروى عنه المقطعة في المظان - وهي في الرثاء - ثم لا أجد بعض أبياتها في هذا الكتاب ويمكنني أن أضرب مثلاً بقصيدة زينب بنت الطثرية ، فقد رواها عنه أبو الفرج بإسناده عن ابن الأعرابي ، وكان في روايته بيتاً لم يروه في هذا الكتاب هو قولها :  
سبيكيه مولاه إذا ما ترفعت  
عن الساق عند الرُوع يوماً ذلاً ذله<sup>(٣)</sup>  
هذا إلى ما وجدته من نفاسة ظاهرة في طائفة كبيرة من المقطعات التي يرويها .

(١) الكامل ١ ، ٢٩٠ .

(٢) لا أستطيع أن أحدد زمن تأليف كتاب ابن الأعرابي ، ولكن ينبغي أن يكون ذلك قبل أن يقرأه ثعلب عليه ، فإذا جئنا بين قوليه ثعلب إنه ابتدأ النظر في العربية والشعر واللفظة في سنة ست عشرة بعد العاتين كما في معجم الأدباء ، ١٠٨١ هـ وأنه لزم ابن الأعرابي « بضع عشرة سنة » - كما في السابق ٥ ، ١٠٩٠ - والفهرست ١ ، ٢٢٢ - استقام لنا أن ننسوز ، أنه كان اختاره قبل أن يشمل به ثعلب في سنة لا نعرفها تحقيقاً ولكنها إن لم تكن تتقدم زمن اختيار الحماسة فإنها لا تتأخر عنه .

(٣) الأغاني ٨ ، ١٨٥ ، ونظائره واضحة في حواشي الكتاب .

على أن السؤال العريض الذي يستوقف المرء في هذا الكتاب هو عن مدى صحة ما دأب عليه الدارسون من تعريف الرثاء بأنه نذبُ الميت ، والوقوف على قبره والثناء على خصاله<sup>(١)</sup> ، حتى بلغ الأمرُ أن يكون من جملة تعريفات الرثاء أنه « مديح الميت »<sup>(٢)</sup> . إذ لا يجد مثل هذا القول سنداً تاماً عند ابن الأعرابي ومعاصريه حتى ليقلب على ظني أن غرض الرثاء - حتى عصر ابن الأعرابي - لم يستقر مصطلحاً فنياً كما استقر بعد عصره . أقول هذا وفي ذهني أمران : أحدهما في حماسة أبي تمام ، وثانيهما في هذا الكتاب ، فأما الذي هو عند أبي تمام فقوله في باب المراثي : « وقال أبو الشغب العبسي في خالد بن عبد الله القسري ، وهو أسيرٌ في يدي يوسف بن عمر الثقفي :

ألا إن خير الناس حياً وهالكاً	أسيرٌ ثقيفٍ عندها في السلاسلِ
لعمري لئن عَصَرْتُمُ السَّجْنَ خالداً	وأوطأتموه وطأةَ المتثاقِلِ
لقد كان نهاضاً بكلِّ مُلَمَّةٍ	ومعطي اللّهي غمراً كثير النوافلِ
وقد كان يبني المكرماتِ لقومه	ويعطي اللّهي في كلِّ حقٍّ وباطلِ
فإن تسجنوا القسريَّ لا تسجنوا اسمه	ولا تسجنوا معروفه في القبائلِ» <sup>(٣)</sup>

وخالد القسري هذا كان على ولاية العراق حتى سنة ١٢٠هـ حين ولي العراق يوسف بن عمر الثقفي ، فحبسه وظلَّ في حبسه حتى سنة ١٢٥هـ وقيل ١٢٦هـ تاريخ مقتله<sup>(٤)</sup> فإذا عرفنا هذا عرفنا أن أبا الشغب قال أبياته في خالد وهو حيٌّ سجينٌ ، وأرجو ألا يُستسهل الأمرُ فيقال : إن السجين في حكم الميت ، وإن الشاعر أدرك أن خالداً لن ينجو ، وأمثال هذا . وإذا قالها وخالدٌ حيٌّ لم يمت ولا أدلَّ على هذا ولا أوضح من قوله : « فإن تسجنوا

(١) الرثاء : ٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ١ : ٤٥٩ .

(٣) ديوان لحماسة : ٢٦٢-٢٦٣ .

(٤) ينظر تاريخ الطبري ٧ : ١١٧ ووفيات الأعيان ٢ : ٢٢٩ .

القسري...» ، فإذا كان هذا واضحاً لفت نظرنا أن يروي أبو تمام هذه الأبيات في باب المراثي .

هذا هو الذي عند أبي تمام ، فأما الذي هو عند ابن الأعرابي فهو قول القائل في هذا الكتاب :

تطاول ليلى بعد لُبْنى فلم أنم      وأقصرُ ليل العاشقين طویلُ  
ففكرتُ حتى صرتُ بالفكرِ هائماً      علي بفكري للخُبول دليلُ  
وقول الآخر :

ألمي كل يوم لي خليلٌ مودّعٌ لقد      لقد خفتُ أن أبقي بغير خليلٍ  
ولابدَّ يوماً أن تجيء منيتي      ويفرد مني صاحبي ودخيلي  
وقول ابن الحنّاط :

ومن عَجِبَ لما تبينَتْ أنني      لديه على طول المقامة لا أجدي  
تحرّيته في نومتِي فلقيته      لأشكو إليه ما لقيتُ وأستعدي  
ومسّحتُ كي أغني بكفّي كفّه      ولم أدِر أن الجود من كفّه يُعدي  
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى      أهدتُ ، وأعداني فأتلفتُ ما عندي

ويمكن للدارس أن يلاحظ أن تطاول ليل الشاعر بعد لُبْنى أقرب ما يكون الى وجد العاشق هجرته حبيبته منه الى رثائها إذ ليس هناك شيء يومئ الى وفاتها ، وأن المقطعة الثانية لا تكاد تمس موضوع الموت إلا من بعيد : « لي خليل مودّع » ، حتى لتبدو أقرب الى الشكوى منها الى الرثاء ، واختلطت المقطعة الثالثة بشعر المديح ف قيل : إنها في مديح الخليفة المهدي<sup>(١)</sup> ، مما يجعل بنا حاجة أن نفسر معنى ذكرها هنا لعلنا نصل الى فهم مصطلح الرثاء عند ابن الأعرابي وعند سواه من معاصريه كأبي تمام ، فأقول :

(١) ينظر أمالي المرتضى ١ : ٥٢٢ ، وغرر الخصاصم ٢٠٦٠ .

إن في المقطعتين الأوليين توجعاً من فراقه هو في الأولى فراق عاشق حبيبته ، وهو في الثانية وداع أربة رحلوا بسبب الوفاة ، وإن في الثالثة توقاً الى لقاء الخليفة المهدي أو سواء ، طمناً بنواله ، ولكن ذلك لم يكن مجدداً فلقبه في النوم فلمس يده فأعدته بكرمها فأتلّف ما عنده ، ولدى بحثنا عن قدر جامع - كما يقول المناطقة - بين هذه المقطعات ، والمقطعة التي رواها أبو تمام ، يكون من الهيّن أن نلمح أن الفقدان هو الذي يجمع بينها ، فأبو الشغب - عند أبي تمام - يتحدث عن سجين ، والآخر عن لبنى - وقد بعدت عنه - والثالث عن أربة ماتوا ، والرابع قد يكون يتوجع لخيبته ويبيكيها ؛ إذ هو لم ينل من المهدي شيئاً وأعداه فأتلّف ما عنده ، وقد يكون يتحدث عن توقه للإفادة من المهدي ، ويُعده عنه في اليقظة ، فإذا صح هذا قلنا ؛ إن هذا الفقدان قد يكون بسبب الموت أو السجن ، أو الهجر فيكون الحديث عن التوجع لهذا الفراق رثاء .

وإذا فالرثاء ليس هو التوجع من وفاة عزيز فحسب ، وإنما كان يعني - في عصر ابن الأعرابي - التوجع من فراق عزيز سواء أتمّ هذا الفراق بالموت أم بسواه . وإذا شئنا أن نستلّ هذا التعريف من كتابنا نفسه أشرنا الى قول القائل فيه :

رُوِّعَتْ بِالْبَيْنِ حَتَّى مَا أَرَاغُ بِهِ      وبالمصائب لي أهلي وجيراني  
لم يترك الدهر لي علقاً أسرُّ به      إلا اصطفاة بموت أو بهجران

أقول هذا أريد - من ورثته - أن أنبه الى ضرورة أن نؤرخ لما نستخدم عليه الأغراض الشعرية تورياخاً يأخذ تطور المصطلح عبر العصور أساساً .

وتؤرخ هذه المقطعات - من دون قصد - لتطور الرثاء منذ كان طقساً « من طقوس الحداد يشترك فيه النادبون والنادبات ، وكان الدور الرئيسي موكولاً في البدء الى أخت البطل الميت... »<sup>(١)</sup> ، فيكون الرثاء في هذه المرحلة أقرب ما

(١) تاريخ الأدب العربي ١ ، ٤٥٨ ، ويلاحظ أن مقدمة الدكتور شوقي ضيف في « الرثاء » شديدة الشبه بما يرد عند بلاشير وهو يرد أراء المستشرقين في الصفحة المذكورة وسواها . دون أن يذكر بلاشير .

يكون « الى ارتجال نساني»<sup>(١)</sup> ، كما في مقطعة هند بنت معبد ، وزينب بنت الطثرية وسواهما ، حتى تحوله الى وسيلة من وسائل التكسب كما في مقطعة عبد الله بن همام السلولي .

وأمر آخر يلفت النظر هو أن ابن الأعرابي لم يكن متعصباً على شعر المحدثين عامة بسبب أنهم محدثون ؛ فقد روى لجماعة منهم مثل نصيب الأصغر ، ويحيى بن معبد بن طوق ، والعتابي ، ومحمد بن عبد الله بن المقفع ، ويحيى بن زياد الحارثي ، مما يوحي أنه كان ينطلق من زاوية نظر فنية « تأخذ اتباع طريق الأوائل معياراً وحيداً في النظر الى الشعر»<sup>(٢)</sup> . ولعل في هذا ما يفسر مجيء المقطعات على نسق يكاد يوحي - أول وهلة - بتقارب المستوى الفني .

وشيء يلفت النظر أيضاً هو أن هذه المقطعات - سوى مقطعات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة - هي رثاء الأقارب من نحو أخ يرثي أخاه ، أو أب يرثي بنيه ، أو صديق صديقه وما إلى ذلك ، وكان ابن الأعرابي يتحرى شينين هما ، صدق التفجع ، وطرافة المعنى وجودته ، على أن جودة المعنى تعني عنده التغني بأخلاق الكرماء من نجدة ، وشجاعة ، وحسن ضيافة وما هو إليها مما يطرب له صاحبنا فكاد يكون هو الجانب الغالب على المقطعات من حيث الموضوع الشعري ، ثم كيف يؤدي الشعراء هذه الموضوعات أداءً فنياً عالياً حتى ولو تكرر ، ومن هنا تكررت مثل هذه المعاني في المقطعات .

ويعجبه أحياناً في المقطعة أنها لا مثل لها كأن يرثي شاعرُ عينه ، أو عنزاً له ، أو حماراً . مما يجعلنا نتحفظ على ما يقال من ظهور اتجاهات جديدة في رثاء العباسيين كرثاء الأعضاء والحيوانات وما إليهما .

(١) نفسه .

(٢) الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي : ٥٢ .

ولست أريد أن أطيل في هذه الملاحظة ؛ لأنه ليس من وكدي الآن أن أدرس ابن الأعرابي ناقداً أو أن أدرس كتابه دراسة نقدية ولكن من وكدي أن أنبه الى هذا الجانب في شخصيته الأدبية ، والى ذوقه في الاختيار .

وترتب على سعة علم ابن الأعرابي وعلى ذوقه أن روى لنفر من الشعراء لم تعرف المصادر الأخرى شيئاً عنهم ، فلم نكن نعرف قبل هذا الكتاب شاعراً اسمه جواب السلمي ، أو شاعراً اسمه مرداس بن عبد منية ، أو ثالثاً اسمه مطر بن جبير العجلي ، أو رابعاً يكنى أبا ندبة ، وهكذا مما أرجو أن يتضح من حواشي فيه .

لذلك لا أرى من بأس علي إذا قلت : إن هذا الكتاب يُضيف الى معرفتنا بالشعر العربي من أوله حتى نهاية القرن الثاني للهجرة شيئاً جديداً لا تعرفه المصادر الأخرى ، هذا الى أنه يرسم جانباً آخر من جوانب ابن الأعرابي هو جانبه الأدبي .

# الخليل بن أحمد المخزومي

## والإبداع في النحو

(في ذكرى رحيل العلامة الدكتور مهدي المخزومي)

والعنوان غريبٌ من وجهين : أولهما لماذا يكون الخليل بن أحمد الفراهيدي هو المخزومي ولا يكون سيبويه ؟ وثانيهما : كيف يكون هذا الدرس الكريه الذي اسمه النحو ، والذي استقرت قواعده منذ مئات السنين حتى قيل : « علمٌ نضجَ فاحترق » مما يحتملُ الإبداع ؟ وهو درسٌ بلغ من التقليديّة بحيثُ اتخذ من شواهد البغاددة المولّدون من أبناء القرن الرابع مثلاً يسخرون به من الدليل فيقولون لكلّ من هو ذليلٌ : « كأنه زيدُ المضروب » يُفنون قول النحاة : « ضرب عمروُ زيداً » حتى قال شاعرهم حين تصوّر أنه عزيزٌ قبل أن يعشق ، ذليلٌ بعد العشق :

أنا المضروبُ لا زيدُ

والفرايتان في موقعهما لدى من لم يواتيه الحظّ أن يكون تلميذاً للمخزومي ، أمّا من أسعده حظُّه مثل حظّي فكان تلميذاً له خمسَ سنواتٍ إلّا قليلاً ، فإنه لا يملكُ إلّا أن يشكر وفاء « الثقافة الجديدة » لأعلام الثقافة العراقية - وفي الطليعة منهم الدكتور المخزومي - في التنادي لتخليد ذكراهم ، والإشادة بما قدّموه للثقافة العراقية ، وفي مناشدة من تظنُّ أنه قادر على الكتابة عنهم أن



يكتب ، أقول : لابد من شكر « الشقافة الجديدة » الشكر العميق على هذا الوفاء ، وذلك الاهتمام لولا أنها تُجسّم هؤلاء الذين تناديهم أن يكتبوا عنا ما يُظنُّ أنهم يتحدثون عن أنفسهم ، لا عمّن تريد أن تُخلّد ذكراهم وتشيد بمآثرهم . والحديث عن النفس كريه .

أقول هذا لأنني لا أستطيع الحديث عن رجلٍ مثل المخزومي لولا أن الحظَّ حالفني فدرّسني خمس سنوات .

فإذا برأتني من مظنة الحديث عن النفس ، ونزّهتني عن تهمة الإعجاب بها وقرت علي وعلى نفسك أن ألفاً وأدور فأتعبك وأتعب نفسي بهذا اللفّ وذلك الدوران ، وهيأت لي أن أتذكّر من علمه ما أتذكّر .

وأقول بادي ذي بدر : إنّ المخزومي يوم بدأ أول ما بدأ يطلب العلم بدأ وهو في النجف الأشرف يطلب العلوم الفقهية ، ولكن الذي لفت نظري ذات يوم - وهذا بعد أن قطعت شوطاً في التلمذة على المخزومي - أنني وقعت على مخطوطة في النحو في إحدى مكتبات النجف العامة ، ولا أتذكّر الآن اسم المخطوطة ، ولا اسم مؤلفها ، ولعلّها لم تُطبع حتى اليوم ، وفي آخر صفحة منها بعد ذكر اسم الناسخ ، وتاريخ الفراغ من النسخ وما إلى ذلك مما درجت المخطوطات العربية على ذكره ، أقول وجدت بخط جَيِّد مُستحَصِف أنّ الشيخ مهدي بن الشيخ صالح زاير دهام قد قرأها ، ووعاها ، وكان الفراغ من ذلك في يوم كذا ، من شهر كذا ، من سنة كذا . وقد أرّخ ذلك كلّهُ بالتأريخ الهجري .

وكنْتُ أعرف أنّ الشيخ مهدي بن الشيخ صالح زاير دهام هو أستاذي الدكتور مهدي المخزومي ، فقررتُ أن أعرف كم كان عمر أستاذي حين قرأها ، ووعاها ؟

وكان عليّ أن أحترس في السؤال : لأنني لو فاضّته بما رأيته ، كما رأيته ، لأنكر واشتدّ في الإنكار : لا لشيء إلا لتواضعه الجَمّ الأصيل . وهكذا

فعلت ؛ فقد سأله كم كان عمره في تلك السنة ، دون أن أذكر المخطوط الذي رأيت لا من قريب ولا من بعيد ، فابتسم الفقيه مستغرباً ، فقلت ؛  
- خاطر خطر بذهني ، وأكون سعيداً لو أجبتني عنه . فأتق لحظات ، ثم رفع رأسه وهو يقول ؛

- كان عمري عشر سنين ، وكنت ألبس الكوفية والعقال يومذاك .

وأخبرته بما رأيت فضحك ، وأظن ظناً يشبه اليقين أنه طلب مني أن أوافيه بما كان كتب حرفاً بحرف ، فنسخته له ، وإذا رأى ما كان قد كتب ضحك أكثر مما ضحك أول مرة لا مما كتب ، ولكن مما اصطنع من وقار العلماء ، وطالبي العلم ، وهو صبي يكتب .

أقول هذا أريد أن أعلل به كيف كان النحو العربي جزءاً من تكوين دم المخزومي .

وأنتقل الآن إلى تجربتي النحوية الدراسية معه فأقول ؛ إنني لم أكن قاربت أن أفهم النحو إلا على يد أستاذي الحاج (هكذا كنا نسميه) يحيى الجواهري في إعدادية النجف ، ولكن فهمي كان يشبه أن ترى الشمس في يوم ضباب ، ولم يكد يزول عني هذا الضباب إلا في العام الدراسي ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، بعد إذ تخرجت في الثانوية ، وقبلت في شهر أيلول من عام ١٩٦٧ في قسم اللغة العربية من كلية الآداب في جامعة بغداد ، وإلا يوم انتصب بقامته الفارعة المحببة أستاذنا الشاعر الوطني إبراهيم حرج الوائلي ، وفي أنفه غنة جميلة ، وفي ذهنه بديهة حاضرة ، وعلى شفثيه دُعاء حلو . ولكن الفقيه الوائلي لم يدرسنا النحو إلا سنة واحدة هي السنة الأولى من دراستنا في الكلية .

فقد كان أن أسفنا أن لم نر اسم الأستاذ الوائلي في درس النحو للسنة الثانية ، ولم تكن ندرى أن أسفنا عليه بعد أن لم نر اسمه في جدول الدروس كان معناه أن نتقل من عالم جميل إلى عالم أجمل منه .

وأرجو ألا يفهم أحدٌ أنني أنتقصُ من فضلِ أستاذي الوائلي ولا من عميق علمه ؛ فحسبك من هذا العلم ، وذلك الفضل أن كان درسُ الوائلي في النحو درساً في النحو ، وفي الفلسفة الإسلامية ، وفي علم الكلام ، وفي المنطق ، بل وفي التاريخ ، والجغرافية ، حتى لو قلتُ لك : إنَّ الوائلي كان من الموسوعيين الأفاضل في علمه لما أبعدتُ ، ولما جاوزتُ الحدَّ ، وحسبك منه أن كان الوائلي - وهو حامل الماجستير لم يتجاوزها - رفيق المخزومي في مناقشة كل الأطروحات اللغوية والنحوية ، سواء أكانت هذه الأطروحات ممن أشرف عليها هو أم الدكتور إبراهيم السامرائي ، أو الدكتور المخزومي . حتى كنّا نسَمِّي هؤلاء الثلاثة - تأثراً بالبرامج التلفزيّة المصريّة - بالثلاثيِّ المرح .

ولكن كان الفرق بين الوائلي - وحتى بين السامرائي اللغوي - والمخزومي أنَّ ذينك الاثنين يريان النحو مسائل قد يُجْتَهدُ في هذه المسألة منه أو تلك ، على حين أنه كان عند المخزومي كوناً كاملاً ، ورؤيةً شاملةً تنتظم كلَّ مفرداته وأجزائه . ومن هذه الرؤية أنّه كان يُلفي نظرية تنازع العوامل ، فيتجاوز تدريسيها ؛ لأنها ترتبط بنظرية العلّة والمعلول ، ومنها أنّه كان يرفضُ أيضاً أن يقال عن جملة : « خالدٌ رأى زيداً » أنها جملةٌ اسميّةٌ كما يقول النحاة ؛ فقد كان يراها جملةً فعليةً وإن بدأت باسم لأن الفرق عنده بين الاسم والفعل أن الاسم يفيد الثبوت ، على حين أن الفعل يفيد التجدد ، فأنت إذ تقول : زيدٌ أخوك ؛ فذلك يعني أنه أخوك اليوم وبعد غدٍ وبعد ألف عام ، ولكنك حين تقول : زيدٌ جاع ، فإن جوعه لا يلبث إلا ريثما يأكلُ فلا يجوز لك بعدها أن تقول في : « زيدٌ جاعٌ » زيدٌ مبتدأ لا شيء . إلا لأن الجملة ابتدأت باسم فتكون بذلك شكلياً ، فإنَّ « زيدٌ » عند المخزومي فاعلٌ مُقدّمٌ ؛ لأن الجملة الفعلية تفيد التجدد مهما كان موقع الفعل ، والفاعل . وهذا حديثٌ لا أريد أن أفيض به لأنه مُملٌ لغير أهل الاختصاص ؛ ولكنه نافع لمن يريد أن يعرف خسارتنا بالمخزومي .

وأراني استطردتُ ، وإن لم أخرج عن عالم المخزومي ، ولكنني قيّدتُ نفسي بعنوان ينبغي أن أرجع إليه ، فأقول ،

ها هو المخزومي الذي جاء من السعودية هو وعلي جواد الطاهر بعد أن اختارها منفي أقاما فيه من : ١٩٦٣ - ١٩٦٨ أمامنا بلحمه ودمه ، أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، نحيفاً ، خفيف شعر الرأس ، لا يعرف من جمال هندامه إلا أن تكون بدلته غير قديمة ، وكان الآخرون يتأقنون . ولم نكن نعرف يومها أن الأناقة أناقَةُ العقل لا البدلة ، ولا القميص .

وإذا ، ها هو المخزومي فماذا سيقول ؟ ومن أين سيبدأ معنا في « شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك » ؟ ولكن لم يطل بنا التفكير ، ولم يحتج هو أن يسألنا أو يستوضحنا ، فقد بدأ بقوله :

- وصلتم إلى « كان وأخواتها » .

وقلتُ في نفسي : « يا للطامة إلى متى سنظل في التي ترفع المبتدأ وتنصب الخبر » ؟ وبدأ محاضرتَه ، فقال : يقول النحاة إنَّ « كان وأخواتها » تدخل على المبتدأ والخبر ، فترفع المبتدأ وتنصب الخبر ، أليس كذلك ؟

وقلنا جميعاً : نعم . ولكن كان لا بدَّ أن لاحظَ شيئاً عليَّ حين استدعاني إلى اللوحة قائلًا لي اكتب :

« صار الطينُ إبريقاً » فكتبتُ .

ثم قال لي : احذف « صار » واجعل الجملة من مبتدأ وخبر فماذا تقول ؟

كانت القاعدةُ النحوية تقولُ لي أن أكتب : « الطينُ إبريقٌ » ولكنني تردّدتُ : لأنني لم أرها منسجمةً عقلياً ، ولأنني رأيتها - كما يقول أهل النجف بالعامية - « مِش ولا بد » ، فقال لي : اكتب كما يقول النحاة ولستَ مسؤولاً عن قولهم : لأننا نريد أن نمتحن هذا القول : فكتبتُ : « الطينُ إبريقٌ » .

فتوجّه إلى الطلبة يسألهم : هل كلُّ طينٍ إبريقٌ ؟

وأشهدُ أننا تحيّرنا فإذا قلنا له : لا . فسيكون معنى ذلك أننا سنهدمُ كلَّ ما تعلمناه وعانينا منه الأمرين في الامتحانات إن لم يكن في المتوسطة ففي الثانوية ، وإذا قلنا له : نعم فإننا لا نعلمُ أين سيؤدينا ، لأنَّ السلام يجرُّ كلاماً والكلامُ يجرُّ بطيحاً . وأدرك هو هذه الحيرة وربما كان يدركها من قبل ، لأنه لم يأمرني بالجلوس بعد أن كتبتُ فقال :

اكتبِ : « صار الماءُ ثلجاً » وكتبْتُ . ( وأرجو ألا يتصوّر أحدٌ أنني أتجوّزُ فأعطي أمثلةً من عندي وإنما أنا أنقلُ أمثلته كما وعتها الذاكرة حرفاً بحرف ) فكتبْتُ : فقال :

- احذفِ « صار » واكتبِ الجملة كما ينبغي أن تكون نحويّاً ، فكتبْتُ :  
« الماءُ ثلجٌ » .

فَسألنا جميعاً : من منكم يستطيع أن يقول : الطينُ إبريقٌ ، والماءُ ثلجٌ ؟  
فأجبناه جميعاً حائرين - ولا ابتلى اللهُ أحداً بتلك الحيرة - أنْ ذلك صحيحٌ نحويّاً . وتبسّم ابتسامته الهمسَ قائلاً :

دعوا عنكم النحو ، واسألوا عقولكم إن كان يستقيم فيها أنَّ الطينَ إبريقٌ والماءَ ثلجٌ : فدُخنا واستفربنا من السؤال . ويا لله كم ضلّلَ عقولنا أستاذةُ النحو من حيث حسبوا أنهم يعلموننا ؟

وإذا كانت دواختنا في محلّها أو في مكانٍ قريبٍ من محلّها : فإنَّ استفرابنا كان استفراباً ساذجاً من وجهين أولهما أننا لم نكن نعرف بعدُ ماذا يريد منا أستاذنا المخزومي ، وثانيهما أنه كان أستاذنا المخزومي واحداً في علمه لا ثاني له ، ولكنتنا - ونحن أغرارٌ - لم نكن نعرفُ هذا .

وانتظرنا كما ينتظر البدويُّ نزول الغيث أن يجيئنا عن اللغز ، فبدأ يفرك

الطاولة التي أمامه براحة يده - وكان من عادته أن يفرك الطاولة التي أمامه بيده اليمنى كلما أراد أن يدلي برأي من آرائه ، كأنه يكرّر براحتها رسم دائرة - يُداري بذلك خجله الوديع ، الأصيل ، فيه ، حتى كنا نقول كلما رأيناه يفرك الطاولة لكثرة ما ألغنا هذه العادة عنده :

- بدأ يفرك الطاولة ، فانتظروا القبلة .

أقول : بدأ المخزومي يفرك الطاولة ، وهو غاضبٌ من بصره ، وكأنه يتأمل فقال :

ينبغي أن تُعربوا « إبريقاً » و« ثلجاً » على أنهما حالان وليسا خبرين . ولو كانا خبرين كما يقول النحاة لاستقام أن يكون « الطين إبريقاً » و« الماء ثلجاً » . ف« كان وأخواتها » أفعالٌ تامّةٌ لازمةٌ ، ومنصوباتها أحوالٌ ، ولو كانت أفعالاً ناقصةً - كما قالوا - لاستقام عقلاً أن يكون كلُّ طينٍ إبريقاً ، وكلُّ ماءٍ ثلجاً . وهذا باطلٌ .

ولا يهمني كثيراً أن يكون المخزومي قد سبق إلى هذا الرأي أو سواء ، ولا يهمني أن يقلل حاسدو فضله من قيمته فينسبون هذا الرأي أو ذاك من آرائه إلى ابن مضاء القرطبي حيناً ، وإلى إبراهيم مصطفى حيناً آخر ، وإلى مدرسة الكوفة حيناً ثالثاً ، وهكذا .

أقول لا يهمني - والأمر مهمٌ - لأنّ هؤلاء جميعاً ممن يظنون أنّ كلَّ أستاذٍ يمكن أن يكون مهدي المخزومي ، أقول : لأنّ هؤلاء جميعاً ينسون أنه لا ينبغي له أن ينطلق من فراغ ، كأن يُعيد اختراع البنسلين مرةً أخرى ، وأنه إذ اطلع على كلّ ما اطلع ، ووعى كلّ ما وعى استطاع أن يخرج من بين كلّ ذلك بعالمٍ جليلٍ اسمه مهدي المخزومي ، وبشخصيّة علميّة لا تنتهي إلا لمهدي المخزومي : فهل ثمة أصالة غير أصالته هذه ؟

ولكن لعلّه مما يهم القارئ أن أقول له كيف خالفنا النحاة جميعاً وأخذنا

برأيه عقلياً ولم نأخذ به رسمياً ؛ لأن ذلك يدخل في مجال آخر ، هو مجال قرارات وزارة التربية ، وما يُشبهها من وزاراتٍ . ومن هنا خسرنا المخزومي مرتين : مرةً حين فقدناه كما نفقد أيّ عزيز ، ومرةً أخرى حين لم نستفد من آرائه في تيسير النحو العربي ، في الوقت الذي لا تكاد تجد دارساً يؤلف في النحو العربي عربياً كان أم مستعرباً إلا وجدت المخزومي من مراجعيه ، وفي الوقت الذي يشكو به العرب جميعاً من تعقيد النحو العربي ، وفقده الثاني كان غصّة في حلقه ، وحلوق كلّ عارفي علمه ، ولكن هذه الغصّة كانت لا تتحسّرجُ في حلقه إلا حين يطفحُ به الكيل .

وطفح به الكيلُ في عام ١٩٧٤ حين أصدر المجمع العلمي العراقي كتاباً للدكتور أحمد عبد الستار الجوّاري في تيسير النحو أسماء : « نحو الفعل » وكان الدكتور أحمد يومذاك وزيراً للتربية والتعليم ؛ فكتب مقالةً عنه ، وأعطاني هذه المقالة رجاء أن ننشرها في مجلة الرابطة التي كانت تصدر في النجف يرأس تحريرها الفقيه الشاعرُ مصطفى جمال الدين ، ويقوم كاتبُ هذه السطور - رغم أنه من هيئة تحريرها فحسب - مقام سكرتير التحرير ، فنشرنا المقالة في صدر المجلة ، وكان أخطر ما فيها محاكمة الدكتور المخزومي فكر المؤلف فيما يزعم أنه تيسيرٌ ، ثمّ غيابُ هذا التيسير المزعوم عن مناهج تدريس النحو في مدارسنا مما يدعو إلى التساؤل عما إذا الوزير صادقاً فيه ؟

وقامت قيامة الجوّاري إلى درجة أن عاتبَ الفقيه مصطفى أن كيف يُسلّم لحيته بيد « زعطوط » ؟! وكان يعني بهذا « الزعطوط » كاتب هذه السطور ، أقول : عاتبه أن كيف يسلم لحيته بيده فينشر للمخزومي مثل هذا الكلام ؟ وأشهد الآن أمام التاريخ - وقد رحل الجميع - أن المصطفى شهد بأن نشر المقال هو من خطّة المجلة ، وأنها تُرْحَبُ بأيّ ردّ من الدكتور الجوّاري شريطة أن يعرف أن المجلة تضمن حرية الردّ للدكتور المخزومي ، وهكذا كان .

ومن هنا فلا عجب أن يحصل كتابه : « في النحو العربي » نقداً ، وتوجيهاً الصادر في لبنان عام : ١٩٦٤ جائزة أفضل كتاب لذلك العام ، وأن يتولى الشاعر الكبير أدونيس تصحيح تجارب طبع الكتاب ؛ فلا شك أن أدونيس المجتهد كان يدرك معنى تجديد المخزومي ، ويدرك مدى أصالة هذا التجديد . وما كان من المقدّر لي أن أعرف هذا لولا أن سألتُ الفقيه ذات مرة عن الدقة في طبع الكتاب حتى ليكاد يخلو من الأخطاء الطباعية المعتادة .

ولا عجب أيضاً أن يسمّي الجواهري وهو ما هو - أطال الله في عمره مُعافي - الدكتورَ المخزومي : « أنحى من عليها » .

ومن عادة الجواهري شأنه في ذلك شأن أي شاعرٍ حقيقيٍّ أصيلٍ أنّه يُحبُّ أن يقرأ شعره لأصدقائه من الأدباء الذين يثقُ بتذوّقهم قبل أن يذيعه في الناس ، فقرأ ذات يوم في بيته الذي كان في محلة القادسية من كرخ بغداد « أيها الأرق » أمام جملة من أصدقائه ومن بينهم صديقه المخزومي حتى إذا وصل إلى قوله فيها :

أنا عندي من الأسى جَبَلٌ	يتمشني معي وينتقل
أنا عندي وإنّ خبأ أملٌ	جذوة في الفؤاد تشتعل
إنّما الفكرُ عارمٌ بطلٌ	أبدُ الأبدِينَ يقتستل

قال له المخزومي وهو مبسّمٌ ، كعادته في مثل هذه المواقف :

- الفكر لا يكون بطلاً في كلّ الأحوال ، فما كان من الجواهري إلا أن قال : « تمام ، أبو نوال ، عاشت ايدك » :

إنّما الفكرُ عارماً بطلاً	أبدُ الأبدِينَ يقتتل
---------------------------	----------------------

كان النحو عند أبي نوال حياةً يوميةً ، ومعنى ، وفكراً ، وعِلماً ، وليس « ضربُ عمرو زيدا » .



وإذا كان النحو العربي قد ابتلي بآفة من الآفات هي آفة نظر النحويين إلى النحو على أنه علم قائم بذاته ، مُستغنٍ بنفسه ، فإنه لم يكن كذلك عند المخزومي ؛ لأنه كان أديباً قبل أن يكون نحويّاً - ولعل طائفة من الناس لا يعرفون أن المخزومي بدأ حياته الأدبية شاعراً - وقد رافقه هذا الذوق الأدبي الرفيع وهو يدرس النحو ثم وهو يُدرّسه ، وحسبك من ذلك أنه كان وهو يستشهد بأراجيز رؤية والعجاج يبلغ من تذوقهما بحيث لم أتمالك نفسي أن سألته ذات يوم ، وقد صرتُ وأنا تلميذه زميله ، عن سرِّ حفظه هذه الألفاظ البدوية ، وعن سرِّ تذوقها ؟ فما كان إلا أن ابتسم وهو يقول :

- لو كان الدكتور طه حسين قد درّسك هذه الأراجيز لما سألت . ثم أردف :

- وإذا كنتُ أحزن على شيء فليس بمقدار حزني أنني أعرتُ الدكتور عبد الهادي محبوبة الدفتر الذي فيه محاضرات الدكتور طه عن هذه الأراجيز ، ثم أضاعه فلم يرجعه إليّ .

ولقد استطردتُ فأنسيْتُك هذه الحياة فأعود إلى ما كنّا فيه فأقول :

إننا لم نكد نصدّق لولا الخوف من الامتحان أن ما يجيء بعد كان وأخواتها لا يكون مبتدأ وخبراً ، وكيف لنا أن نصدق المخزومي ونكذّب دراسة عشر سنواتٍ قد تزيد وقد تنقص - لا أدري - من النحو العتيد الذي نردّد فيه الجمل التي حفظناها كأحسن ما تكون من الصّحة ، ونكتب الجمل التي لم نردّها كأسوأ ما تكون من الخطأ ؟ وكأن النحو قواعدٌ مقرّرةٌ في شواهد النحو وأمثله لا في الحياة ، حتى لتجد من أقوال النحاة العجيبة المأثورة : « النحو مهنتنا واللحن عادتنا » ، ولكنّ المخزومي أقنعنا بشيء آخر يوم أن سألنا :

- لماذا يُسمي النحاة المصدر مصدراً ؟

وقلنا بكلّ السذاجة : لآث مصدرٌ .

ولم يضحك ، ولم يتسم ، ولم يتغيّر وجهه ، وإنما سأل أحدنا قانلاً :

أعطني مصدراً مما تعرف ، فقال : الضَرْبُ .

فسأل القعيد :

- هل لكم أن تتصوّروا أنّ إنساناً ما يستطيع أن يتصوّر « الضَرْب » ما هو

وما هي كَيْفِيَّتُهُ دون أن يرى أمامه : « ضَرْبٌ ، وضَرْبٌ ، وضَرْبٌ » وهكذا ألفاً حتى يستقيم بذهنه أن يشقّق لهذا الفعل اسماً هو : « الضَرْبُ » ؟

وحينئذٍ أدرك بعضُ منا شينين أولهما : لماذا اعتُقل أستاذنا بعد انقلاب شباط الأسود ١٩٦٢ حتى رَوّعه بالقتل أكثر من مرّة تخويفاً ، وقد سمعتُ منه تفاصيل هذا الترويع ، فهرب إلى السعودية ، وثانيهما أن النحو العربيّ يمكن أن يدخل أيضاً في سؤال الفلاسفة : أيهما أسبق المادة أو المثال ؟

ومحاضراتُ المخزوميّ مَنَعَةٌ عقليةٌ ، وكان أمتعها عندي حين كنتُ في السنة التحضيرية من مرحلة الدكتوراه - وكان ذلك في العام الدراسي ١٩٧٣ - ١٩٧٤ فقد كان زملاني زملاءً ثلاثة من أهل اللغة ، وكنتُ وحدي في شعبة الأدب ، وكان من موادّ الدراسة في الشعبة الأدبية النحو ، أجلس فيه وحدي بحضرة المخزومي ، وسألني في أول محاضرة :

- ماذا تريد أن تستزيد وقد درّستك سنواتٍ أربعاً ؟ فقلت :

- مازالت في نفسي حاجةٌ أن أفهم كتاب سيبويه كما هو . فقال :

- تعني علم الخليل . موافق ، ولكن بشرطين : أولهما أن تدرسه على طريقة بحث الخارج في النجف ( كان يعني بذلك أن أقرأ من الكتاب أمامه فأشكّلُ على ما أقرأ كما هي طريقة الفقهاء فيما يُسمّونه بحث الخارج ، فيحلّ هو المشكلة التي أثيرها ) وثانيهما أن ندرسه - هكذا قال أعني أنه لم يقل :

تدرسه - في طبعة بولاق وليست طبعة هارون ، لأنه لم يكن راضياً ، وهو على حاقّ الحق ، عن تحقيق الدكتور الأستاذ عبد السلام محمد هارون له .

وهكذا كان ، ولكنّ الحظّ لم يكن من رفاقي هذه المرأة فما هي إلا أشهر حتى أصيبَ بأزمته القلبية الأولى التي منعتهُ أن أكمل علم الخليل معه .

ولك أن ترى أنّ المخزوميّ - وهو العالم المُجدّد بحقّ وتحقيق - لم يتنكّر للقديم في طريقة الدرس بحجة أنّه قديمٌ كما يفعل الكتابُ العَجْزَةُ - من أشباه الشعراء في أيامنا هذه ونقادهم الذين يزعمون أنهم من أهل الحداثة - وذلك أنّه رأى في مرحلة من مراحل الدراسة أنّ هذا القديم نافعٌ ، وأنه أكثر من نافع .

ومن هذا الرأي في القديم أنّه كان اقترح على الفقيه مصطفى جمال الدين يومَ رغبَ إليه أن يكون مُشرفاً على رسالته للدكتوراه أن يكتبَ عن « الدرس النحويّ عند الأصوليين » فكتبَ مصطفى رسالة لا يعرفها أهلُ النحو ما عدا المخزوميّ ، وإن كانوا قد تمطّقوا كثيراً برأي أهل أصول الفقه في النحو بعد كتابتها ونشرها .

أما لماذا اقترح المخزوميّ هذا العنوانَ دون سواه على مصطفى فلسببين أوّلهما أنّ مصطفى من طلاب العلوم الدينية ، وثانيهما إحساسه بما يخسره الدرسُ النحويّ إذا لم يلتفتْ إلى المتخصصين في أصول الفقه ، وهم يبحثون أول ما يبحثون في أصولهم اللغة العربية ، والنحو العربيّ من الناحية الفلسفية العقلية باعتبار أنّ فهم اللغة أصلٌ من أصول استنباط الأحكام الشرعية .

وبقي عليّ العنوان لم أفسّره ؛ فقد كان أنحى من عليها - أبو نوال المخزومي - يضجرُ من ثلاثة انسجاماً مع شخصيته في إنصاف الحقّ ؛ أحدهم الذي ينسبُ إلى الليث بن عاصم ، وهو تلميذ الخليل ، معجم الخليل الفراهيدي ؛ « العين » وهو أول معجم في العربية ، وثانيهما من ينسبُ إلى سيويه ما في كتابه ؛ الكتاب ؛ وثالثهما الذي يزعم أنّ الأخفش استدرك « بحر

المتدارك» على عروض الخليل . فقد كان يرى في الكتاب ، وهو على حق ، أنه علمُ الخليل ، وأن سيبويه لم يكن إلا تلميذاً ألعياً نجيباً أدرك ما هو في نعمته من علمِ أستاذه ؛ فاستثار ودوّن .

فأما الليثُ فقد ناقش هو قصيَّته في مقدِّمة تحقيقه «العين» . وأما الأخفش فلا أكثر من أن يرسم لك المخزومي دائرة المثَّق من دوائر العروض كما رسمها الخليل ليريك أن الخليل قد أشار إليها ، وإن لم يُسمَّها ، ولتقتنع برأيه فيما يقول .

ولقد كنتُ من الإيمان بإدراك هذه الحقائق في استاذي المخزومي أن أضحكته - ذات يوم - وهو على منصّة المناقشة يوم قال لطالب يناقشه في رسالته : «تقول : قال الليث...» فهمستُ في أذن زميلٍ جالسٍ إلى جنبي «صارت القضية قضية عرض وناموس» وكان الفقيه كأنه قد سمع ما قلتُ فضحك مغالباً ضحكته مُموهاً أنه لم يقطع ما كان فيه من مناقشة قانلاً بصوتٍ لا تكادُ تُميّزُ غصبه من صفائه : أنا لا أنتصر للخليل ولكنني أنتصر للحق .

ومن عجيب المصادفات أن حدثني - قبل عام حين كنتُ في ليبيا - أحدُ الأصدقاء الذين كانوا معه في بيته لحظة وفاته أنه مات وبين شفتيه الخليل ، فقد سنل عن الفرق بين قياس أهل الفقه وقياس الخليل ، فبدأ يجيبُ وما إن قال : أما الخليلُ فقياسه... حتى حشرج بصوتٍ مسموعٍ واضعاً يده على صدره ولم يكمل الجملة . فكان آخرُ عهده بالدنيا الخليلُ بن أحمد الفراهيدي ، وكان آخرُ عهد الخليل بمن يفهمه فهماً مبدعاً عميقاً هو الخليلُ المخزومي .

وكم أتمنى أن لو قامت جهةٌ من الجهات التي تُعنى بالثقافة سواء أكانت دار نشرٍ رصينة أم جامعة أو مجمعاً بطبع الأعمال الكاملة للفقيه فأسدت بذلك يداً لا أنقى منها للثقافة العربية الرصينة الأصيلة . فقد كان المخزومي عالماً من إبداع .

ولقد كنتُ قلتُ حين حقَّقتُ كتاب ابن الأعرابي «مقطَّعات مراث» من بين  
ما قلتُ في الإهداء ،

«أبا نوال أستاذي العلامة الدكتور مهدي المخزومي

تعجزُ الكلمةُ في الرُّزءِ بك أن تنهضَ بالحُزنِ ؛ فعسى أن ينهضَ به هذا  
الكتاب ؛ فما أفقرُ الرِّثاءِ حين يكون من الحزنِ تراثاً» .

كان ذلك مما قلتُ وأنا أقدمُ شعراء حقيقيين منجوعين اختارهم ابنُ  
الأعرابي ، أما اليوم وقد قدَّر لي أن أرثي المخزومي فأقول : ما أفقرُ الرِّثاءِ حين  
أكون أنا الراثي!

بوزنان - بولندة

في ١٤ / ٧ / ١٩٩٧

# علويان مبدعان

العلوي الجماني  
مصطفى جمال الدين



## العلوي الحِماني

اسمه ونسبه ومولده:

هو علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام<sup>(١)</sup>. يُكنى أبا الحسن، ورثاً الحسين، ولكن ليس في ولده من اسمه الحسن أو الحسين<sup>(٢)</sup>، ولعل كنيته تؤرخان لما درج عليه العراقيون إلى اليوم في التكنية؛ فيكنون علياً أبا الحسين، وأبا الحسن تيمناً بكنية الإمام علي بن أبي طالب.

ويُلقَّب بالعلوي الكوفي، وبالأفوه، وبالحِماني. والحِماني من أشهر ألقابه؛ وهو إنما عُرف به لأنه «كان ينزل بالكوفة في بني حِمّان فنُسب إليهم...»<sup>(٣)</sup>.

وأغلب الظن أن الشاعر ولد في الكوفة في سنة لم تؤرخها المصادر التي بين أيدينا، ولم تُورد ما يُعين على تحديدها. ورغم هذا فمن المعاصرين من

(١) تُكرَّر بعض المصادر، وتتابعها بعض المراجع، اسم جدّه فتقول: «علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن محمد بن زيد...» ينظر: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ٢٠٠، والفدير ٥٧١.

(٢) ينظر تهذيب الأنساب ونهاية الأعتاب (مج) ١١٠ ط.

(٣) سمط اللآلي في شرح أمالي القاضي ١٣٩١، وينظر بشأن قبيلة «حِمّان» الأنساب ١: ٣٢٥-٣٢٦.



يرى أنه « كان من المعمرين أدرك القرن الثالث من أوله إلى آخره »<sup>(١)</sup> ، ويغلب على الظن أنه وهمُ مردُّه أنَّ المرحوم الشيخ الأميني - مؤلف الفدير - يرى أن وفاة أبيه كانت سنة ٢٠٦هـ<sup>(٢)</sup> ، وإلى ما شاع بين المتأخرين من خلط بين شاعرنا وعلي بن محمد الديباجة<sup>(٣)</sup> .

وإزاء هذا للإشارة الوحيدة التي تومئ إلى عمره هي قوله :

أعدُّ سبعين ، ولو أأجملت نهماؤها عادت إلى عام<sup>(٤)</sup>

فإذا افترضنا أنه مات بعد أن تجاوز السبعين من عمره قليلاً ، ثم أخذنا أنه أدرك آخر القرن الثالث أخذ ترجيح قلنا : إنه ولد في العقد الثاني أو الثالث من القرن الثالث .

### نشأته ومنزلته ووفاته ،

نشأ الحماني في بيتٍ معرِّقٍ في الشعر ، فقد كان يقول : « أنا شاعرٌ ، وأبي شاعرٌ ، وجدِّي شاعرٌ ، وأبوجدي شاعرٌ إلى أبي طالب »<sup>(٥)</sup> ، وليس في

(١) الفدير ٣٨١ .

(٢) الفدير ٣٨١ مستنداً إلى مروج الذهب ، ولم أجد في المروج ما يشير إلى ذلك ، بل وجدت في أخبار القضاة ٢ : ١٩١-١٩٢ ما يشير إلى أنه كان حياً في العقد الرابع من القرن الثالث . وورد في الوالي بالوفيات ٢ : ٢٩٥ أنه « كان في أيام المتوكل وبقي بعده طويلاً » ومعلوم أن المتوكل قتل سنة ٢١٧هـ .

(٣) خلط بينهما نفرٌ من المعاصرين ، فأحالوا في ترجمة الحماني على حوادث سنة ٢٠٠هـ في تأريخ الطبري ، وهذه الحوادث تخص الديباجة وليس الحماني . ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال المرحوم العلامة مصطفي جواد في تلخيص مجمع الأداب ١٠٤ : ١ (حاشية) . والمستغرب يوهان فك في كتابه العربية ١٢٧٠ . إذ قال عنه : « لقد كان حفيداً لجعفر الصادق ، وابناً لمحمد الديباجة الذي دعا لنفسه بالخلافة في مكة سنة ٢٠٠هـ » . وليس الحماني بحفيد لجعفر الصادق . وبلغ الدكتور شوقي ضيف في العصر العباسي الثاني من تاريخ الأدب العربي ٣٩٢ من اليقين أنه ابن محمد الديباجة بحيث نهم على أن أسرة الديباجة انتقلت إلى الكوفة بعد وفاة ربها في خراسان . وأن أمه هي التي تولت تنفيذه بمعاونة الأسرة . وكل هذا محض خيال .

(٤) خاص الخاص ١٠١ .

(٥) نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر (مخ) ٢ : ١١٠ ط . أعيان الشيعة ١ : ٢٩٧ .

قوله مبالغة أو ادعاء؛ فقد وصل إلينا من شعر أبيه محمد بن جعفر مقطعات<sup>(١)</sup>، وعُرف جدّه جعفر بالشاعر<sup>(٢)</sup>. ولكن هذه البيئة لم تدفعه إلى أن يأخذ علم العربية في صباه عمّن يعرفه في الكوفة؛ إذ ظلّ يشكو ضعف ملكته في النحو واللغة<sup>(٣)</sup>، ويشكو رداءة خطّه أيضاً<sup>(٤)</sup>، فكان يضطره هذا الضعف أن يهجر معاني مليحة تجينه؛ لأنه يشكّ في لغتها وفي إعرابها<sup>(٥)</sup>. ويمكن أن يكون من جملة أسباب ضعفه هذا فقدان الكوفة الحلقات العلمية في عصره؛ لنحن لا نعرف عالماً كبيراً عاش فيها خلال القرن الثالث.

حظي أبو شاعرنا محمد بن جعفر بمنزلة كبيرة في الكوفة<sup>(٦)</sup> ورثها عنه - على ما يبدو - ابنه عليّ الحماني؛ إذ كان صاحبنا - كما يقول المسعودي عن مكانته بين العلويين في الكوفة - «تقريبهم... وشاعرهم، ومدرّسهم، ولسانهم، ولم يكن أحدٌ بالكوفة من آل عليّ بن أبي طالب يتقدّمه في ذلك الوقت»<sup>(٧)</sup>.

ومما يدلنا على هذه المكانة الرفيعة أنّ صاحب الجيش الذي لقي يحيى بن عمر العلوي الثائر بالكوفة، فقتله، اهتمّ بتخلّف شاعرنا عن السلام عليه، وبتقاعسه عن لقائه في حين أنه «لم يتخلّف عن سلامه أحدٌ من آل أبي طالب... لتفقدّه الحسن [يعني صاحب الجيش] وسأل عنه، وبعث بجماعة فأحضره؛ لأنكر الحسن تخلفه، فأجابه عليّ بن محمد بجواب آيس من الحياة فقال:

(١) ينظر شعر أبيه - على سبيل المثال - في الواقي ٢٩٥١-٢٩٦، وديوان المماني ٢٦٠٢، ومحاضرات الأدباء ٣٤٣، ٣.

(٢) ينظر سمط النجوم الموالي ٢٢٤١، ٢.

(٣) ينظر الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء ٣٤٦١.

(٤) ينظر أدب الكتاب ٥٢١، ٦.

(٥) ينظر الموشح ٣٤٦١. ولا عبرة بدفاع الدكتور شوقي خيف عن معرفته العربية في «العصر العباسي الثاني».

من تاريخ الأدب العربي ١٨٤.

(٦) ينظر أخبار القضاة ٣: ١٩١-١٩٢.

(٧) مروج الذهب ١: ١٥١.

أردت أن آتيك مهتناً بالفتح ، وداعياً بالظفر ؟ وأنشد شعراً لا يقوم على مثله من يرغب في الحياة...»<sup>(١)</sup> .

ولعلَّ الموفق قد أدرك أن مثل هذه المنزلة مما يؤقله أن يجمع الأنصار وأن يشور بهم : فحبسه مدةً طويلة<sup>(٢)</sup> ، « لأمرٍ شُنع به عليه من أنه يريد الظهور »<sup>(٣)</sup> ، ولم يطلقه حتى كتب إليه :

قد كان جدُّك عبدُ الله خير أبٍ لا بني عليٍّ حسينٍ الخيرِ والحسن  
فالكفُّ يوهنُ منها كلُّ أئمةٍ ما كان من أختها الأخرى من الوهن<sup>(٤)</sup>

فعادَ إلى الكوفة من حبسه ، وظلَّ بها - على أغلب الظنَّ - إلى أن توفِّي في سنة ٣٠١ هـ على ما يُرجَّح المرحوم الشيخ الأميني<sup>(٥)</sup> ، وهو ترجيحٌ ينسجمُ ووقائع حياته .

## شعره

كان شعر الحماني مجموعاً في ديوانٍ بقي متداولاً حتى القرن التاسع ؛ فقد قال ابنُ عتبة المتوفَّى سنة : ٨٢٨ هـ : « له ديوان مشهورٌ ، وشعرٌ مذكور »<sup>(٦)</sup> ، وذكر إسماعيل باشا البغدادي هذا الديوان<sup>(٧)</sup> ، ولا غرابة أن يبقى ديوانه متداولاً طيلة خمسة قرون ؛ فقد حظي شعره باهتمام معاصريه فكان له رواة

(١) السابق ١٥٠ : ١٥١ .

(٢) كتاب الفنون ٢ : ٦٩٧ .

(٣) المروج ١ : ١٥١ .

(٤) نفسه .

(٥) التذير ٣ : ٢٠١ . وفي الكامل في التاريخ ٥ : ٢٧٢ . والمروج ١ : ١٥٣ أنه توفِّي سنة ٢٦٠ . وفي هدية العارفين ١ : ٦٧٢ أنه توفِّي سنة ٢٤٥ هـ . وتابع ابن الأثير والمصنوع أغلب من ترجمه له من انصاعرين .

(٦) عمدة الطالب ٣٠١ .

(٧) هدية العارفين ١ : ٦٧٢ .

نعرف منهم : أبا أحمد بن إسماعيل العلوي ، وأحمد بن سليمان السري ، وأبا الباساني ، ومحمد بن سليمان المنجّم فقد روى ابن أبي اليسر الرياضي شيئاً من شعره عن هؤلاء . أثناء زيارته لبغداد التي امتدّت إلى أيام خلافة الرازي (٣٢٢ - ٣٢٩هـ)<sup>(١)</sup> . ولكننا لا نعرف اليوم من أمر هذا الديوان شيئاً .

وشعرُ الحماني الذي وصل إلينا موزّعٌ على أغراضٍ عديدةٍ منها : الشكوى ، والفخر ، والغزل ، والثناء ، والإخوانيات ، والسياسة ، والعقيدة ، ولكن الاتجاهين الأخيرين أغلب على شعره ، حتى إنك لتجدُ العقيدة الشيعية الزيدية غالبية حتى على بعض إخوانياته<sup>(٢)</sup> . ومن هنا رأينا العلويين يعتزّون بشعره ، ويرفعون من مكانته فيقول فيه الإمام عليّ الهادي عليه السلام : إنّه أشعرُ العرب<sup>(٣)</sup> ، ويقول فيه الناصر الأطروش : « لو جاز قراءة شعرٍ في الصلاة لكان شعر الحماني »<sup>(٤)</sup> .

ولابدّ أن يكون في أسباب اتّجاه الحماني إلى السياسة والعقيدة منزلته الكبيرة عند علويي الكوفة مما يجعله مسؤولاً أن ينافح عن عقيدتهم ، ونسبهِ العلويّ الكريم ، وتشيعه . زدْ على ذلك ما اضطلعت به الكوفة من دور سياسي معارضٍ بارز في هذا القرن - أعني الثالث - وقبله ؛ فقد شهدت خلال القرن الثالث وحده ما يقربُ من خمس ثوراتٍ كان آخرها ثورة القرامطة .

وشعر الحماني صدّي أمينٌ لعصره من الناحية الفنية فضلاً عن الناحية التاريخية ؛ فهو حافلٌ على غير إسرافٍ بمذهب « البديع » ابتداءً بالتشخيص

(١) ينظر كتابه تلخيص القول (نسخة ليدن) ٤٢٠ ط ٤٢٠ ط ٤٥٠ ط ٤٦٠ و .

(٢) تنظر على سبيل المثال المقطعة رقم ١٢٠ في ديوانه .

(٣) تنظر قصة سؤال الخليفة المتوكّل إياه عن أشعر الشعراء ، وجوابه في تاريخ طبرستان ١ : ٢٥٥ ، والتقدير ٥٨ : ٢ .

(٤) معانيه ، ١٥٠ : ١ ، وناصر الأطروش هو الإمام الثالث عشر من أئمة الشيعة الزيدية . توفي سنة ٤٢٠هـ .

وانتهاءً بحسن التعليل<sup>(١)</sup> . كما أنَّ ما شاع في عصره من تحلل من بعض قيود العربية موجود في شعره ابتداءً برفع الحال ، وانتهاءً بتصريف الأفعال تصريفاً لا يرضى عنه أهل اللغة<sup>(٢)</sup> .

والثقافة الشعرية والأثرية التي حفل بها شعرُ القرن الثالث كان لها صدَى في شعره أيضاً ، ففي بعضه نجد تضميناً لأبيات مشهورة ، وفي بعض آخر منه نرى اقتباساتٍ من الحديث النبوي الشريف . أما شيوخ استعمال البحور النادرة الاستعمال ، والبحور القصيرة في شعر هذا القرن فقد وجد له مكاناً في شعره أيضاً ، فرأيناه ينظمُ في مجزوءات البحور ، وفي البحور القصيرة أصلاً<sup>(٣)</sup> .

والمهمُّ هو أنني غيّتُ ذاتَ يوم بهذا الشاعر الذي لا يكادُ يُشبهه الآخرون من زملائه وصنعتُ له ديواناً إعجاباً بموقفه السياسي الواضح المُتميّز في عصره . ورحمة الله على أبي فراس الحمداني يوم قال :

وللناس فيما يعشقون مذاهبُ

(١) تنظر المقطعة رقم ٣٢٠ ، ٢٦٠ من ديوانه على سبيل التعليل لا الخُصر .

(٢) ينظر البيت السادس من المقطعة رقم ٢٧٠ ، والمقطعة ٥٣٠ . وانييت الثاني من المقطعة ٩٧٠ .

(٣) ينظر على سبيل المثال المقطعتان ٦٠ ، ٢٢٠ .

## كان جمال الدنيا أيضاً

(في رحيل المبدع مصطفى جمال الدين)

لم يرث شاعرٌ من شعراء العرب - في الأغلب الأعم - عزيزاً عليه إلا تمنى لو أنَّ الموت قَبِلَ أن يُفَتِّدَ الفقيد ففداه ، ويبدو لي أن ذلك لا يعبر عن مكانة الفقيد المرثي فحسب ، وإنما يعبر أيضاً عن ميلٍ لانتقاء النوع الإنساني ، وعن حسٍّ فطريٍّ بضرورة هذا الانتقاء ؛ وإذا خفتَ من نيتشة ومن نظريته اللاإنسانية فقل ، إنه تعبيرٌ عن التشبث بكلِّ ما هو خيرٌ جميل في هذه الحياة ، وإلا فما معنى أن يُعَمَّرَ القتلة الجلادون وأن تقصر أعمارُ المبدعين ؟ وهل عليَّ أن أسرد قائمة أسماء القتلة المعمَّرين أم يكفي أن أترحم على الجنرال فرانكو وأن أسلم على الحبيب بورقيبة ؟ ثم هل يكفي أن أذكر من المبدعين القصار الأعمار طرفة بن العبد والمتنبي وبدر شاكر السياب ؟

لم يكن مصطفى جمال الدين من هؤلاء القصيري الأعمار ، ولكن كان أقصرهم عمراً ؛ لأنه أنفق جُلَّ عمره - وهو المبدع المبدع - في ملاحقة هموم الآخرين وفي تبديدها ، فإن لم يستطع ففي التخفيف منها ؛ ولقد بلغ من حبِّ الآخرين ومن الولع بالتخفيف عنهم مبلغاً جعلني أهرب من مساكنته في فندق مصطفى بشارع الجمهورية من بغداد سنة : ١٩٧١ - وكنا يومذاك زميلين في دراسة الدكتوراه بجامعة بغداد - طلباً للنوم لا للراحة ؛ إذ كان طلبُ الراحة برفقة الفقيد مصطفى ضرباً من الطموح بتداول السلطة السلمي في البلاد

العربية . أقول هذا لأنَّ غرفة الفندق كانت مضيئاً لذوي الحوائج يؤمونه من كلِّ اتجاهات العراق ، ولم تكن طلبات بعضهم على قدر مكانة الفقيد ، ولكنَّ ضميره لم يكن يجزؤ أن يردَّ أحداً حتى وهو يبتسم من فهاة تلك الطلبات ، بل حتى وهو يتندر بها أمامي فنضحك . ولطالما سألتُه عن سرِّ استجابته لها وترحابه بها إذا ؟ فلم أسمع منه سوى جملة الخالدة :

- لا ، يخوية ذولة مساكين ، منو إلهم ؟ (بمعنى : أن من هؤلاء المساكين ؟) .

ولقد كان من هؤلاء المساكين من لم يطلب منه فيتبرَّع هو ببذل جاهه من أجلهم ، ولقد كنتُ أنا واحداً منهم في أكثر من مرَّة ، بل كان منهم من لا يعلم حتى اليوم بما بذل المصطفى أبو إبراهيم من أجله .

لم أكن أريد - ولا أريد - أن أتحدث عن هذا الجانب الإنساني فيه ، ولكنني أردتُ الإشادة به ، لأنني لم أقرأ في مرثي الذين رأيتُ مرثيهم من مرَّ به أو توقَّف عنده . وأردتُ أيضاً توكيد ما أشرتُ إليه من قصر عمره الفني ؛ إذ لم تكن موهبة الراحل مصطفى جمال الدين من الطراز الذي يرضى بما صدر له ، فجمعه فيما أسماه : « الديوان » وحده لولا أنه شاء لها ذلك بما أراق من وقته فيما تحدثتُ عنه ، وبما أهمل من طبع بعض شعره انسجاماً مع خُلُقهِ الرفيع في ألا ينشر ما كان يظنُّ أنه يسيء إلى الآخرين أو ينتقص من أقدارهم . فلفقيد من الشعر الإخواني ما لا يبلغه شعرُ الشعراء الجادِّين من أمثاله ، حتى لكانه كان ينقُص عن تمرُّده بمثل هذا الشعر .

وقلتُ : ينقُص ؛ لأنه ربَّما - لا أدري ولا أجزم - لم يكن يستطيع بما له من مكانة دينية رفيعة جداً - ومصطفى هو المرجح الأعلى للشيعَةِ الأخباريين - أن يجاهر جاداً بما يرى ، وإن كنتُ أعتقدُ جازماً أن جرأة مصطفى ، وشجاعته في إبداء رأيه مثلاً يكادان يكونان نادرين .

ومن يقرأ مقدّمة ديوان الفقيد التي أرّخ بها لمدينتيه : سوق الشيوخ  
والنجف ، ولنفسه يجدُ حديثه عن اعتزازه بما أسماه شعره الإخواني ، واعتذاره  
عن إهماله حديثاً كان يودُّ معه لو أثبتّه لولا ما كان يراه من محاذير . أمّا وقد  
أصبح أبو إبراهيم في ذمّة التاريخ فأخّر بمحاذيره تلك أن تكون في ذمّة التاريخ  
أيضاً . ومن هنا أريد أن أبيح لنفسي أن أسرد ما أطلعتُ عليه من إخوانياته وما  
كنتُ طرفاً فيه فأقول :

يوم بلغ سمي - وأنا في النجف الأشرف - اسمُ مصطفى جمال الدين بلقّة  
لأنه صاحب :

بغدادُ ما اشتبكتُ عليك الأعصرُ      إلا ذوتُ ووريقُ عمركِ أخضرُ  
لم أكن أعرف الفقيد يومذاك إلا اسماً ؛ إذ لم تكن سنّي تؤهّلني أن ألقى  
مثله ، وإذا عرفتهُ عرفتُ أنّه كان قد نظم قصيدته تلك عامَ احتفالِ الزعيم عبد  
الكريم قاسم بعيد ميلاد بغداد الألفي ؛ وحدثني أنه كان ينوي المشاركة بها في  
الاحتفال ، وأنه قدّمها للجنة الاحتفال الأدبية برئاسة الدكتور ناجي الأصيل ،  
وكان قد تقدّم معه بقصيدة أيضاً صديقهُ الأستاذ الشاعر محمد الهجري -  
والأستاذ محمد الهجري ممن أقول بفخرٍ واعتزازٍ أنني تلمذتُ له في دراستي  
الابتدائية - وفوجئ الاثنان معاً برأي الدكتور الأصيل في أن قصيدتيهما لا  
تصلحان ؛ فما كان من أبي إبراهيم إلا أن قال بيتاً مفرداً هو بمفرده قصيدة في  
سخريته المرة :

الخزيُّ والعارُ يا ناجي الأصيلُ لكم      والخزيُّ والعارُ يا ناجي الأصيلُ لنا  
وكان شعار : « الخزي والعار لـ... » يومذاك من أكثر الشعارات شيوعاً في  
الشارع السياسي العراقي .

وتحقّن مصطفى الفرصة السانحة فألقي قصيدة « بغداد » في مؤتمر الأدباء  
الذي انعقد في بغداد - إذا صدقتِ الذاكرة - عام ١٩٦٥ فغُرف بها ؛ بل قُل :



إنَّ المؤتمر برمته عُرف بمصطفى وقصيدته ؛ فقد كان جمال الدين - والجواهري الكبير في منفاه ببراغ - فارسَ الحلبة التي لا تطمحُ الخيولُ أن تبلغَ غبارَهُ .

وجمال الدين - كما قدَّم نفسه - في مقدِّمة الديوان عربيُّ إسلاميُّ يؤمن أبعد ما يكون الإيمان بالديمقراطية ؛ وكان من إيمانه هذا أن كان مشاركاً بشعره في المنبر الذي نصبه زعماء الشيعة لأنفسهم من خلال الاحتفال بميلاد سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي في مدينة النجف ، وبميلاد الإمام علي بن أبي طالب في مدينة كربلاء لعرض مطالبهم السياسية ، ووجهات نظرهم في حكم الشهيد الخالد الزعيم عبد الكريم قاسم ولكن لم يكن جميع الشعراء المشاركين من طراز الراحل جمال الدين ، وإنما كان يشارك في هذا الاحتفال شعراء ضِعافُ المواهب منهم على سبيل المثال المرحوم الشيخ عبد الغني الخضري .

وألقي المرحومُ الخضريُّ في إحدى المرات قصيدةً باردةً كأغلب قصائده ، وكانت من بحر الوافر رويُّها الدالُّ المضمومة ، وقافيتها على زنة « فَعِيل ، وفَعول » من قبيل : عَمِيدُ ، وعَتِيدُ ، وعَقِيدُ ، وقَمُودُ ، وسَجُودُ ، وهَلَمَّ جَرأُ مما يأتي في هذه القافية عند النُّظَّامين ، فكانت هذه القصيدة فرصة مصطفى في السخرية لا من مستوى الشعر وحده ، وإنما من الحال برئمتها ، فكان أن تسلَّم أدباء النجف رسالة على الآلة الكاتبة لم يكن فيها إلا بيتان غُفلان من التوقيع هما :

أيا عبداً الغني نَظَّمْتَ شعراً      قسوافيه خفافيسُ ودُودُ  
ولولا الخسوفُ من ذكرى علي      لبال علي « سَمَاحَتِكُمْ » يزيدُ

وتناشد أدباء النجف البيتين منسوبين إلى مصطفى جمال الدين ؛ فلم يكن يغيَّبُ عن ذوق أحدٍ منهم نَفْسُ الراحل في الشعر وفي السخرية ، وهل يخفى القمر ؟

وسخَّرَ أبو إبراهيم مرةً أخرى في هذه المناسبة نفسها من نَظَامِ اسمِهِ الشيخ عبد الحسين الذارمي سخريةً قاسيةً مرَّةً .

وقد كان هذا الشيخُ قد ألقى منظومةً تكون قصيدةُ الشيخ الخضري إلى جنبها معلقةً ، فلم يكتفِ بأن ألقى ، وإنما طبع منظومته الباردة في كتيب . ولم يكتفِ بأن طبع ، وإنما كان يُعلق وراء بعض المقاطع - وكأنه النزيه الأمين مؤرخاً - يروي للقاري ما كان من استقبال الحفل لقصيدته أثناء إلقائها ، كأن يقول وراء المقطع الأول من منظومته : « تصفيق » ويقول وراء المقطع الثاني : « تصفيق واستحسان » ووراء الثالث : « استحسان واستعادة » وهكذا ، وقرأ مصطفى الكتيب فابتدأ يقول ، وشاركه أصدقاؤه في القول ، فقال قصيدة لم يبق في ذهني حين رواها لي إلا ثلاثة أبيات هي :

سلامٌ على شيخنا الدارمي	على الزاهد الورع القالِم
سلامٌ على « جِثْلِهِ » العبقريِّ	يضمُّ جميعَ « خَرَا » الوادِم
و« علبائه تُختة » للكباب	تدقُّ عليها « ننا فاتم »

و« ننا فاتم » فارسيةٌ تعني بالعربية : أم فاطمة . أما « الجِثْل » فهو يعني في لهجة العراقيين : البطن المنتفخ الواسع ، والوادم : الناس .

وإذا كنت متأكداً من نسبة البيتين الأولين إلى الفقيد الراحل فأنا في شكٍّ من نسبة الثالث إليه ، فلعله - كما تصيحُ بي الذاكرة - للشاعر صالح الظالمى .

ودُعِيَ مصطفى إلى مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد في بغداد خلال شهر نيسان من عام ١٩٦٩ ، فألقى فيه قصيدته :

لملم جراحك ، واعصف أيها الشارُ ما بعد عار حزينان لنا عارُ

وكان على المدعوين أن يذهبوا إلى دهليز في القصر الجمهوري ضيقٍ ينتهي إلى غرفة واسعة عليها طاولة وسجلٌ يسمونه « سجلَّ التشريفات » وكانت أمام الراحل - وهو ينتظر دوره في الإمضاء - الشاعرة المصرية رُوحية القليني - وروحية ممن يضيق عنهنَّ مقاسُ ( XXI ) ، أما ردفاها فهما أحسنُ ما أنجبت

مصرُ الشقيقة من دعاية متقلِّبة لأهرامها الخالدة ، وضَجِر مصطفى من انتظار شيء كهذا ، فقال بيتاً يتيماً هو ،

رَوْحِيَّةٌ إِذْ وَقَفْتُ ثُمُ مَضَى      وَقَفْتُ بِالطُّولِ وَبِالْعَرَضِ

وتبقى ذُرَّةُ سَخْرِيَّةِ يومِ استشار صديقه المرحوم الشاعر الرقيق صادق القاموسي (أبا رشاد) في زيارة لبنان وكان الفقيه يزعم زيارتها لأوّل مرّة ، فنصحه بالسكن في فندق رويال ، وإذ عمل بنصيحته اكتشف أن أبا رشاد قد نصّحه أن يصطاف في النجف نفسها ، لأنّ فندق رويال كان ملتقى رجال الدين الشيعة من نجفيين ، ولبنانيين ، وكان معنى ذلك عنده أن يصطاف في النجف مُحْتَمِلاً فوق ذلك تذكرة سفر إلى لبنان . ساريف إقامة فيها ، وكان أول ما صدمه شينان هما روعة طبيعة لبنان ، ونكات الشيخ عبد الغني الخضري الذي سبقه إليها (ويكنى الشيخ عبد الغني بأبي طاهر) ، وهي عنده نكات باردة مثل منظوماته ، فكتب إلى المرحوم صادق القاموسي بطاقة بريدية يقول فيها :

يا أبا أرشد ، ولولا نكات أبي طاهر      هَرِ تَنْصَبُ كَالْعَذَابِ بِأَذْنِي  
لَتَخَيَّلْتُ أَنَّنِي مُؤْمِنٌ مَا      ت ، وهذي الهضابُ جَنَاتُ عَدْنِ

ومرّ به الصيف - وهو في فندق رويال - وقد أدركه عيدُ الوردِ وصباياه اللاني يحملنه يُطْفَن به في الشوارع ، وهو محاصرٌ بكلّ مشايخ النجف المصطافين في الفندق .

أما مصطفى فكان محاصراً برغبته في رؤية هذا العيد الجديد عليه وما ينبي، عنه من جمال ، فخرج يرى الصبايا الجميلات منكشأً في سيارة جلس فيها بحيث يرى ولا يرى فلم يبرحها ، فكان صديقه أبو رشاد القاموسي الذي حرّمه من كلّ هذا الجمال ، ففرض عليه أن يرى الجمال متسرّاً نُصِبَ عينيه ، فكتب إليه ما كتب مما بقي في ذاكرتي . وأقول : مما بقي في ذاكرتي لأنّ تنقّلات من هو مثلي بين مدن الله الضيقة الواسعة قد أضاعت الكثير مما اعتز به

ومنه هذا الذي أريد أن أرويه على أنه دُرّة الفقيّد في إخوانياته ؛ فقد سجّلتُ الحادثة برمّتها على شريط تسجيل بصوته يوم شرّفتني بزيارته لي في الجزائر - بعد أن خرج من مُعتقله في الكويت - وضاع مني الشريط وأنا أُغادرُ الجزائر . ونسيتُ أن أقول إنّ مصطفى رأى حاملات الورد في لبنان وهنّ يرتدين البنطلونات ، وكان لبس النساء البنطلونات يومذاك دُرّةً لم يألّفها العالم العربيّ فما بالك بسوق الشيوخ والنحف ؟ وكتب مصطفى إلى صديقه القاموسي يصفُ له ما يراه ويعاتبه على ما أشارَ به :

فجرّ غاليه في جبينك إشر	أق ، ولفح الصحراء في البنطلون
خَبّرني أعن يَسارك قد خَب	بأت سرّ اللهب أم في اليمين
خَبّرني ، ولا تخافي ، فأيا	رك في مامن لدى تشرين

إلى أن يقول :

لو ترائي ، وشمّ لبنان طارت	بي ، ورويال مركبي وسفني
حاملأ بين حاملي الورد رأساً	صَدَقَ الله إنّه من طين
وعيوناً لو أبدلوني عنها	بـ « الصلابيخ » لم أقل ؛ ظلموني
لمتي يكره العمايَة طرفُ	لا يرى غير كالح العُشون
وأنا حولي المشايخ من لب	نان ، من أردبيل ، من قزوين
عن يميني عبدُ الغنيّ ، وعن يس	راي واغربتاه شمسُ الدّين
لأحلنا لبنان وهي خدودُ	من جَحيِم جُنيّة من دُقون

وتراءتُ « بجشم ما » صورة « الشّيلة » بهتَر أز بي حيا البنطرون »

ومعنى البيت الأخير - وهو مزيج من الفارسية ، والعامية العراقية - أنه تراءت بعيني صورة « الشيلة » وهي ما تغطي به العراقية رأسها وصدرها - أحسن من البنطلون الذي لا يستحي .

ثم ختمها بقوله يخاطبُ صديقه القاموسي الذي أشار عليه بفندق رويال :

وانتظاراً أبا رشاد لهجوي كيف « قشمرتني » بها يا دوني ؟

ورنّ تلفوني في الجزائر ، فكان على الخط مصطفى جمال الدين ؛  
فاستغربت لأنني توقّعت أنه يكلمني من النجف ، ولكنني اكتشفت أنه يكلمني  
من لندن ، وأنه هجر العراق بعد أن خشي على كرامته من أن تُمتَهَن باتخاذ  
موقف لا يرضاه لنفسه . كان يريد أن يُبدّد وحشة الغربة - لاسيّما أنه ترك  
زوجته الفاضلة السيّدة أم حسن وصغارها في العراق - ولا أذكر الآن إن كان هو  
الذي أخبرني برغبته في زيارتي أم أنني عرضت عليه . وأيّاً كان الأمر فقد  
استقبلت أبا إبراهيم في شهر أيار بالجزائر ، وكان من الطبيعي أن نتساكن هذه  
المرّة أيضاً - ولكن لا في فندق مصطفى بشارع الجمهورية من بغداد - وإنما في  
شقتي المرقّمة ٤٦١ في البناية ؛ ب ٦ بحيّ الأسفوديل من محلة ابن عكنون في  
أبيار الجزائر . وكان أول ما أدهشني في هذه الزيارة أن رأى صديقة لي جميلة  
كان اسمها سامية .

وسكت مصطفى إزاء هذه الدهشة مبتسماً ، وكنتُ موقناً جزاء معرفتي به  
أن وراء هذه الابتسامة شيئاً ، وزاد من يقيني في أن وراء ابتسامة مصطفى شيئاً  
لا بدّ واقع هو استغراقه في الحديث معها ، وانسجامه في محادثتها ؛ فوطئتُ  
نفسي لما يقول ، فكان أن فاجأني ذات يوم بأرجوزة يقول فيها :

ساميةُ يا حلوة العينين  
يا باقة الوردِ على رُديني  
يا شعرها المائج في الكتفين  
لو دُسَّ والحريزُ خصلتين  
لاخشوشن الحريزُ في اليدين  
وثرها الضاحك باللجين  
يرفضُ عن لسالي البحرين

وصدرها الراقص بالنهدين  
 كأنه القصيد ذو الشطرين  
 أفديك يا ناعمة الخدين  
 بالحسن الثاني وبالحسين  
 وبالقسيّاديين في القطرين  
 وبالسلاطين ذوي الوجهين  
 من تونس الخضرا إلى البحرين

وسمعتُ الأرجوزة - وهو يملئها على سامية حتى إنني احتفظ بصورتها الأولى وهي بخطها - وحمدتُ الله أن ليس فيها شيء من سخرية إلا سخريته بالسلاطين ذوي الوجهين ، وضحكتُ معه وهو يضحك من هؤلاء السلاطين فرحاً بنجاتي من لسانه حتى لقد تعبنا من الضحك - ولكن فرحتي بالنجاة لم تدم طويلاً ؛ فقد وصلت إليّ رسالة منه وقد وصل إلى الكويت تقول :

« بسمه تعالى

أخي أبا عليّ سلام الله عليك

وصلتُ الكويت وحاولتُ جهدي أن أتصل بك تلفونياً ولكني لم أستطع ، سأحاول مرة أخرى ، وعندما أريد السفر إلى الخارج حتى أخبركم باتجاهي .  
 الإخوان هنا يسلمون عليك .

أضفتُ وأنا في الطائرة بعض التعديلات على الأرجوزة . أرجو أن تُصلح النسخة التي عندك :

سامية يا . . . . .

يا باقة الورد على رديني

يا شعرها المائج في الكتفين

لو صُفَّ والحريز خصلتين

لآخشوشن الحريرُ في اليدين  
 وثغرُها المُفتَرُ باللّجين  
 لو نطقت يوماً بكلمتين  
 لانفلقت لنالي. البحرين  
 وصدرُها الراقصُ بالنهدين  
 كأثَّه قصيدة الشطرين  
 لحنُها الموجي مرّتين  
 أفديك يا .....  
 بالحسن .....

وكانت سامية سعيدة بالصورة الجديدة للأرجوزة ، والغواني - كما يقول  
 أحمد شوقي - يفرهنّ الثناء ، وكنت أقول لها :

- لم يزد مصطفى في أرجوزته إعجاباً بك ، وإنما لكي يُجوِّدَ فنّه ولكي  
 يستكمل ما منعه منه خرَجُ الضيف ، فدعينا نكمل القراءة لكي أرى ما طاح به  
 حظي .

واستأنفتُ قراءة الرسالة فوجدته يقول :  
 أقسم بالله بغير مَنين  
 لو أنّ (مولانا) أبا الحسين (أظنّ أنه الوالد)  
 رآك لانشقَّ إلى نصفين (وكان والدي رحمه الله بديناً)  
 وعبد الله على خرفين  
 مُعلّقاً في القلبِ صُورتين  
 صورتهما وصورة الـ . . . .

وترك البيت الأخير كما أثبتّه خيفة الرقابة الكويتية : فقد كان يعني - كما  
 هو واضح - صورة الخميني الذي كان قد بلغ إعجابُ الناس به يومذاك منتهاه .

وضحكتُ من رسالة مصطفى ، بل قل ، ضحكتُ وأنا مُعجَبٌ بتعديلاته ؛  
لأنَّ للشعر على النفوس حقاً وسلطاناً .

وشاعت الأرجوزة حتى أنني ما التقيتُ أحداً بعدها ممن يحب الشعر إلا  
واجهني بها وبسؤالي عن ظروفها ، وكنتُ أعجبُ من اتفاقهم جميعاً في أنه  
كتبها في خادمة كانت لي جزائرية . وإذا كان الفقيذُ يعرف كثيراً من ضيق أفق  
القرب كان ، وهو يرويها زاعماً أنَّها في خادمة لي ، لا يريد أن يقع في مظنة  
التشهير بصديقه . وكان هذا من حاقَّ خلق الفقيذ ومن إجلاله شأن إخوانه .  
ولكنه نسي مع هذا - بسبب من ضيق المجتمع ، ونفاقه - أنَّ نسبة صديقة إليَّ  
أشرف وأكرم ألف مرّة من أن أنسب إلى استخدام أحد ذكرى كان أو أنثى .

وكان في جزيرة السندباد يحضر مهرجان المريد أوائل السبعينيات ،  
وجاءته بصريّة جميلة خضراء العينين معجبة بشعره - وكانت ترتدي ثوباً أسوداً  
- تطلبُ منه أن يكتب لها شيئاً على نسختها من مجموعته الشعرية « عيناك  
واللحن القديم » فكتب أربعة أبيات :

أرسلتُ لي عيناك إذ نحن كنا	ضيفها في جزيرة السندباد
طائراً أخضر المواعيد لا أع	رفُ كيف ارتدى ثياب جداد
فتلقّفتُه بعينيّ أبني	عُثَّة بين هُدهُها والسواد
ثم فرَّ العصفور لم يُبقِ إلا	ريشة من جناحه في سهادي

كان مصطفى يحفظُ غيبَ أخيه ، فهل تراني حفظتُ غيبه فيما كتبتُ ؟  
كنتُ سأكون ممن ضيَّع غيب أخيه لو كان أبو إبراهيم أخاً فحسب ، ولكنه ملكُ  
للتاريخ ولأجيال العراقيين الذين سيحتفون بذكراه جيلاً بعد جيلٍ باعتباره واحداً  
من ألمع شعراء العرب الذين لم يبيعوا ضمائرهم في عصرٍ لم يكن فيه شيء  
أرخص من ضمير الأديب العربي .

ولكم كان الشريف الرضيّ صائباً يوم قال :



سيبكي الزمان طويلاً عليك      لقد كنت خِفَّةً روح الزمان

وكان مصطفى خِفَّةً روح الزمان فيما جَمَل به الحياة من شعره ، وفيما  
داعب به أصدقائه وإخوانه وفيما عاناه في حياة المنفى من أجل أن تكون حياة  
العراقيين أجمل ، ومن أجل أن يكون غدهم مشرقاً سعيداً جميلاً .  
كانت حياة مصطفى جمال الدين جمال الدنيا ، وليس الدين وحده .

بوزنان : ١٢ / ٢ / ١٩٩٧

# أستاذان كبيران

أبو بكر الخوارزمي

علي جواد الطاهر



# أبو بكر الخوارزمي

والأمثال المولدة،

كثيرون هم الذين أرخوا لحياة الخوارزمي من المعاصرين ، فقد أرخ له - على سبيل المثال - كارل بروكلمان في « تاريخ الأدب العربي » وجرجي زيدان في « تاريخ آداب اللغة العربية » ؛ والدكتور محمد مهدي البصير - رحمه الله - في « في الأدب العباسي » والدكتور شوقي ضيف في « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ، والدكتور مصطفى الشكعة في « بديع الزمان الهمذاني » وأرخ له سوى أولئك آخرون . ولكن أحداً ممن ذكرت لم يتجاوز في ترجمته الصورة التي رسمتها له المصادر العربية ، وهي صورة إن لم تكن غامضة فهي أقرب ما تكون إلى الغموض .

ولقد أعلم أن السيد محمود صالح الضمور قد كتب عنه رسالة ماجستير تقدم بها إلى كلية الآداب من جامعة بغداد في السبعينيات ، ولكنني لم أقرأ الرسالة في حينها ، ولم يتهياً لي الاطلاع عليها بعد ذلك الحين . والمظنون في رسالة جامعية أن تكون جلت صورته ، وأنارت الجوانب الغامضة من حياته ، ولكنني لم أطلع - كما قلت - عليها ، ولو كنت فعلت ، لربما كانت أغنتني عن البحث في حياته . مما يضطرني أن أباشر هذه الحياة بنفسني فأقول :

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ، لم يرق أحد المصادر أن يذكر

اسم جده الأدنى . ولد لأسرة فارسية في سنة ٣٢٣هـ\* . أما مكان ولادته ففيه حديثان ، أولهما ما قاله بعض من أرخوا لحياته من القدماء ، وثانيهما ما قاله هو نفسه في رسائله . فأما الذي قاله بعض مؤرخيه ، فهو أنه ولد في طبرستان ، وخصص بعضهم هذا الميلاد فقال : إنه كان في مدينة آمل من طبرستان ، ثم استشهد بما نسبته إلى الخوارزمي نفسه من قوله :

بَآمَلْ مَوْلَدِي وَبَنُو جَرِيرٍ فَأَخْوَالِي وَيَحْكِي الْمَرْءُ خَالَهُ<sup>(١)</sup>

وأما حديثه هو فشيء آخر ، إذ وجدناه يقول في رسائله عن خوارزم : إنها عشة الذي فيه درج ، وبيته الذي منه خرج ، وإنها مقطع سُرته<sup>(٢)</sup> .

والآن ، أيّ الحديثين نقبل ؟ أنقبل حديث بعض مؤرخيه مشفوعاً بشعره أم حديث رسائله ؟ ويغلب على ظني أن ما قاله عن خوارزم في رسائله من أنها مكان مولده أصدق ، وأقرب إلى الحقيقة التاريخية ، فليس قليل الدلالة أن يفتح الشعالي باب فضلاء خوارزم من «يتيمة الدهر» به ، ثم لا يكتفي بذلك ، فيشفعه بقوله : «أصله من طبرستان ، ومولده ومنشؤه خوارزم»<sup>(٣)</sup> . وقول الشعالي أصدق من سواء ، إذ ليس هو من معاصريه فحسب ، وإنما هو من مُلازميه الذين يعرفونه ، وتلاميذه الذين يُشافهونه ، سمع منه ، وأخذ عنه ، وقرأ عليه .

وتقول : ما الشأن في قوله الذي سبق : «بآمل مولدي...» ؟ فأقول : إن الذي يغلب على ظني أن البيت موضوع على أبي بكر منسوب إليه ، لا لضعف تركيبه النحوي في قوله : «... وبنو جرير فأخوالي» إذ أنه ليس من موجب لهذه

\* مما نص عليه المرحوم زكي المبارك في النشر الثاني ٢ : ٢٦٠ أنه لا يعرف سنة ولادته .

(١) معجم البلدان ١ : ٧٥ ، وينظر الوافي بالوفيات ٢ : ١٩٥ . ولم يتطرق المعاصرون السالفو الذكر إلى هذا النص .

(٢) ينظر رسائل الخوارزمي : ٢٢٩ .

(٣) اليتيمة ٤ : ٢٠٥ .

الفاء ، إلا أن تكون زينةً وإنما لشيء آخر ؛ هو أن واضع البيت لم يكن يريد أن يقرر مكان مولده ، وإنما كان يريد تقرير مذهبه ليصل من ورانه إلى تقرير مذهب محمد بن جرير الطبري ، فقد ورد بعده :

فها أنا الرافضي عن ثراثي وغيري رافضي عن كلاله

ولست أستبعد أن يكون أحد الحنابلة هو الذي نحل أبا بكر هذين البيتين ، ونسبهما إليه ، غرضه من ذلك أن يُثبت دعوى الحنابلة على الطبري أنه شيعي . أما صلة أبي بكر به ؛ فقد درجت المصادر أن تقول عنه : إنه ابن أخت الطبري صاحب التاريخ والتفسير<sup>(١)</sup> . وإذا ، فليس أبلغ في إثبات الدعوى من أن يشهد ابن أخته على صحتها ، فليس أحد أعلم من أبي بكر بمذهب خاله ؛ وذلك أنه كان للطبري « مذهب في الفقه اختاره لنفسه »<sup>(٢)</sup> ، ولم يكن الحنابلة - بوجه خاص - ليرضوا عن هذا المذهب ، حتى إنه يوم توفي - وهو ما هو علماً وتديناً - « دفن ليلاً خوفاً من العامة »<sup>(٣)</sup> . ومن هنا كان من مصلحة ذلك الحنبلي أن يضع ذينك البيتين - كما قلت - على لسان أبي بكر ، ولما لم يكن يعرف مكان ولادة أبي بكر ، فقد قاسه على مكان ميلاد خاله ، إذ أن الطبري من مواليد آمل<sup>(٤)</sup> .

وتسألني عما جعلني أظن هذا الظن فأقول ؛ إنه لو كان أبو بكر قالهما لَمَا نعت نفسه بالرافضي ؛ وذلك أن أبا بكر شيعي إمامي<sup>(٥)</sup> ، وأن الزيدية هم أول

(١) ينظر الأنساب ١٩٤١ ٥ ، ووفيات الأعيان ١٩٢١ ٤ ، وبنية الوعاة ١٢٥١ ١ ، وشذرات الذهب ١٠٥١ ٣ .  
وتابع هذا القول من المعاصرين مصطفي الشكعة في بديع الزمان ٨٢١ ، وشوقي خيف في الفن ومذاهبه في  
النشر العربي ٢٢٠١ ، وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٢ : ١١٠ ، وزيدان في تاريخ أدب اللغة العربية  
٥٨٢١ ١ .

(٢) الفهرست ٢٩١١ .

(٣) معجم الأدباء ٤٠١ ١٨ ، وينظر العمون والحدائق ٤٠١ ٤٠ - ٢٢٠ .

(٤) ينظر معجم البلدان ٥٧١ ١ ، والوفيات ١٩٢١ ٤ .

(٥) ينظر كتابه إلى جماعة الشيعة في نيسابور في رسائله ١٦٠٠ - ١٧١ .

من استحدثَ مصطلحَ الرِفْضِ يُطلقونه على خصومهم من الشيعة الإمامية ، ثم لما تقادم الزمن بالمصطلح ونُسي أصله ، صار الآخرون من أتباع الفرق الإسلامية الأخرى يَنبِزُون به الشيعة بصورة عامة . أفِيظُنُّ أحدُ - بعد ذلك - أن يَنبِزَ أبو بكر نفسه بأنه رافضيٌّ دون أن يستفزَّهُ أحدٌ أو يُناظره مُناظر ؟

هذه واحدة ، وأما الثانية فهي أنه لم يرد ذكرُ في رسائل الخوارزمي ، أو في أحد كتب تلميذه الثعالبي عن شيء من خُولة محمد بن جرير الطبري لأبي بكر ، على الرُّغم من أن مثل هذه الخُولة من شأنها أن تكون مدعاةً فخر عند أبي بكر وعند سواه ، مما يجعلني أقرر أن في نفسي شيئاً من أمر هذه الخُولة أريد أن أجُلوه فأقول :

معروفُ أن الطبري ولد سنة ٢٢٤هـ ، فإذا افترضنا أن أختَه المزعومة - التي هي أمُّ أبي بكر - تصفَرُهُ بأربعين سنة ، - وهو احتمال ضعيف جداً - فمعنى هذا أنها ولدت سنة ٢٦٤هـ ، وأنها بلغت سنَّ اليأس - وهي في الخمسين من عمرها وليس في الخامسة والأربعين - سنة ٣١٤هـ ، أي : قبل أن يولد أبو بكر بتسع سنوات ، فإذا جارينا المؤرخين في إصرارهم على أن أمُّ صاحبنا هي أختُ الطبري قلنا : إنها ولدته وعمرها تسعٌ وخمسون سنة على افتراض أنه ولدها البكر إن لم يكن عمرها ستين ، فأَيُّ عاقل يقبل هذا ؟! فإذا افترضنا أنها أختُ الطبري من أمٍّ أخرى ، وأن جرير بن يزيد - أبا الطبري - قد تزوج زواجه الأول وهو في العشرين من عمره ، ثم تزوج زواجه الآخر الذي أنجب منه أمُّ الخوارزمي ، فمعنى ذلك أنه يكون قد أنجبها وله من العمر أربعٌ وتسعون سنة - هذا إذا تزوجت وهي ابنة تسعٍ وعشرين - ، أو أنجبها وقد جاوز المائة إذا كانت قد تزوجت وهي ابنة عشرين أو تزيد قليلاً ، فأَيُّ عاقل يقبل هذا ؟!

وإذاً ، فليس من المعقول أن يستغفل الناس أبو بكر ببيتين يزعم فيهما أن الطبري خاله ، وأنه ورث التشييع عنه ، ثم يُعرض عن لفظ التشيع إلى

الرفض ، ثم لا يكون عنده أو عند تلميذه الشعالي شي من هذا أو مما هو قريب منه .

وإذا صح هذا الذي قررته ، فمعناه أنني أنفي عنه هذه الخوالة ، فلم يكن أبو بكر ابناً لأخت من أخوات محمد بن جرير الطبري .

وإذا فقد ولد في خوارزم لعائلة أصلها من طبرستان ، فكان يُلقَّب نفسه بالطبري مرة<sup>(١)</sup> ، وبالطبري الخوارزمي مرة أخرى<sup>(٢)</sup> ، وجمع له بعضهم في عصره - على ما يظهر - نسبتيْن في لقب واحد على سبيل التَّحْت فَلُقِّبَ بالطَّبْرَحَزِي<sup>(٣)</sup> . ولكن بقي الخوارزمي لقبه الأشهر الذي به يُعرف<sup>(٤)</sup> .

وينبغي لي أن أقف الآن عند نطق العرب لقبه : الخوارزمي ؛ فقد اعتاد كثيرٌ منهم أن يلفظوه بنطق الواو منه ، على حين أن خوارزم - كما يقول ياقوت في معجم البلدان ٢ : ٣٩٥ - « أوله بين الضمة والفتحة ، والألف مُسْتَرْقَّةٌ مختلِسة ، ليست بألفٍ صحيحة... » ويؤيد قول ياقوت أن قواعد اللغة الفارسية تُهمَل نطق الواو الواقعة بين الخاء والألف ، فيقال في الخوانساري : الخائنساري ، وفي الخوارزمي : الخارزمي وعلى الخاء حركةٌ بين الضمة والفتحة ، وهكذا . ومن مصاديق هذا النطق قول الخليل ابن أحمد السجزي يرد على هجاء أبي بكر إياه :

---

(١) ينظر رسائله ٤٧ : ٥٦ ، وقد وصف عقله بأنه طبري . وعلل السمعاني في الأنساب ٢١٠ : ونسبته هذه بخوالة الطبري له . وهو وهم كما رأينا . وانفرد السراج بقوله في مصارع العشاق ١ : ٩٠ إنه من طبرية الشام . وهو وهم لأن النسبة إلى طبرية طبراني .

(٢) رسائله ٦٥ : .

(٣) ينظر اليتيمة ٤ : ٢٠٤١ والوفيات ١ : ٤٠١ والوافي ٢ : ١٩١١ ، وانفرد ابن العماد في شذرات الذهب ٢ : ١٠٥ فساء : الطبرخي . وتعليل هذا اللقب فيها - ما عدا اليتيمة - أن أباء من خوارزم وأمّه من طبرستان ، ثم اضطرب عند ابن أبيك في الوافي فقال العكس . ويبدو لي أن اللقب جاء من كونه - كما قال الشعالي - طبري الأصل خوارزمي المنشأ .

(٤) ينظر اليتيمة ٤ : ٢٠٤١ .



وعارِ عوى من أهل خوارزم خيفةً كذا الكلبُ عند الخوفِ مجتهداً يعوي  
إذ أنه ينكسر وزنُ صدر البيت بنطق الواو ، ويستقيم بإهمالهما .

لا نعرف عن أسرته الفارسية التي ولد فيها شيئاً ، إذ لم يذكر مؤرخوه  
حالتها ، ولكن رسائله تدلنا على أنها كانت مُوسرة ؛ فقد خُلف له أبوه من الإرث  
« ما لو خلفه على أهل بلد لكفاهم »<sup>(١)</sup> . والمظنون بأبٍ له مثل هذا الشراء أن  
يُعنى بتأديب ابنه ، رغم أننا لا نعرف مَنْ أذبه في نيسابور ، ولكننا نعرف أنه  
كان يوم فارق وطنه - وهو حَدَث - « قوي المعرفة ، قويم الأدب »<sup>(٢)</sup> حتى إنه  
زعم - ذات مرة - أنه فارق وطنه إلى العراق مفيداً لا مستفيداً<sup>(٣)</sup> . على أن  
قريحته الشعرية قد تفتحت وهو في خوارزم<sup>(٤)</sup> لم يجاوز اليقاعة ؛ فقد تحكك  
بشاعر عصره الهجاء أبي الحسن اللحام الحراني فهجاء<sup>(٥)</sup> وهاجى أبا القاسم  
أحمد بن أبي ضرغام « أحد شعراء خوارزم المفلقين المذكورين... »<sup>(٦)</sup> .

وإذاً ، فقد كفلت له هذه الأسرة الموسرة - قيل أن تفقد يسارها<sup>(٧)</sup> - من  
التعليم ما أطمعه بالاستزادة ، فارتحل إلى العراق ، وقصد بغداد ، فتلمذ على  
« أبي علي إسماعيل بن محمد الصفّار ، وأقرانه »<sup>(٨)</sup> ، ونعرف عن أبي علي أنه  
عالمٌ بغريب اللغة ، وبالنحو ، وأنه محدثٌ ذكر له حاجي خليفة في كشف  
الظنون ١ : ٥٨٦ جزءاً من مروياته في الحديث النبوي الشريف ، ولا بد أن  
يكون صاحبنا قد سمعه منه . ولكننا لا نعرف من أقرانه إلا القاضي أبا بكر

(١) رسائله ٢٢٩١ .

(٢) البيّمة ٤ : ٢٠٤ .

(٣) ينظر رسائله ١٥٦١ .

(٤) ينظر البيّمة ٤ : ١٠٢١ .

(٥) ينظر نفسه .

(٦) ينظر السابق ٤ : ٢٥٤١ .

(٧) ينظر رسائله ٢٢٩١ وفيها ما يدل على أنه غي اقتصر في خوارزم بعد غنى .

(٨) الأناب ٥ : ١٩٤ .

أحمد بن كامل السجزي ، إذ رويت عن الخوارزمي حكاية عنه ، فقلعه اتصل به في بغداد من جملة من اتصل بهم ، فإذا صح أنه وقع هذا الاتصال أدركنا ما كان يبحث عنه صاحبنا من علم في بغداد ، فقد كان أبو بكر القاضي « من العلماء بالأحكام ، وعلوم القرآن ، والنحو ، والشعر ، وأيام الناس ، وتواريخ أصحاب الحديث »<sup>(١)</sup> . على أنه من المحتمل ألا يكون أبو بكر الخوارزمي قد عُني بالفقه ، وعلوم القرآن ، وتواريخ أصحاب الحديث عنايته بالنحو ، والشعر ، وأيام الناس . فأما النحو والشعر فقد كانا من عُدته طيلة أيام حياته ، وأما أيام الناس فحسبنا ما سرده علينا منها في هذا الكتاب أعني : « الأمثال » . ولابد أن تكون معرفة هذه الأيام تفرض عليه أن يُلَمَّ بأنساب العرب ، فبلغ من معرفته بها ما كان يُحَيِّر بعض أقرانه من العلماء<sup>(٢)</sup> ، وما جعله فيها إماماً<sup>(٣)</sup> .

ويهمني الآن أن أعرف متى ورد أبو بكر بغداد ، إذ اكتفى مؤرخو حياته أن يقولوا : إنه ورد العراق ، دون أن ينصَّ أحدٌ منهم على تاريخ ذلك ، بل إن أحداً منهم لم يذكر بغداد سوى الحاكم النيسابوري الذي لولاه لكنتُ ظننتُ أنه ورد العراق سائحاً لا طالب علم . ولقد نستعين على معرفة تاريخ رحلته بتاريخ وفاة أحد شيوخه أعني به أبا علي الصفار ، فقد توفى سنة ٣٤١هـ<sup>(٤)</sup> . فإذا كان الأمر كذلك فمعناه أن أبا بكر قد ورد بغداد قبل هذا التاريخ ، وأنه لازم الصفار مدةً أتاحت له أن « يذكر سماعه... »<sup>(٥)</sup> منه .

ويمكنني أن أتخيل أنه سمع - أثناء حياة الصفار وبعدها - من القاضي أبي

(١) تاريخ بغداد ١ : ٣٥٧ . وقد قرر الدكتور البشير - رحمه الله - في كتابه « في الأدب المباني » ٦٥ أنه لا يعرف « لسو » الحظ أحداً من أساقذته . ولم يقرر الشكوة ذلك لكنه لم يذكر أحداً من أساقذته العراقيين . ينظر بديع الزمان ٨١١-٩١ . وكذلك فعل الآخرون فلم يذكر أيُّ منهم أستاذاً من أساقذته .

(٢) ينظر قول الحاكم النيسابوري عنه في الأنساب ١٩٤ : ٥ .

(٣) ينظر الشذرات ٣ : ١٠٥ .

(٤) ينظر نزهة الألباء (ط حجرية) ٣٥٥ .

(٥) الأنساب ١٩٤ : ٥ .

بكر السجزي مدّة لا أستطيع تحديدها ، ولكنني أستطيع تخمينها بما لا يرقى إلى سنة ٢٤٦هـ ؛ فقد غادر بغداد قبل هذه السنة متّجهاً إلى حلب . وإنما نصصت على هذه السنة ؛ لأنني أعرف أنه التقى بالمتنبي في حلب ، وزاره في بيته<sup>(١)</sup> ، وأعرف أن المتنبي غادر في تلك السنة حلب متّجهاً إلى مصر يمدحُ بها كافور الإخشيديّ .

واتجه صاحبنا إلى بلاد الشام قبل سنة ٢٤٦هـ و«سكن بنواحي حلب»<sup>(٢)</sup> و«لقي سيف الدولة وخدمه...»<sup>(٣)</sup> . وكان أهم من لقاء سيف الدولة - على ما يبدو - من حيث التأثير في حياته لقاءه أركانَ حضرته من العلماء والأدباء والشعراء مثل ابن خالويه ، وأبي الحسن الشمشاطي ، وأبي الطيب المتنبي ، وأبي العباس النامي ، وسواهم<sup>(٤)</sup> . وقد أفاد من مجالسة هؤلاء ما فتق قلبه ، وشحذ فهمه ، وصقل ذهنه<sup>(٥)</sup> . وإذا كان أفاد من ابن خالويه علمه بالنحو واللغة ، فقد يكون أفاد من أبي الحسن الشمشاطي صاحب «أخبار أبي نواس...»<sup>(٦)</sup> ، ومختصر تاريخ الطبري<sup>(٧)</sup> علمه بشعر المحدثين وبالتاريخ . أما المتنبي فحسبك به جليساً وشعره معلماً . مما يبيح لنا أن نعدّ هؤلاء جميعاً في أساتذته وليس ابن خالويه وحده<sup>(٨)</sup> .

على أن أبا بكر لم يكتف بمجالسة هؤلاء ممن هم في حضرة سيف الدولة يلازمونه ، وإنما مدّ بصره إلى من هم خارج هذه الحضرة سواء أكانوا من ملازمي حضرة سيف الدولة أم لم يكونوا ، وكانت حال شعراء الشام في ذلك

(١) ينظر البيهقي ١ : ١٢٦١ .

(٢) الوفيات ٤ : ١٠١٤ ، والشذرات ٢ : ١٠٥١ .

(٣) البيهقي ١ : ٢٠٤١ .

(٤) السابق ١ : ٢٦٠ .

(٥) نفسه .

(٦) (٧) : الفهرست ١٨٢ : ٢٩٢٠ .

(٨) في معجم الأدباء ٤ : ٥٠ أن أبا بكر كان من تلامذة ابن خالويه .

عنده حال الشعراء الطارئين عليها ، فلقني ابن الكاتب الشامي الشاعر ، وأبا الفرج العجلي ، وأبا الحسين الناشئ الأصغر ، والخليع الشامي ، وأبا طالب الرقي ، وأبا الحسن علي بن أحمد التلعفري<sup>(١)</sup> ، ينشدونه أشعارهم فيحفظ ما يذوقه منها حتى بلغ به الأمر أن كان يتفرد من بين علماء نيسابور برواية أشعار بعضهم<sup>(٢)</sup> . وكان من أثر كل ذلك في نفسه أن قال بعد أن صار إلى ما هو عليه شعراً وأدباً وعلماً ، وما « بلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية ، واللطائف الحلبية التي علقت بحظي ، وامتزجت بأجزاء نفسي »<sup>(٣)</sup> .

وينبغي لنا ألا نتصور أن إقامة أبي بكر - وهو في عنفوان شبابه - في العراق والشام كانت جداً كلها ؛ فقد غشي مجالس المغنين ، واختلط بالشطّار والعيّارين ، ودخل مجتمعيهما مداخلة أهله أن يؤلف - فيما بعد - هذا الكتاب الذي قال عنه إنه « التقيط من أفواه الشطّار والعيّارين ، وجمع في مجالس المغنين والمضحكين... وسُمع أكثر ما فيه من أفواه السؤال والسابلة »<sup>(٤)</sup> .

وينبغي لنا أيضاً ألا نتصور أن أبا بكر قد حظي من المكانة في الشام بما يغريه أن يقيم فيها ، إذ لم تكن سنّه أو شعره أو أدبه مما يؤهّله لهذه المكانة ، لاسيما أن أساتذته مقيمون فيها وهم ما هم علماء وأدباء وشعراً . على أن هذا لا يعني أنه تأخر فيها ، بل كان أمره فيها حيث لا يؤخر عن رتبة يبلغها أقرانه الذين هم في مثل منزلته<sup>(٥)</sup> .

ومهما يكن من أمر ، فإن إقامته في الشام - على ما يبدو - لم تطل كثيراً أيضاً ؛ فقد فارقها وقد قاربت شخصيته الأدبية الاكتمال إن لم تكن قد

(١) ينظر البيهقي ١٢٠١ ، ١٢٢١ ، ٢٤٨١ ، ٢٨٧١ ، ٢٩٨١ ، ٣٠٠١ .

(٢) كان يتفرد برواية أشعار أبي طالب الرقي - ينظر السابق ١ : ٢٩٨٠ .

(٣) السابق ١ : ٢٦٠ .

(٤) مقدمة الأمثال ٢٠ .

(٥) ينظر رسائله ٤٢٠ .

اكتملت<sup>(١)</sup> ، إذ نحن لا نجد بعد مغادرته الشام أحداً من العلماء يمكن أن يقال عنه : إنه كان أستاذاً له ، وإنه أخذ عنه .

أما السنة التي غادر فيها الشام فنحن لا نعرفها على وجه التحديد ، ولكننا نستطيع أن نقرر أن رحلته كانت قبل حلول سنة ٢٥٢ هـ . إذ أننا نعرف أنه اتصل بوالي سجستان أبي الحسين طاهر بن محمد<sup>(٢)</sup> ، وأن طاهراً هذا كان واليها في تلك السنة بعد أن استخلفه عليها خلف بن أحمد أثناء حجّه فاستبد بها دونه<sup>(٣)</sup> .

وإذاً ، فقد غادر الشام قبل سنة ٢٥٢ هـ - كما قلت - مُيَمَّماً وجهه شطر بخارى وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره وإن يكن قد قاربها . وكان عليها يوم قصدها الأمير منصور بن نوح ، وكان وزيره - على ما يظهر - أبو علي البلعمي ، فاتصل بهذا الوزير وصحبه « فلم يَحْمَدُ صحبته »<sup>(٤)</sup> . ولا يبعد أن يكون الخوارزمي قد تأقّف من هذه الصُحبة أمام مَنْ سعى بقوله إلى البلعمي ، فخرج توقيفه بتقريع أبي بكر ولوميه ، فكتب إليه أبو بكر يُعاتبه : « ذكر الشيخ أني تنقّلتُ بعرضه المصون ، وتَمَنَّدْتُ بقدره المكنون المخزون ، وقد كنت أحسب الشيخ أَمَنَعَ على السعاة جانباً... »<sup>(٥)</sup> . فما أجدى العتاب ، بل كثرت - على ما يظهر - رقاغ البلعمي إليه بما هو أكثر من التقريع الأول حتى بدا صاحبنا حائراً لا يعرف كيف يداري ما هو فيه<sup>(٦)</sup> .

(١) ينظر البيهقي ٢٠٤١٤ .

(٢) ينظر السابق ٢٠٥١٤ .

(٣) ينظر الكامل ١٤٧-١٥ وفيه أن والي سجستان هو أبو الحسين طاهر بن الحسين ، على حين أنه في البيهقي : أبو الحسين طاهر بن محمد . وقد مات طاهر هذا سنة ٢٥٤ هـ .

(٤) البيهقي ٢٠٤١٤ . وينظر نصر بروكلمان في تاريخه ١١٠١٢ على أن البلعمي « وزير آل سامان » .

(٥) رسائله ١١٩ . و« تنقّلتُ... وتمنّدْتُ... » كناية عن الغيبة .

(٦) السابق ١٢٠١٢ .

وعلى أنه حاول أن يلاين البلعمي ، وأن يستعيد وذه ، إلا أنه لم ينجح في ذلك ، فقرر أن يفارق حضرته إلى نيسابور ، وفعل ، فلما أن وردّها كتب منها إليه كتاباً يقرّعه فيه ، ويشرح أسباب الخلاف بينهما ، فقد كان يرغب البلعمي أن يعامله صاحبه على أنه وزير ، وشاء الخوارزمي أن يعامله - وقد طالّت العشرة - على أنه نظير<sup>(١)</sup> . وينبغي لنا أن نحمل حديث أبي بكر عن طول العشرة ، وعن أنه خرج عن حدّ الشبّية في هذا الكتاب على محمل المبالغة التي من شأنها أن تثبت له حقاً على الوزير .

ولم يكتفِ أبو بكر بإثبات رأيه في الوزير البلعمي ثراً ، وإنما هجأه بشعر له<sup>(٢)</sup> ، على أنه لم يكن وحيداً في هجائه ، فقد هجأه من هو أسنُّ منه أعني اللّخام الحراني مثهما إياه في وزارته ، بأنه ،

لَمْ يَرِغْ لِلأُولِيَاءِ حُرْمَتَهُمْ      فِيهَا ، وَلَا لِلْجُوءِ وَالْكَتَبِ<sup>(٣)</sup>  
مما يوحي أن أبا بكر لم يكن بطّراً يوم فارقه ، وأنه صادق في خوفه من أن يذلَّ في حضرته .

واتصل - وهو في نيسابور - «بالأمير أبي نصر أحمد بن علي الميكالي ، واستكثر من مدحه... ونادم كثير بن أحمد»<sup>(٤)</sup> الذي هو ابن الأمير أبي نصر . وعلى أن مدته لم تطل في نيسابور - إذ فارقتها سنة ٣٥٣ إلى سجستان - إلا أنها تركت ثلاثة أشياء في حياته ، أولها أنه أحب هذه المدينة ، وأحلّها في نفسه محلّة خاصة جعلته يتخذها - فيما بعد - داراً يأمن بها على أهله وولده<sup>(٥)</sup> ، وثانيها أنه بقيت له علاقة طيبة بالأمير أبي نصر - بعد مفارقتها - يدلنا عليها أنه

(١) السابق ٤٢١-٤٤١ .

(٢) ينظر هجاؤه في البيّمة ٤ : ٢٠٤-٢٠٥ .

(٣) البيّمة ٤ : ١٠٨ .

(٤) السابق ٤ : ٢٠٥ .

(٥) ينظر رسائله ١٥٦١ .

شفّعه في اصطناع أحد الفقهاء من تلاميذه<sup>(١)</sup> ، وأنه بعث إليه بقصيدة من حبسه في سجستان<sup>(٢)</sup> ، وثالثها أنه اتخذ من كثير بن الأمير أبي نصر الميكالي نديماً وصديقاً<sup>(٣)</sup> .

وفارق نيسابور - كما قلت - سنة ٢٥٢ هـ إلى سجستان « وتمكّن من واليها أبي الحسين طاهر بن محمد وأخذ صلته »<sup>(٤)</sup> ، ولكنه انقلب على طاهر ، وهجاء لسبب لا نعلمه مما جعل طاهراً يسجنه<sup>(٥)</sup> . وعلى أننا وجدنا الثعالبي يقول : إن طاهراً « أطال سجنه »<sup>(٦)</sup> ، إلا أنه لا بد أن يكون قد خرج من السجن قبل وفاة أبي الحسين طاهر سنة ٢٥٤ هـ فانصل بعد خروجه من الحبس - بصاحب طبرستان نوح بن منصور ، وعلى أننا لا نعلم كم لزمه إلا أننا نعلم أن حاله معه لم تكن في طبرستان بأفضل منها في سجستان<sup>(٧)</sup> . ولا بد أنه فارق طبرستان قبل سنة ٢٥٦ هـ ، إذ أن نوح بن نصر قد توفي في هذه السنة<sup>(٨)</sup> .

وعاد صاحبنا مرة أخرى إلى نيسابور قبل سنة ٢٥٦ هـ ، كما قلت ، فكانت له علاقة - على ما يبدو - بمدينة كرمان وأبي علي بن إلياس ، فقد رأيناه يكتب إلى وزيره يعزّيه بوفاة ابن له<sup>(٩)</sup> . ولا بد أن يكون ذلك قد حدث - كما قلت - قبل السنة المذكورة ، لأن أبا علي بن إلياس قد فرّ من كرمان إلى

(١) ينظر السابق ١٤٩-١٤٧ .

(٢) تنظر قصيدته في اليثيمة ٢٠٥٤-٢٠٦ .

(٣) ينظر رسائله ١٦١-١٧ ، ١٥٦-١٥٧ وفي الرسالة الثانية عناب شديد ٢٥٧-٢٥٨ .

(٤) اليثيمة ٢٠٥٤ .

(٥) ينظر نفسه .

(٦) نفسه .

(٧) ينظر السابق ٢٠٦٤ .

(٨) ينظر الكامل ٧٢٠ . ولم يذكر أحد من القدماء أو المحدثين الذين ذكرت نوح بن منصور هذا . وإنما

اكتفوا بأنه صاحب طبرستان .

(٩) ينظر رسائله ٢٠٥٤-٢٠٦ .

بخارى - حاضرة ملك السامانيين - ولأن عضد الدولة استولى على كرمان سنة ٣٥٧هـ وأقطعها ولده أبا الفوارس الملقب - بعد ذلك - بشرف الدولة<sup>(١)</sup> .

وفي هذه المرحلة من حياته - وقد امتحن صحة رجال الدولة السامانية - بدأ يمدّ بصره إلى صحبة البويهيين ؛ فقد اتصل - على ما يبدو - بركن الدولة البويهي ، فرأيناه يكتب رسالة إلى حاجبه بالري مرة<sup>(٢)</sup> ، وإلى كاتبه أبي قاسم بعد عزله مرة أخرى<sup>(٣)</sup> . ثم رأيناه يرثي ركن الدولة نفسه بعد وفاته سنة ٣٦٦هـ<sup>(٤)</sup> . ولعل علي بن كامة - وهو ابن أخت ركن الدولة<sup>(٥)</sup> - هو الذي أوصله إلى خاله ؛ فقد وصفه أبو بكر - بأنه صديق شبيته<sup>(٦)</sup> .

ولعل من آثار علاقته بركن الدولة البويهي أن كانت له علاقة بوزيره أبي الفتح بن العميد فوجدناه يرثيه<sup>(٧)</sup> بعد قتله سنة ٣٦٦هـ . ولعل من آثارها أيضاً ما كتبه إلى مسكويه وقد تزوجت أمه<sup>(٨)</sup> ، فمسكويه هذا كان يخدم أبا الفضل ابن العميد وزير ركن الدولة قبل ابنه أبي الفتح<sup>(٩)</sup> .

ثم اتصل بعد وفاة ركن الدولة البويهي ، واستيلاء ابنه عضد الدولة على الملك بعده ، بالصاحب بن عباد في أصبهان ، وكان من المعقول أن يتشوف الصاحب إلى هذه الزيارة وأن يكون وراء هذا التشوف أكثر من وجه ، فمن هذه الوجوه أنه لابد أن يكون قد سمع بأبي بكر وهو في حضرة ركن الدولة ، ولابد

(١) ينظر الكامل ٧ ٢٧١-٢٨٠ .

(٢) ينظر رسائله ٩٧٠ .

(٣) ينظر السابق ١١٦٠-١١٧٠ .

(٤) تنظر قصيدته في الشيعة ٤ ٢٢٦٠-٢٢٧٠ .

(٥) ينظر تجارب الأمم ٦ ١٧٦٠ .

(٦) ينظر رسائله ٢٠٣٠ وفيها أنه ناداه وهو مقتبل الشباب ، حدث الأتارب .

(٧) تنظر قصيدته في الشيعة ٤ ٢٢٦٠-٢٢٧٠ .

(٨) ينظر رسائله ٢١٣٠-٢١٤٠ .

(٩) ينظر عن هذه الخدمة - على سبيل المثال - تجارب الأمم ٦ ٢٢٩٠ .



أن يكون أيضاً قد شعر بشيء من عدم الرضا وهو يراه على صلة بمنافسه أبي الفتح بن العميد<sup>(١)</sup> ، وأن يكون مما يسهه أن يرى شاعر منافسه في حضرته ، هذا إلى أن أبا بكر قد بلغ من الشهرة - قبل أن يقصد صاحب - ما يجعل حضرة مثل حضرة صاحب تفرح بمقدمه ؛ فقد رويت عن أبي بكر أكثر من رواية تدل على هذه الشهرة منها ما يدل على سعة حفظه . ويمكن أن نمثل على سعة الحفظ بما رواه ابن خلكان ، فقد قال : إنه لما ورد حضرة صاحب قال لأحد حجابيه : « قل للصاحب : على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول ، فدخل الحجاب وأعلمه ، فقال للصاحب ، قل له : لقد ألزمت نفسي ألا يدخل علي من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج إليه الحجاب وأعلمه بذلك ، فقال له أبو بكر : ارجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فدخل الحجاب فأعاد عليه ما قال ، فقال للصاحب : هذا يريد أن يكون أبا بكر الخوارزمي ، فأذن له في الدخول ، فدخل عليه فعرفه وانبسط له<sup>(٢)</sup> . وعلى أن هذه الرواية « ظاهرة التكلف والافتعال »<sup>(٣)</sup> إلا أن دلالتها على سعة حفظ أبي بكر تبقى قائمة ؛ فقد كان أبو بكر يحفظ في هجاء المفتنين وحدهم « ما يقارب ألف بيت »<sup>(٤)</sup> .

ومن روايات شهرته ما يدل على سعة علمه باللغة ؛ فقد قيل إنه دخل « على صاحب في أول لقائه إياه فارتفع على الحاضرين في مجلسه من العلماء والأدباء - والجماعة لا تعرفه - فتساءلوا عنه وعاظهم ما رأوا منه ، وقال أحدهم : من ذا الكلب ؟ - قولاً سمعه أبو بكر - فالتفت إليه ، وقال : الكلب من لا يعرف للكلب مائة اسم ، ويحفظ في مدحه مائة مقطوعة وفي ذمّه مثلها .

(١) ينظر في أمر هذه الصانعة التوفيات ١١١٠ ٥ .

(٢) التوفيات ١٠١٠ ٤ . وينظر الشذرات ١٠٥٠ ٣ .

(٣) في الأدب العباسي : ٥٩ . وقد سبق الدكتور زكي مبارك إلى شيء من هذا الرأي في النشر الفني ١٦٠ : ٢ .

(٤) خاص الخاص : ٦٦ .

فقال صاحب : فأنت أبو بكر الخوارزمي ، قال : نعم عبدك ، قال له : حق لك ، وقدمه وقربه <sup>(١)</sup> .

وعلى أن الرواية كأختها ظاهرة التكلف بحيث لا أرى بي حاجة إلى تفصيل هذا التكلف ، وتفصيل وجوهه إلا أن ذلك لا ينفي سعة علمه باللغة ، وحسبه من ذلك أنه كان أحد مصادر الثعلباني في « فقه اللغة » <sup>(٢)</sup> ، وأحد رواة علم ابن خالويه اللغوي <sup>(٣)</sup> .

وأريد الآن أن أحدد الزمن الذي اتصل فيه أبو بكر بالصاحب ، فأقول : إنه لا كتب التاريخ ولا كتب التراجم التي ترجمت حياة أبي بكر قد ذكرت شيئاً - شأنها في ذلك شأنها مع أحداث حياته الأخرى السابقة منها واللاحقة - ولكننا نستطيع أن نستعين على هذا التحديد بأبي حيان التوحيدي ، إذ أن أبا حيان كان قد تعرف في حضرة الصاحب على أبي بكر فروى عنه أشياء في « مثالب الوزيرين » فإذا عرفنا أن أبا حيان قد غادر الحضرة - كما يقول هو - في عام ٣٧٠هـ بعد أن أقام فيها ثلاث سنوات <sup>(٤)</sup> ، أمكننا أن نقول بيسر : إنه اتصل به في هذه المدة الواقعة بين ٣٦٧-٣٧٠هـ .

وحظي أبو بكر عند الصاحب بمكانة كبيرة ، فأعطاه وأولاه ، وقدمه وأثره <sup>(٥)</sup> ، وبلغ من المكانة عنده بحيث يكتب إليه أرجوزة يدعو فيه أن يناديه في عيد الفصح <sup>(٦)</sup> . ولا بد أن يكون من أسباب هذه الحظوة - فضلاً عن

(١) الوفيات ١ : ١٦٦ ، وينظر الأنساب ٥ : ١٩٤ ، وفيه أنه قال : « ... الكلب الذي لا يعرف عشرين لغة في الكلب ... » وأوضح كيف تضمنت رواية الأنساب في الوفيات حتى عادت بعيدة عن أصلها متنوعة .

(٢) ينظر فقه اللغة : ١٠٠ .

(٣) ينظر معجم الأدباء ٤ : ٥١٤ على سبيل التمثيل .

(٤) ينظر المثالب ٧١ : ٢٠٧ .

(٥) ينظر أنساب : ٧٧ .

(٦) ينظر البيهقي ٢ : ١٦٢ .

الأدب - أنه - أعني أبا بكر - كان « يتعصبُ لآل بويه تعصباً شديداً »<sup>(١)</sup> ، ولا يبعد أن يكون صاحبُ قد أفاد منه في معرفة أخبار السامانيين ، ومعرفة أخبار صاحب جيشهم أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور<sup>(٢)</sup> . على أن هذا لا يعني أن نصدق أبا حيان في أن صاحب قد اتخذ جاسوساً على ابن سيمجور مأجوراً ؛ فقد كانت هنالك أكثر من مصلحة مشتركة بين صاحب وأبي بكر في إضعاف شأن السامانيين ، منها ولاء أبي بكر للبويهيين وتعصبه لهم ، ومنها أن صاحب وأبا بكر شيعيان يههما القضاء على خصمهما السني ابن سيمجور<sup>(٣)</sup> . كل هذه المصالح تجعل أبا بكر يمدّ صاحب بما لديه من معلومات عن طيب خاطر دون أن يكون مكلفاً أو أجيراً ، إذ هو يمدّه بهذه المعلومات عن هوى وعقيدة ، لاسيما أن العصر عصرُ صراعٍ مذهبيٍّ حادٍ .

وبلغ صاحبُ ذروة الأريحية مع أبي بكر حين زوّده بكتاب « إلى حضرة عضد الدولة بشيراز »<sup>(٤)</sup> . ولعل صاحبُ قد خفف في هذا الكتاب من أثر رثاء أبي بكر أبا الفتح بن العميد ، فليس من المعقول ألا يترك هذا الرثاء أثراً في نفس عضد الدولة البويهية وهو الذي « كتب إلى أخيه فخر الدولة بالري يأمره بالقبض »<sup>(٥)</sup> على ابن العميد وعلى أهله . فسافر صاحبنا ومعه كتابُ ابن عباد إلى شيراز - وأبو حيان ما يزال في حضرة صاحب - فاتصل بعضد الدولة فوجد منه « قبولاً حسناً ، واستفاد منه مالاً كثيراً »<sup>(٦)</sup> . ولكن إقامته - على ما يبدو - لم تطل في حضرته ، فعاد إلى نيسابور ، واستوطنها ، واشترى بهبات عضد

(١) السابق ٤ : ٢٠٨ .

(٢) ينظر المثالب ٧٧ .

(٣) مما يدل على مذهب ابن سيمجور وتعصبه على الشيعة رسالة أبي بكر في رسائله ١٦٠ : ١٧٢ .

(٤) البتية ٤ : ٢٠٧ .

(٥) الكامل ٧ : ٨٢ .

(٦) البتية ٤ : ٢٠٧ . وفيه « واستفاد منها... » .

الدولة «ضياًعاً وعقاراً»<sup>(١)</sup> . ثم عاد مرة أخرى إلى حضرة عضد الدولة ، ويبدو أن ذلك كان قبل سنة ٢٧١هـ - «فأجرى له عند انصرافه رسماً يصل إليه في كل سنة بنيسابور مع المال الذي كان يُحمل من فارس إلى خراسان...»<sup>(٢)</sup> .

وقد قلت : إنه ورد حضرة عضد الدولة قبل سنة ٢٧١هـ ، لأنني رأيت عضد الدولة كان قد قصد في هذه السنة بلاد جرجان وطبرستان يطرد عنهما صاحبهما قابوس بن وشمكير - ممدوح أبي بكر أيام منفى قابوس - ورأيت أبا بكر في خراسان يكتب إلى صاحب بن عباد - وكان على ما يبدو في حملة عضد الدولة - كتاباً يعرض فيه نفسه مُجاملةً للقتال مع صاحب<sup>(٣)</sup> ، ولأن عضد الدولة مات بعد هذه الحملة في سنة ٢٧٢هـ . أما لماذا لم يكتب إلى عضد الدولة نفسه ؟ فلعلّ الخلطة لم تبلغ بينهما - وذلك أمر طبيعي - ما بلغته بينه وبين صاحب .

وفي هذه المرحلة من حياته - بعد إذ أغناه عضد الدولة - تفرغ للتدريس تفرغاً لم يكن من الغريب معه أن يستخلف أحد العلماء الذين يشق بهم على درسه إذا غاب ، فقد استخلف ذات مرة أستاذ الواحدي ، أبا الفضل العروسي<sup>(٤)</sup> . على أن هذا التفرغ لم يكن ليمنعه من الإنصراف إلى شؤون حياته الخاصة ، وإلى لهوه ، فكان يقضي «أيامه بين مجالس الدرس ومجالس الأنس»<sup>(٥)</sup> .

وإذ توفي عضد الدولة بقيت علاقته بآل بويه وثيقة فقد رأيناه في سنة ٢٧٣هـ يرثي مؤيد الدولة ويهنيء فخر الدولة الذي ولي الملك بمشورة صاحب بن عباد<sup>(٦)</sup> بعد مؤيد الدولة .

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) ينظر رسائله ٧٥١-٧٧ .

(٤) ينظر مجموع الأدباء ٥٠٩٩ . وأبو الفضل من العلماء باللغة . توفي سنة ١١١هـ أو بعدها ومن كتبه : المستدرك على ابن جني فيما شرحه من شعر المتنبي . ينظر رائد الدراسة عن المتنبي ٦٥٠-٦٦ .

(٥) اليتيمة ٢٠٨١٤ .

(٦) ينظر الكامل ١١٧٠٧ .

وكما بقيت علاقته بآل بويه وثيقة بقيت بالصاحب أيضاً ، فقد بلغت هذه العلاقة بينهما من القوة بحيث رأينا نائبَ الصاحب نفسه يكتب إلى أبي بكر يستشفعه عند الصاحب<sup>(١)</sup> ، وبحيث رأيناه يشفع لرجل أمي عند الصاحب أن يكون على سوق الطعام<sup>(٢)</sup> - وهو منصب له علاقة على ما يبدو بالحسبة - فيشفّعه ، ولعلّ هذه العلاقة هي التي جعلت أبا بكر يتحامل على المتنبّي - فيما بعد - إرضاءً للصاحب .

على أن هذه العلاقة المتينة بآل بويه ووزيرهم الصاحب لم تكن لثُرسي ولاة الأمر من السامانيين في نيسابور ، فكانوا يصّبون على أبي بكر ألواناً من المضايقات من شأنها أن تؤثر في نفس مرفهة مثل نفسه ، كأن يُعامل مُعاملة العامة في مطالبته بأداء الخراج عن ضياعه<sup>(٣)</sup> مرة ، وأن يُشعر بكساد أدبه مرة أخرى<sup>(٤)</sup> ، إلى ما هنالك من ألوان المضايقات التي لم نستطع معرفتها ، وإن كنا نستطيع أن نتصورها .

وكان يزيد من موقف أبي بكر سوءاً أنه كان من اعتداده بنفسه ، وبمنزلته ، وأدبه بحيث « كان يُطلق لسانه بما لا يقدر عليه »<sup>(٥)</sup> ، وأنه لم يكن لبقِ الخطاب فيما يُحب أن يكون له من أموره ، ولم يكن يترفع عن الصفائر ترفعاً يجعلنا نحس أنه كان يعرف ما يُراد به فيعرض عنه ، وإلا فإنه لا يتوقع أحداً أن يكتب - وهو في مثل هذه المكانة الحرجة - إلى صاحب ديوان الخراج واصفاً مطالبته بإياه بأداء الخراج عن ضياعه بأنها خزاية وليست جباية ، وبما هو أكثر من ذلك<sup>(٦)</sup> .

(١) ينظر رسائله ٢٢١-٢٢٤ .

(٢) ينظر السابق ٥٢١-٥٤١ .

(٣) ينظر السابق ٢٤١ ، ٢٥١ ، ٢٦١ .

(٤) ينظر السابق ٨٤١ ، ٩١ ، ١٠٩١ ، ١١٢ ، ١١٣ .

(٥) البيتة ٤ : ٢٠٨١ .

(٦) ينظر رسائله ٢٥٠ .

وزاد من تمرد أبي بكر أن هؤلاء السامانيين - وهم أميرُ طفلٍ وليّ خراسان وعمره ثلاث عشرة سنة ووزير مستبدٌ هو أبو الحسين العتبي يُصَرِّفُ أمورَ الولاية على هواه ، وصاحب جيش هو ابن سيمجور يتمرد على الأمير والوزير معاً<sup>(١)</sup> - زاد من تمرده وإبائه أنهم كانوا يريدون منه أن ينقطع إليهم دون سواهم من البويهيين ، ولعلمهم أحسنوا بما سَرَبَ من أخبارهم إلى صاحب ، ولكن إرادتهم في الانقطاع إليهم كانت بالترهيب لا بالترغيب ، وبالإغاثات ، لا بالتوسعة ، مما اضطره أن يكتب إلى أبي الفرج نائب وزير نيسابور - بعد أن عرض عليه انقطاعه إلى السامانيين - : « فهمتُ ما ذكر الشيخ في كتابه... ذكر الشيخ أنني لو اقتصرْتُ على خدمة الأمير ، وعلى مناداة الوزير لمالت الصروفُ عن جانبي ناكبةً ، وولت الخطوبُ عني هاربة... مثلي أيد الله تعالى الشيخ لا يُحمل على الخدمة بالتقريع والتثريب ، ولا بالتهديد والترهيب... وإنما يُحبسُ مثلي بالرغبة ، ويُقيّد بقيد من الذهب والفضة ، ويُرضى منه بالحياة والوفاء كفيلين... »<sup>(٢)</sup> . وفي ظل تعنت السامانيين ورفض أبي بكر لم يكن من المستغرب أن يلقي أبو الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور بصاحبنا في الحبس بعد زيارته عضد الدولة ، مدة لا نعرف أمدّها ، ولكن أحداث التاريخ تقتضي أن يكون قد خرج من الحبس قبل شهر جمادى الأولى من سنة ٢٧١هـ فقد رأيناه في هذا الشهر هارباً إلى الريّ طليقاً يكتب إلى صاحب - كما أسلفت - كتاباً يعرض عليه أن يقاتل معه على سبيل المجاملة ، ويكتب إلى صديقه كثير بن أحمد الميكالي ، وإلى صديقه الآخر أبي محمد العلوي ، وإلى سوى هذين الصديقين<sup>(٣)</sup> .

و شاء الوزير أبو الحسين العتبي - إزاء تمرد محمد بن إبراهيم - أن يعزله

(١) ينظر الكامل ٧: ١٠٧-١٠٨ .

(٢) رسائله : ١٥١-١٥٥ .

(٣) ينظر السابق ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٢٢ ، ١٢٥-١٢٥ .

عن قيادة الجيش ، وأن يولي مكانه أبا العباس حُسام الدولة المعروف بتاش الحاجب ، وكان من المقدّر لأبي بكر أن يتنفس الصعداء بعد عزل خصمه الذي حبسه ، ولكن ولاءه للبويهيين ولعضد الدولة منهم بوجه خاص حال دون ذلك .

وأريد أن أفصّل ما أجملتُ فأقول : إن قابوس بن وشمكير ، وقد طرده عضد الدولة - كما ذكرت - من جرجان وطبرستان كان لجأ إلى الأمير نوح بن منصور فأمدّه بجيش يستعيد به مُلكه ، وكان ذلك الجيش بقيادة تاش الحاجب ، ولكن الجيش انهزم فانقلب إلى نيسابور ، وبقيت جرجان وطبرستان تحت نفوذ عضد الدولة البويهى . وبهزيمة تاش اجتمعت على أبي بكر فرحتان هما : انتصارُ وليّ نعمته عضد الدولة ، وهزيمة الوزير الغُتبي ، فأطلق لسانه شامتاً بالوزير وصاحب جيشه الجديد .

واستغلّ حُسادُ أبي بكر وخصومُه المناخَ النفسى السائد فوضعوا على لسان أبي بكر شعراً يشمتُ فيه بالوزير ، وسعوا به إليه ، فأمر صاحب الجيش تاش بقطع لسان الخوارزمي وبمصادرته ، وكتب بذلك إلى أبي المظفر الرُعيني « فتولّى حبسه وتقيده ، وأخذ خطّه بمائتي ألف درهم ، واستخرج بعض المال ، وأذن له في الرجوع إلى منزله مع الموكّلين به ليحمل الباقي ، فاحتال عليهم يوماً وشغلهم بالطعام والشراب ، وهرب متنكراً إلى حضرة الصاحب بجرجان »<sup>(١)</sup> .

وورد عليه في هرويه كتابُ من صديقه القديم ، ونديم لياليه ، كثير بن أبي نصر أحمد الميكاليّ يعرض عليه فيه أن يعود إلى داره بعد أن « تلطّف بالأمر حتى سلّ منه السُخيمة ، وحمله على أن اغتفر الجريمة »<sup>(٢)</sup> . ولكن أبا بكر رفض - كما هو منتظر منه - العرض ، ورأى فيه مكيدة قُصارها أن تعود به إلى ما كان عليه .

(١) البيهقي ٢٠٨ : ٤ . ويرد انقبى في ابن الأثير على : أبي الحسين ، وفي البيهقي على : أبي الحسن .

(٢) رسائله ١٥٦١ .

ومكث أبو بكر في حضرة صاحب يحدد عهدَه القديم بصاحبه ، ولكن هذا المكث لم يكن طويلاً ، ولعله لم يبلغ السنة ، فقد قُتل خصمه الوزير أبو الحسين المُتبي ، وقام مقامه أبو الحسين المُزني وزيراً « وكان من أشد الناس حباً للخوارزمي ، فاستدعاه وأكرم مورده ومصدره ، وكتب إلى نيسابور في رد ما أخذ منه عليه ، ففعل ، وزادت حاله »<sup>(١)</sup> .

وعاد صاحبنا إلى داره في نيسابور ، وإلى نسق حياته فيها قبل نكبته حتى بلغ عددُ تلاميذه في هذه المرحلة شيئاً كثيراً<sup>(٢)</sup> . وكان ذلك في سنة ٣٧٢هـ<sup>(٣)</sup> .

ولكن عقارب الخصومة السياسية لم تكن لتهدأ - كما يبدو - وما كان لها أن تهدأ ؛ لأن دواعيها مازالت قائمة ، إذ هي لم تكن قائمة على حزازة شخصية تموت بموت صاحبها أو بهلاك أصحابها ، ولم يكن من المقدّر أن تسلك مثل هذه الخصومة طريقاً مباشراً واضحاً إليه بعد إذ بسط عليه الوزير المزني ظله ، فكان أن دُبِّرَتْ له مكيدهُ المناظرة بينه وبين بديع الزمان الهمداني عسى أن يخمل ذكره ، « وأعان الهمداني... عليه قومٌ من الوجوه كانوا مستوحشين منه جداً »<sup>(٤)</sup> ؟ .

وينبغي لي أن أفيض في أمر هذه المناظرة ووجوه الكيد لأبي بكر فيها ، فأقول :

إنه ورد على نيسابور بديع الزمان الهمداني ، وكان قد سلب في الطريق إليها ، فكتب رقعةً إلى أبي بكر فاستقبله في داره استقبالاً لم يرض عنه بديع الزمان ، فقد كان يريد من أبي بكر أن يقوم له عن مجلسه قياماً تاماً ، وكان أبو

(١) الشيعة ٤ : ٢٠٨١ .

(٢) ينظر معجم الأدباء ١٠١٠-١٠١١ وكشف المعاني ٤٠٠ .

(٣) ينظر الكامل ٧ : ١٠٩٠ .

(٤) الشيعة ٤ : ٢٠٨١-٢٠٩٠ ومعجم الأدباء ١ : ١٠٦١ .



بكر يرى أنه قد أَجَلَّهُ بما فيه الكفاية ، ولم يرفع عليه في المجلس أحداً سوى رجل من ذرية رسول الله ( ﷺ ) ، مما جعل في نفس بديع الزمان - وهو لم يخلُ من سكر الشباب بعد - شيئاً أقرب ما يكون إلى الاعتقاد بأنه لم يوفَّ حقّه .

ويلفت النظر في هذه المسألة برمتها أن بديع الزمان وهو ابن أربع وعشرين سنة يوم جاء إلى نيسابور سنة ٢٨٢ هـ يريد من أبي بكر أن يوفيه فضله ثم ينسى أن لأبي بكر من الفضل والسن ما يجعلان استقبال أبي بكر إياه في داره على غير معرفة سابقة تشریفاً . وإلا فمن هو بديع الزمان - يومذاك - إزاء مكانة أبي بكر وفضله ؟

تُرى أكان بديع الزمان يجهل هذا الأمر ، أم أن هنالك جماعة من خصوم أبي بكر في نيسابور يستغلون حداثة بديع الزمان وإعجابه الزائد بنفسه فيدفعون به إلى حيث يريدون ؟ أما بديع الزمان - وهو يكاد يكون المصدر الوحيد في رواية ما وقع له مع أبي بكر - فيعترف بأن طائفة من الناس كانت تسعى إليه بما يتفوّه به أبو بكر ، وبلغ البديع من تصديق ما يُنقل إليه أن كتب إلى أبي بكر رقعة يتهمة فيها بالتحالي عليه ، وبلغ أبو بكر - على ما يبدو - من الضيق بهذه المسألة الطارئة ، وربما من العلم بما يراد لها أن تصل إليه بحيث قال : « لو أن بهذا البلد رجلاً تأخذه أريحية الكرم... يجمع... »<sup>(١)</sup> بينه وبين البديع ، فتلقّف خصوم قوله يوجهونه الوجهة التي يرضونها . ونشط من بينهم أبو الطيب سهل الصعلوكي فجمع بين أبي بكر والبديع في داره ، وحاول البديع أن يجرّ أبا بكر إلى شيء مما يمكن أن يسمى مناظرة فلم يستطع ، وظل البديع ينتظر أن يُنجِد هو وأبو بكر - كما يقول - في الفضل ويُفَوّر ، فكان انتظاره سراباً<sup>(٢)</sup> .

(١) كشف المعاني ٢٦٠ .

(٢) السابق ٢٧٠ .

ولعل ما جعل أبا بكر يُحجم عن مفاوضة البديع علمه بما ينطوي عليه صدر أبي الطيّب إزاءه . أما لماذا حضر داره ، واستجاب إلى دعوته ، فلعل ذلك كان ضرباً من مجاملته ، وسعيّاً إلى التخلص من مشكلة البديع الطارئة على أي وجه يكون ميسوراً .

وهكذا أخفقت المحاولة الأولى في جرّ أبي بكر إلى حلبة البديع ، فانعقد العزم على محاولة ثانية لا يرتاب بها كثيراً . وأيّ ريبة في مجلس يعقده نقيب العلويين بنيسابور أبو عليّ للفناء ، ويكون من خُصّاره البديع ، ثم يدعى إليه أبو بكر ؟ وكوتب أبو بكر بالحضور فاعتذر . فما كان من أهل المجلس إلا أن يخرجوا أبا بكر فيبعثوا إليه بمركوب يجيء به إليهم ، فدخل وهو يتحدث عن سباق وعن حيالة<sup>(١)</sup> وكأنه يعلم بما يراد به ، ولكنه يريد أن ينأى بنفسه عنه .

والحق أن حديث أبا بكر عن الفخ الذي نصب له حديثاً أقرب إلى الحكمة ، فإنه وُضع بين حالين لا تُشرّف أية منهما ، الأولى أن يناظر البديع وأن يغلبه ، ولكن أيّ فضل لأبي بكر في هذا والبديع شاب في أول الطريق ؟ والثانية أن يغلبه البديع ، ولكن أيّ حرج سيلحق به بعد هذا وهو إمام عصره علماً وأدباً ؟ إن مجرد رضاه أن يجلس من البديع مجلس المناظر فيه غضٌّ من قيمته ، واعترافٌ بمكانة البديع ، ولكن الحيالة كانت قد أعدت بإحكام .

وراح البديع يلح على أبي بكر ، وأبو بكر يتحاماه حتى أذعن آخر الأمر ، وما كان له إلا أن يذعن وإلا فُسّر تحاميه بالعجز . ولا أريد أن أصدق ما نقله البديع مما دار في هذا المجلس من أنه أشعر من أبي بكر ، وأعلم باللغة منه وما إلى ذلك مما ساقه ، ولكنني أريد أن أقول إنه كان قد أعدّ لنهاية المجلس أن يحكم « بعضُ القوم... بغلبة البديع ، وبعضهم يحكم بغلبة الخوارزمي »<sup>(٢)</sup> .

(١) ينظر السابق ٢٨٠-٢٩٠ .

(٢) هذه رواية البيهقي في وُشاح الدمية نقلها ياقوت في معجم الأدباء ١٠٣١١ . على أن البيهقي - كما يبدو - اعتمد فيما اعتمد رواية البديع .

ونهايةً مثل هذه من شأنها أن ترغم صاحبنا على حضور مجلس مناظرة آخر أو يقرّ بالعجز ، « وكان بعض الرؤساء مستوحشاً من الخوارزمي ، وهياً مجتمعاً في دار الشيخ أبي القاسم الوزير ، وحضر أبو الطيب سهل الصعلوكي والسيد أبو الحسين العالم ، فاستمال البديع قلب السيد أبي الحسين بقصيدة قالها في... أهل البيت ، ثم حضر المجلس القاضي أبو عمر البسطامي ، وأبو القاسم بن حبيب والقاضي أبو الهيثم والشيخ أبو نصر بن المرزبان و... أبو نصر الماسرجسي... »<sup>(١)</sup> .

وكان قد أعدّ لهذا المجلس أن يحكم أبو الطيب والبسطامي وصاحب الدار أبو القاسم المستوفي الوزير بغلبة البديع<sup>(٢)</sup> .

وأقول : إنه أعدّ للمجلس هذه النهاية لا للدفاع عن أبي بكر ؛ ولكن لأنني قرأت ما كتبه البديع نفسه عنها ، وما أثبتته من كلامه وكلام أبي بكر ، فلم أجد فيه شيئاً ينتهي إلى هذا الحكم . اللهم إلا أن يكون المنصفون من حضار المجلس قد اشترت ذممهم من قبل كما اشترت ذمة أبي الحسين العالم بمديح أهل البيت ، فقد زلّ قلم البديع فقال عن حال أبي الحسين بعد سماعه القصيدة ، قبل حضور الخوارزمي ، إنه « انحلت له العقدة ، وصار سليماً ، يوسّعنا حلماً »<sup>(٣)</sup> . وأقول اشترت ذممهم ؛ لأنني لا أستطيع أن أصدق - وقد قرأت شيئاً من شعر أبي بكر - أن قائله - أعني الخوارزمي - قال في المجلس « تسعة أبيات... جمع فيها بين إقواء وإكفاء ، وإخطاء وإيطاء »<sup>(٤)</sup> . أما ما أثبتته البديع من نشره في الدينار والدرهم فهو يمكن أن يدخل في عزائم السخرة ، ورقى

(١) السابق ١٠٤١١ .

(٢) ينظر معجم الأدباء ١٠٥١١ ، وكشف المعاني ٦٦١ ، ٦٤٠ ، وينظر رأي الشمالي بالمناظرة في اليتيمة ٤ : ٢٥٧ .

(٣) كشف المعاني ٦٦١ .

(٤) السابق ٧٢١ .

العقارب ، ولكنه لا يمكن أن يكون له أدنى صلة بالفن والنثر الفني ، إذ هو من قبيل قوله ، وقد أثبتته - كما قلت - بنفسه : « الله شاء إن المحاضر . صدور بها وتُملاء المناير . ظهور لها وتُفرغ الدفاتر . وجوه بها وتُمشَق المحابر... »<sup>(١)</sup> . فهل يُعقل أن يكون البديع قد غلب أبا بكر بمثل هذا ؟

أما إذا لم تُشترَ ذممهم ، فإنهم كانوا من انعدام الحصن النقدي في تقويم النثر بمهوى سحيق .

ولم يكن لمثل هذه الحال أن تسرَّ أبا بكر حتى ولو حُكِم له بالغلبة ، فأنف - كما هي طبيعة الأمور - منها « وانخزل انخزالاً شديداً ، وكسف باله ، وانخفض طرْفُه ، ولم يخل عليه الحول حتى خانه عمره ، ونفذ قضاء الله تعالى فيه ، وذلك في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة... »<sup>(٢)</sup> في نيسابور .

ولم يكتف البديع بوفاته ، ولا من هم وراءه ، فرثاه « بأبيات دس فيها سعاية ثانية »<sup>(٣)</sup> أما هذه السعاية فهي - كما تُستشفُّ من الأبيات - تحريض أولي الأمر في نيسابور على مصادرة ما خلفه أبو بكر لابنه من أرث :

تَحَمَّلْتُ فَيْكَ مِنَ الْحَزَنِ مَا تَحَمَّلَهُ ابْنُكَ مِنْ صَامِتٍ<sup>(١)</sup>

وهكذا طُويت صفحة حياة أبي بكر - عليه رحمة الله - بمؤامرة من خصومه وهو ابن ستين سنة أو يكاد نفذها لهم بديع الزمان الهمذاني ، وواصلها بعد وفاته ، وهو - بزعمه - يرثيه .

(١) نفسه ٧٨٠ وينبغي ألا يُنْهَمَ حكيم على نثر البديع مطلقاً ، ولا على قراءة القطعة بوجهين .

(٢) اليشمة ٢٠٩١ : ٤ ، وفي الأنساب ١٩٥١ : ٥ أن وفاته كانت « للنصف من شهر رمضان » من العام . وتابع ابن العماد في الشذرات ١٠٦١ : ٣ رواية الأنساب . واضطرب ابن الأثير فجعل وفاته في ١٦٢٠ : ٧ سنة ٣٨٢ ثم عاد في ٢٢١٠ : ٧ فجعلها سنة ٣٩٢ هـ وهو وهم منه . وكذلك وهم ابن نظيف الحموي حين جعل وفاته في التاريخ المتصور ٧٠٠ : ٢ سنة ٤٠٢ .

(٣) اليشمة ٢٠٩١ : ٤ .

(١) نفسه . وفي مجمع الأدباء ١١٦١ : ١ أرجوزة للبديع يهجو بها أبا بكر ويتهم فيها ابنه علياً بعملة البغاء . ويهمننا من هذا أنه يوم مات كان له ولداً اسمه علي .

والآن وقد عرفنا حياة أبي بكر - وهي حياة مضطربة تعاورتها السجون والأسفار - نقول : إنه لا اضطرابٌ حياته ولا مجالسٌ أنسه منعاً من أن يكون أستاذاً ملء السمع والبصر يفد عليه تلاميذه من نيسابور ومن خارج نيسابور<sup>(١)</sup> ، فكان له منهم كثرةٌ كاثرةٌ لم يبق لنا من أسمائهم إلا ما لا يكاد يُذكر ، فمن تلاميذه :

أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩هـ : فقد رأينا في مقدمة « ققه اللغة » وفي اليتيمة وفي سواهما من كتبه ما يدلّ دلالة واضحة على هذه التلمذة ، فضلاً عن نص ابن الأنباري عليها .

وأبو المظفر الهروي - واسمه : محمد بن آدم بن كمال - وقد آلف من الكتب : شرح الحماسة ، وشرح إصلاح المنطق لابن السكّيت ، وشرح أمثال أبي عبيد ، وشرح ديوان أبي الطيب المتنبّي . وكانت وفاته سنة ٤١٤هـ<sup>(٢)</sup> .

وأبو نصر أحمد بن علي بن أبي بكر الزوزني ، فقد ورد نيسابور ، وتلمذ له ، ثم صار من شعراء عضد الدولة ، ومات وهو شاب<sup>(٣)</sup> .

وأبو الفتح النحوي اللغوي ، واسمه محمد بن أحمد بن أشرس ، وهو فاضلٌ أديب ، شاعرٌ من أهل نيسابور<sup>(٤)</sup> .

وآخر سمّاه أبو بكر - في رسائله - أحمد بن علي<sup>(٥)</sup> ، ولا نعرف عنه أكثر من اسمه .

على أن في رسائله من الكتب التي خاطب بها تلاميذه أو التي أجاب بها

(١) ينظر رسائله ١١٤ : ١ ، واليتيمة ٤ : ٤٤٦ ، وفيهما حديث عن تلميذين من خارج نيسابور .

(٢) ينظر معجم الأدباء ٦ : ٢٦٧ ، وشرحه أمثال أبي عبيد مما فات زلهايم ، فأطروحت عن شروح أمثال أبي عبيد ولم يشبه إليه .

(٣) ينظر اليتيمة ٤ : ٤٤٦-٤٤٧ .

(٤) ينظر المعجم ٦ : ٢٢٦ .

(٥) ينظر رسائله ١٤٩ .

عن كتبهم الواردة إليه ما جعل الدكتور شوقي ضيف يتوهم أن هنالك منصباً لتخريج التلاميذ في نيسابور كان يتولاه أبو بكر<sup>(١)</sup> .

هذا ما كان من أمره أستاذاً ، أما ما كان من أمره مؤلفاً فقد اتفق الذين ترجموا له من القدماء والمحدثين على كتابين له هما : ديوان رسائله وديوان شعره ، رغم أن البديع الهمداني قد اعترف له بالنحو « واللغة... والعروض... والأمثال... »<sup>(٢)</sup> .

وإذاً ، فإن المذكور في كتب التراجم من كتبه كتابان هما :

- ديوان رسائله<sup>(٣)</sup> ، وقد طبع باسم « رسائل المخزومي » في كوبرلي سنة ١٢٧٤ هـ ، وفي بولاق سنة ١٢٧٩ هـ ، وفي استانبول ١٢٩٧ ؛ وفي بومباي سنة ١٣٠١ هـ = ١٨٩١ م<sup>(٤)</sup> . ثم طبعت هذه الرسائل باسم « رسائل أبي بكر الخوارزمي » في دار مكتبة الحياة ببيروت سنة ١٩٧٠ م وهي طبعة ملأى بالأخطاء المطبعية . على أن رسائل الخوارزمي لم تُحَقِّق في أي من هذه الطبعات رغم وفرة نسخها المخطوطة .

- ديوان شعره - وقد سماه حاجي خليفة : « ديوان أبي بكر الخوارزمي »<sup>(٥)</sup> . وألَمَحَ جرجي زيدان إلى ضياع هذا الديوان<sup>(٦)</sup> ، على حين اضطرب كارل بروكلمان في أمره فقال : « ... لم يبق لنا من شعر الخوارزمي إلا نماذج رواها صاحب اليتيمة »<sup>(٧)</sup> ثم قال بعد ستة عشر سطرًا : إن ديوانه قد

(١) ينظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ٢٢٢ .

(٢) كشف المغانبي ٦٧ .

(٣) ينظر كشف الظنون ١ : ٧٧٠ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ٢ : ١١١١ ، وينظر تاريخ أداب اللغة العربية ١ : ٥٨٢ .

(٥) الكشف ١ : ٧٧٠ .

(٦) ينظر تاريخ أداب اللغة ١ : ٥٨٢ .

(٧) تاريخ الأدب ٢ : ١١١١ .

« ... طبع في القاهرة ١٩٠٣ »<sup>(١)</sup> . ولم يُقدّر لي أن أرى هذا الديوان مما يجعلني أحجم عن تقرير شيء في أمره . وأما الكتب الأخرى فهي :

- الرسائل القديمة - ذكرها الثعالبي فقال : « وقرأتُ فصلاً للخوارزمي من رسائله القديمة ، لو كنا نعملُ على قدرِ النية لحملنا إليك خراجَ فارس ، وعُشر الأهواز... »<sup>(٢)</sup> ، ولعل من هذه الرسائل القديمة الفصل الذي كتبه « في ذكر إلامولولا »<sup>(٣)</sup> . ويغلب على الظن أن هذه الرسائل هي التي كتبها في صدر شبابه ، وأنها لم تصل إلينا .

- شرح ديوان المتنبي ، وقد ذكره الشيخ يوسف البديعي في حديثه عن شروح ديوان المتنبي<sup>(٤)</sup> ، ولم يتنبّه الأستاذ كوركيس عواد إليه في « راند الدراسة عن المتنبي » . على أن هذا الشرح لا يُعرف مصيره ، لأن هنالك شروحات كثيرة مخطوطة لديوان المتنبي لا يُعرف شارحوها قلعل شرحه أن يكون أحدها . أو لعله من الكتب الضائعة .

- أمالي الخوارزمي ، فقد قال الميداني وهو يفسر : « لا أقعل كذا ما غبا غُبيس » : « ... ورأيتُ في أمالي الخوارزمي أن معنى غبا : أظلم ، والغُبيس : من أسماء الليل »<sup>(٥)</sup> قلعل الخوارزمي المذكور هو أبو بكر فقد رأينا أنه كان عالماً باللغة وأن مثل هذه الأمالي اللغوية مما يليق باهتماماته وبدرسه التي يتلقاها عنه تلاميذه ، هذا إلى أن صاحبنا من مصادر الميداني كما سيتضح .

- الأمثال - وقد ذكره أبو الحسن البيهقي في كتابه « غرر الأمثال » ، فقَالَ عند ذكره أبا بكر الخوارزمي : « إنه آلف كتاباً في الأمثال

(١) نفسه .

(٢) ثمار القلوب ٨٢٠ .

(٣) اليتيمة ٢٠١٤ .

(٤) الصبح المنبي ٢٦٨٠ .

(٥) مجمع الأمثال ٢٣٩١ .

المولدة»<sup>(١)</sup> ، وذكره الشهاب الخفاجي في «شفاء الغليل» مرتين ، الأولى حين تحدث عن «الزَّرَاق» فقال : «... قاله أبو بكر الخوارزمي في أمثاله»<sup>(٢)</sup> ، والثانية وهو يتحدث عن قولهم : «يدهن من قارورة فارغة» فقال مثل قوله الأول<sup>(٣)</sup> . ثم ذكره من المعاصرين المستشرق الألماني رودلف زلهاييم ، ولكنه كان يعتقد أنه ضائع<sup>(٤)</sup> على الرغم من أن نسخته المخطوطة محفوظة في استانبول ، وأنه كان اطلع «على مجموعة من مخطوطات الأمثال»<sup>(٥)</sup> أثناء زيارته لاستانبول في سبتمبر (أيلول) من عام ١٩٥١ م . والأمثال هو هذا الكتاب الذي أريد أن أذكره عنه .

هذا ما استطعت جمعه من أسماء مؤلفات أبي بكر ، ولعل له مؤلفات أخرى لم أوفق إلى العثور على أسمائها ، وبحسبي من ذلك أنني استدركت أربعة كتب على كتابيه ، لم يذكرها أحد ممن اطلعت على ترجمتهم له .

وينبغي لي أن أتحدث عن أهمية هذا الكتاب فأقول : لعل هذا الكتاب هو أول كتاب انعقد برمته على أمثال المولدين لم يسبقه إليه أحد ؛ إذ أن جميع الكتب التي تحدث عنها زلهاييم ، والتي تناولت أمثال المولدين متأخرة عنه<sup>(٦)</sup> . أما الكتب التي سبقته فهي في الأمثال العربية الفصيحة . ولقد بلغ الاعتداد بأبي هلال العسكري - معاصر الخوارزمي - لدى جمعه هذه الأمثال أن عاب حمزة بن الحسن الأصبهاني المتوفي في حدود ٣٥٠ هـ بما تسرّب إلى كتابه «الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة» من أمثال المولدين حتى صارت «العلماء تُلْفِيه ، وتُسْقِطه وتغنيه»<sup>(٧)</sup> .

(١) الأمثال العربية القديمة : ٢٦٦ .

(٢) شفاء الغليل : ١٠٢١ .

(٣) السابق : ٢٦٦٠ .

(٤) ينظر قائمة كتب الأمثال في الأمثال العربية : ٢٢٤١ .

(٥) السابق : ١١٠ .

(٦) ينظر السابق : ٢٠٥-٢٠٧ .

(٧) جمهرة الأمثال : ١١٠ .



وإذا كان مصدر أبي بكر في هذا الكتاب ما كانت قد وعته حافظته أثناء إقامته - وهو شاب - في العراق والشام ، وما يمكن أن يكون قد دونه ، فإن الذي يفلب على الظن أنه آلفه على دُفَعَات يبتعد بعضها عن بعض شيئاً ما ، وآية ذلك ما نراه من تكرار طائفة من هذه الأمثال ، فقد تكرر في الكتاب ثمانون مثلاً تزيد وتنقص .

ومن آيات ذلك اضطرابُ منهج الكتاب شيئاً ما . وأول ما يلاحظ ذلك على تبويب الكتاب ؛ فهو يبوّه على أساس الموضوعات كما في بابي « ما يجري مجرى العظة... » و « ... المواعظ والأمثال » ، وكما في « ... الشتم للرجل... » و « ... مدح الرجل... » ، ولكنه يخرج عن هذا الأساس إلى أساس آخر بلاغي في « تفاريق المجون والتشبيه » و « ... تناول المولدين واستعاراتهم » وفي « ... الهزل في الاستعارة » و « ... التشبيه في كَأَن وكَأَنما » ، ثم يُعرض عن الأساسين معاً إلى آخر هو البيئة كما في « ... أمثال السّؤال » و « ... الأمثال التي تفرّد بها أهل بغداد » .

وترتب على هذا شيء آخر يتعلق بتوزيع الأمثال على هذه الأبواب ، فقد ذكر المثل ١١٨ في « باب المواعظ... » وهو آية من القرآن الكريم ؛ وكذلك ١٦٤ ؛ و ٦٨٩ ؛ و ٨٦٦ فكان من حق هذه الأمثال جميعاً أن تُدرج في « باب ما جاء... في القرآن فُضِّرت به الأمثال » . وذكر في « باب مدح الرَّجُل والشفقة عليه » جملة أمثال تبدأ بـ ٥٠٦ وتنتهي بـ ٥٢٤ ، وكلها تبدأ بـ « كَأَن » مما يجعل لها حقاً أن تذكر مع أخواتها في « باب آخر من التشبيه في كَأَن وكَأَنما » . وجاءت في « باب مدح الرجل » أمثال على صيغة « أفعل » مثل ١٨٤ ؛ و ٤٨٥-٤٩٢ ؛ و ٤٩٦ ؛ و ٤٩٧ ، وكان من حقها أن ترد في « باب أفعل من كذا » . وهناك أشياء أخرى كان من حقها أن تنقل من أماكنها إلى أماكن أخرى ، ولم أذكرها ؛ لأنني أمثل ولا أستقصي . ويمكن للقارئ أن يجد هذه الأمثال في كتابه « الأمثال » ط الجزائر ، ١٩٩٣ بتحقيقي .

ومن آيات جنائية الذاكرة على هذا الكتاب أن أبا بكر نسي تدوين بعض الأمثال مما يعرفه هو ، مثل : « جُصِّصَتِ الدَّارُ بَعْدَ مَا خَرِبَتْ »<sup>(١)</sup> ، ومثل « مُخَلِّطُ خِرَاسَان »<sup>(٢)</sup> ، و« يَقَعُ فِي الْبَنَرِ مِنْ حَفَرٍ »<sup>(٣)</sup> . وإذا كان يمكن أن يقال : إنه من المحتمل ألا يكون المثلان الأولان مستعملين في العراق والشام ، فإن الثالث ما يزال مستعملاً في العراق إلى اليوم . ولا بد أن تكون هنالك أمثال أخرى سوى ما ذكرت قد غابت عن ذاكرة أبي بكر فغابت عن هذا الكتاب .

ولكن كل ذلك لا يُنقص من أهمية هذا الكتاب ، ولا يقدح في قيمته كتاباً رائداً في بابهِ فهو وثيقة اجتماعية تؤرخ لوجدان المجتمعين العراقي والشامي ، وللوجدان العربي الإسلامي بصورة عامة من ورائهما . فإذا يَمَرُّ ذِكْرُ الْبَطَّالِ عَابِراً فِي حَوَادِثِ سَنَةِ ١٢٢ هـ لَدَى بَعْضِ الْمُؤَرِّخِينَ\* نَجِدُهُ قَدْ اتَّخَذَ مَكَاناً فِي الذَّاكِرَةِ الشَّعْبِيَّةِ فَضُرِبَ الْمَثَلُ بِشَجَاعَتِهِ فِي ١٢٣٤ . وَإِذْ تَسَكَّتْ كُتُبُ التَّارِيخِ وَسَوَاهَا عَنِ الرُّنْدَاقِ صَاحِبِ شَرْطَةِ أَنْطَاكِيَّةِ نَجِدَ الذَّاكِرَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ قَدْ ضَرَبَتْ الْمَثَلَ بِشِدَّتِهِ فِي ١١٦٢ . وَإِذْ تَسَكَّتْ كُتُبُ التَّارِيخِ عَنِ عِلَاقَةِ وَاضِحَةٍ بَيْنَ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ وَرِعَايَاهُ نَسْتَشْفِ مِنَ الْمَثَلِ ١٠٩٩ شَيْئاً أَقْرَبَ إِلَى الضَّجَرِ مِنْ طُولِ أَعْمَارِ الْخُلَفَاءِ - رَغْمَ قَصَرِهَا - ، وَلَعَلَّ هَذَا الْمَوْقِفَ مِنَ الْخِلَافَةِ هُوَ الَّذِي صَوَّرَ سَجُونَ الْخُلَفَاءِ عَلَى الْغَايَةِ مِنَ الْاِكْتِظَافِ بِالنَّاسِ - يَنْظُرُ ١٢٢٦ ، وَدَوَاوِينَ خَرَاغِهِمْ عَلَى الْغَايَةِ أَيْضاً مِنَ الْاِكْتِظَافِ بِالْمَالِ<sup>(٤)</sup> . وَلَعَلَّهُ هُوَ الَّذِي غَيَّبَ الْقِرَامِطَةَ وَالزَّنْجَ عَنِ ذَاكِرَةِ الْمَجْتَمَعِ رَغْمَ أَحَادِيثِ التَّارِيخِ الْمُسْتَفِيزَةِ عَمَّا صَوَّرَتْهُ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْفُطَّانِ .

(١) استعمله الخوارزمي في عمِّره . ينظر البيهقي ٢٣٢١ .

(٢) والمثل مناسب لقولهم 'سَفِينَةُ نُوحٍ' . وجامع سفيان - ينظر ثمار القلوب ١٧١١ وقد كان يستعمله أبو بكر .  
والمخلط : ما يخلط من اللوز ، وبزر البزنجية ، والكشمش ونحوها مما يكون في الثَّل .

(٣) رسائل الخوارزمي ٦٠١ .

\* أوسع ترجمة للبطل هي ما أورده ابن عسَّكر في تاريخ دمشق .

(٤) ينظر ١٢٢٥ ، في الأمثال ١٤٣٠ .

وتنبئ. هذه الأمثال أيضاً عن تحول في الذوق الأدبي ، فإذ تصوّر لنا مصادر الأدب الشعرَ الجاهلي والأمويّ على أنهما الغاية التي بلغها الشعر العربي ، وأنه بُدئ الشعر بامريء القيس وخُتم بذِي الرُّمّة - كما يقول الأصمعي - نجد الضيقَ بشعر امريء القيس في قولهم : « هو أعتقُ من شعر امريء القيس » ، وبشعر الكميث ١٢١١ . مما يدل على أن الصراع بين القدماء والمحدثين من الشعراء قد حُسم لصالح المحدثين .

وتنبئ هذه الأمثال أيضاً ، على خلاف اهتمام العلماء باللغة في هذا العصر مثل ابن جنّي ، وأبي علي الفارسي ، وابن خالويه ، ومن إليهم ، أقول : تنبئ عن ضيق الناس بالنحو واستعماله في بعض جوانب الحياة كما في قولهم : « أبرؤ من مُستعمل النحو في الحساب » .

ولا أريد أن أطيل في الجوانب الاجتماعية التي ضمّها هذا الكتاب ، وإنما أردت أن أنبّه الدارسين المهتمين بدراسة المجتمع العربي في العصور الإسلامية إلى ما يمكن أن يقدم كتاب الأمثال من أشياء اجتماعية .

ولقد كان من الممكن أن يكون هذا الكتاب وثيقة أخرى تقدّم لنا لغة المولّدين وتراكيبها النحوية ، لو أن أبا بكر قيّد نفسه أن ينقل الأمثال على هيأتها التي كانت تُداول بها ، ولكنه لم يُشعرنا في المقدمة أنه تقيّد بهذا . وإذ نحنُ نعرف تخفّف الناس من الإعراب في هذا العصر تخفّفاً جعل المتنبي يقول :

وكَلِمَةٍ في طريقِ خَفَتْ أَعْرِبَهَا      فَيُهْتَدَى لي ، فلم أقدرْ على اللَّحْنِ<sup>(١)</sup>

لا نجد في هذه الأمثال شيئاً من اللحن الذي وصف أبو الطيب فشوّه في ألسنة الناس . على أننا إذا تجاوزنا أوضاع النحو ، وهي سليمة ، في هذا

(١) ديوانه ١٧١٠ .

الكتاب وجدنا الخيال فيها - أعني في الأمثال - خيلاً مولداً حتى لتلتبس هذه الأمثال بكثير من الشعر العباسي مما يفرض علينا أن نولي اهتماماً أكبر لهذه العلاقة الوثيقة المتبادلة بين الشعر العباسي والأمثال ، فلقد نقرأ قول حماد عجرد يهجو بشاراً :

إن بشارَ بن بُردٍ تيسُ أعمى في سفينة

ونحسب أن المشاكلة بين بشار والتيس هي في الهيئة الجسمانية ، ولكن المثل : ٦٩٦ يقول : « وتذكر المتهوّر الأحمق فتقول : تيسُ في سفينة » مما يدلنا أن حماد لم يشبه وإنما كنى عن حُمو بشار وعن تهوّر .

ومن هذا الالتباس في الخيال بين الشعر والأمثال قول اللخام الحراني :

هذا زمائك فساختم بالطين والطين رطباً<sup>(١)</sup>

فقوله نظم للمثل : ٩١ ، ثم توسع بدلالته .

وقوله :

كن ذكوراً يا أبا يحى جى إذا كنت كذوباً<sup>(٢)</sup>

فهو أيضاً نظم للمثل : ١٣٩٣ .

وهناك ناحية دقيقة في الالتباس بين الخيال في هذه الأمثال ، والخيال الشعري عند العباسيين هي هذا الميل الشديد إلى التشخيص مما يعني أنه من طبيعة البنية الفكرية لأبناء العصر ؛ فلقد نجد شيئاً مشتركاً بين قول الحمذوي في طليسان ابن حرب :

طال ترداده إلى الرّفو حتى لو بعشناه وحده لتهدي<sup>(٣)</sup>

(١) البيهقي : ١٠٦٠٤ .

(٢) نفسه : ١٠٧٠٤ .

(٣) نثار القلوب : ٦٠٣ .

وقول المولدين في : ٧٢٧ « ... لو ضاعتُ صفةٌ ما وُجدتُ إلا على قفاه »  
مما يعني أن هنالك تصوراً مشتركاً بين الشاعر ومجتمعه في تناول الأشياء ،  
وفي النظر إليها ، وفي التعبير عنها .

وثمة العشرات من هذه النماذج التي تؤكد العلاقة الوثيقة - كما قلت -  
بين الشعر العباسي وأمثال المولدين مما يمكن أن يكتشفه القاري، بنفسه في  
ثنايا الكتاب ، ومما يجعلني - وأنا أقرأ هذه الأمثال - أسأل نفسي عما إذا كان  
المجتمع قد تبنى الشعرَ فجعله مثلاً ، أم أن الشاعر قد تبنى المثل فصاغه  
شعراً .

وأحب الآن أن أقف وقفةً قصيرة عند أصول هذه الأمثال فأقول : لم يكن من  
المقدّر لهذه الأمثال - وقد نشأت طائفة كبيرة منها في العراق والشام - أن  
تكون بمنأى عن ثقافة العراق القديم ، إذ لم يكن العراق يوم دخله الإسلام  
الحنيف خالياً من سكّانه بُناة حضارة بابل ، وسومر ، وأكّد ، فكان لا بد للعرب  
المسلمين يوم استوطنوه أن يتأثروا بثقافته مثلما يؤثرون فيه ، هذا إذا لم يكن  
العراق القديم قد أثر - وهذا هو الراجح - في الجزيرة العربية قبل ظهور الديانات  
السماوية مما يجعل دراساتنا في الأدب العربي ناقصة ما لم تُعن بتأثير الثقافات  
العراقية القديمة فيه .

وإذاً ، كان من الطبيعي أن تتأثر هذه الأمثال بثقافة العراق القديم ، فكان  
المثل : ٩٤٨ القائل : « قال الفيلُ للبقّة : لم أحسّ بكِ إذ وقعتِ عليّ ، فأحسّ  
بكِ إذا طرتِ » - كما يبدو لي - تلخيصاً للقصة السومرية القائلة : إنه « وقعت  
مرة بعوضة فوق ظهر فيل وهو يمشي ، فقالت له : هل أثقلتُ عليك يا أخي ؟  
فإن كنت فعلتُ ذلك فإنني سأنزل عند بلوغنا موردَ الماء ، فأجابها الفيلُ : من  
أنت ؟ لم أحس أنك كنت فوق ظهري ولن أعرف عندما تنزلين »<sup>(١)</sup> . وكان

(١) مقدمة في أدب العراق القديم : ١٨٢ .

المثل ١٨٩٧ القائل : « إن الغريب - وإن أُعِزَّ - ذليل » قريباً - كما هو ظاهر - من المثل السومري « ساكن البلد الغريب مثلُ العبد »<sup>(١)</sup> لا يختلف عنه إلا قليلاً . وتعمد بعض هذه الأمثال إلى قلب الأمثال السومرية مثل : ٢١٠ القائل : « جزاءُ مقبَل الوجعاء ضرطة » ، إذ هو - كما يغلب على ظني - معكوس المثل السومري : « أن تضطر الشابة في أثناء عناق زوجها لها أمرٌ لم يحدث منذ القدم »<sup>(٢)</sup> ، وكذلك ١٠١ : « ليس الجمالُ بالثياب » إذ هو أيضاً - كما يبدو - معكوس المثل السومري : « العيون تتجه لأحسنهم ملبساً »<sup>(٣)</sup> .

ومن باب التنبيه أيضاً أن أشير إلى أن بعض هذه الأمثال - على ما يبدو - من أصول إغريقية ، كقولهم في : ٣٥٣ « ما أشبه السفينةَ بالملاح » ففي التراث الإغريقي أن ديوغانيس « نظر... إلى طوفٍ شوك يجري به الماء - وعليه حية - فقال : ما أشبه السفينةَ بالملاح »<sup>(٤)</sup> ، وقولهم في : ١٣٢ « نعم الصَّهر للمرأة القبر » فهو ينطلق - كما يغلب على الظن - من نظرة بقراط إلى المرأة في قوله : « للمرأة ستران ، بعلها وقبرها »<sup>(٥)</sup> .

أما الكثرة الكاثرة من هذه الأمثال فهي - كما هي طبيعة الأمور - من أصول عربية ولكنها تتفاوت في أزمانها . ولا أريد الآن أن أؤرخ لهذه الأمثال ، ولكن أريد أن أشير إلى صدق ما قاله المؤلف من أنه « كان الرجلُ في صدر الإسلام ، والآخرُ في الجاهلية يُرسل الكلمة ، فتترك ولا يتمثل بها إلا في أيام الدولة

(١) السابق : ١٦٠ .

(٢) السابق : ١٥٩-١٦٠ .

(٣) من هنا يبدأ التاريخ : ٧١ . وللمثل نظير عند الرومان فقد ورد في كتاب الناقد الروماني - كما أفادني بذلك الصديق الدكتور أبو العيد دودو - كانتيليان « تعليم البلاغة » ، الكتاب الثامن ، الفصل الخامس ما ترجمته : « اللباس يمنع الرجل » . وتطور على يد لونغوس - كما يقول دودو - في « شعر الحكم الألمانية » - ١٦٥١ إلى « الثياب تمنع الناس » .

(٤) المجتبی : ٦٨ .

(٥) نثر الدر : ٧٢١ .

العباسية»<sup>(١)</sup> . فقد وجدتُ أن طائفة من هذه الأمثال يعود إلى العصر الجاهلي وبعضها إسلامي ؛ وشيئاً منها يرجع إلى أيام الأمويين ، ولكن الغالب - كما هو منتظر - المثلُ العباسي . على أن الذي يلفت النظر أن بعض الأمثال العباسية استُحدث في عصر المؤلف أعني القرن الرابع .

ولستُ أطيل في تأريخ ما استطعتُ تأريخه من الأمثال ؛ لأن في حواشي الكتاب ما يكشف ذلك ، ولأنني أريد أن أنصف الخوارزمي في كتابه هذا من الثعالبي والميداني ؛ فقد آلف الثعالبي كتابه « التمثيل والمحاضرة » بعد وفاة أستاذه أبي بكر ، وأخذ أشياء من هذا الكتاب - أعني الأمثال - فأدرجها في كتابه مثل ٣٥ : ٢٨ ؛ ٤٤ ؛ ٤٥ ؛ ٥٢ ؛ ٥٨ ؛ ٦٤ ؛ ٦٦ ؛ ٧٦ ؛ ٨٩ ؛ ٩٠ ؛ ٩٤ ؛ ٩٨ ؛ ١٠١ ؛ ١٢١ ؛ ١٢٢ ؛ ١٤٣ ؛ ١٦٨ ؛ ١٨٨ ؛ ١٩١ ؛ ٢١٠ ؛ ٢٢٩ ؛ ٢٣٨ ؛ وسوى ذلك مما هو واضح من حواشي التحقيق ، ولم يذكر هذا الكتاب في طول كتابه وعرضه حتى لكان أبا بكر أستاذه لم يؤلفه . ثم عاد الثعالبي فأفاد من هذا الكتاب في « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » فأفاد من ٢٧٢ ؛ ٢٨٢ ؛ ٤١٧ ؛ ٤٦١ ؛ ٤٨٥ ؛ ٦٥٥ ؛ ٦٨٨ ؛ ٧١٢ ؛ ٧٢٤ ومن سواها ثم نقل منه فنسب النقل إلى أبي بكر وأغفل ذكر الكتاب<sup>(٢)</sup> .

أما الميداني فأمره آخر ؛ فقد تحدث عن مصادره التي رجع إليها في مقدمة كتابه « مجمع الأمثال » ، ولم يذكر أبا بكر في هذه المقدمة ، ولم يذكر كتابه رغم أنه - أعني الكتاب - كان من مصادره المهمة في سرد أمثال المولدين ، فقد كان يأخذ منه - في أحيان - أمثاله حرفاً بحرف كما فعل في « لا أفعل ذلك حتى يزوب المثلّم » فقد نقله ، ونقل قصته بتمامها وحروفها إلا في جملة واحدة هي قول الخوارزمي « ... فلما توسطها حكّموا... »<sup>(٣)</sup> فقد شرح الميداني هذه

(١) مقدمة المؤلف ١١١

(٢) ينظر ثمار تنسوب

(٣) مقدمة المؤلف ١١١

الجملة بقوله : « ... فلما توسطها رفعوا أصواتهم : أن لا حَكم إلا الله »<sup>(١)</sup> وكما صنع بـ١٤١٢ فهو عند الخوارزمي : « إن السُّنُورَ الصَّيَّاحَ لا يصطادُ شيئاً . أي الفأر يأخذ منه حذره فيفوته » ، وهو عند الميداني : « السُّنُورُ الصَّيَّاحُ لا يصطاد شيئاً . لأن الفأر يأخذ منه حذره »<sup>(٢)</sup> فقد أخذ الميداني إلا شينين هما « إن » لأنه يريد إدراجهُ في حرف السين ، و« فيفوته » ، لأنه رآها - كما يبدو - تحصيل حاصل . وكذلك صنع بـ١٥٤١ فقد فسره أبو بكر بقوله : « ويقولون في الفاسق النكد في كل أحواله » وفسره الميداني بقوله : « يُضْرَبُ للفاسق النكد في جميع أحواله »<sup>(٣)</sup> . وكما صنع في سوى هذه الأمثال مما هو واضح في حواشي التحقيق .

وكان ينقل الميداني طائفة من هذه الأمثال فيتصرف قليلاً في مضرب المثل كما فعل - على سبيل المثال - في ٦٢٩ ، ٦٦٥ ، ٨٩٨ ، ٩٢٧ ، ٩٥٦ ، ٩٥٩ ؛ ١٠٠٧ ، ١٥٣٥ ؛ وهكذا .

وكان حين يقع في باب من أبواب كتابنا على أمثال توافق ترتبيه الهجاني ينقلها بتسلسلها كما في ١٠٩ ، ١١٠ ، وفي ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، وفي أمثال أخرى . وكان تتبّع هذا التسلسل على أوضح ما يكون في نقله أيام الإسلام من هنا ، فقد كاد يُطابقتها بأسمانها وبشروحها إلا ما كان منها فيه شيء ، فقد نقل - على سبيل المثال - يوم عين التمر ، ويوم جِوَاثِي متسلسلين ، وكان من المنتظر أن يذكر بعدهما يوم النَجِير ، ولكنه لم يفعل ، فقفز عليه إلى الذي بعده أعني : يوم صنعاء<sup>(٤)</sup> ؛ لأن النجير قد تحرّف في الأصل على « الحير » فلم يظمن - كما يبدو - إليه فأهمله ، وكذلك فعل في « يوم الراهب » فقد أهمله ؛

(١) مجمع الأمل ١ : ٢١٥ .

(٢) السابق ١ : ٣٥٧ . وهذا من معاديق ظن زلهايم في الأمثال العربية ٢١٧ حاشية .

(٣) السابق ٢ : ١٧٢ .

(٤) ينظر السابق ٢ : ٤٤٥ .



لأنه - كما يبدو - يوم غير معروف ، وما يقال عن يوم الراهب يمكن أن يقال عن «يوم الهني» . ولا أحب أن أتحدث عما تصحف من هذه الأيام في المجمع لأنني أحب أن أميل إلى أن المحقق هو الذي صحف ، فقد ورد فيه يوم «جُبابة السَّبَّيع» والصواب أنه «جَبَانة السَّبَّيع» ، و«يوم النجرا» والصواب ، يوم البخر» ، و«يوم دَثْنَبِي»<sup>(١)</sup> والصواب ، يوم دَثْنَبِي ، و«يوم سكن» والصواب ، يوم مَسْكِن ، و«يوم تل مَجْرِي» والصواب ، تل محرى . على أنه من الأمانة أن أقول : إن يومي مسكن وتل محرى قد وردا مصحَّفين في مخطوطتنا كما تصحفا في المجمع . فهل كان أصل نسختنا المخطوطة بين يدي الميداني أم أن المحقق هو الذي صحف ؟

هذا إلى أن فكرة ذكر أيام العرب في كتاب ينمقد على الأمثال هي - كما يبدو - من بدوات الخوارزمي ، إذ لم نجد باباً للأيام في كتب الأمثال التي سبقت هذا الكتاب .

وإذا ، فقد نخل الميداني هذا الكتاب فأخذ منه أكثر أمثاله ، ولم يذكره إلا مرة واحدة ذكراً أقرب إلى التضييل منه إلى الاعتراف وذلك حين عرض إلى تفسير «أَجُور مِّن قَاضِي سَدُوم» فقد قال : «قالوا : سدوم... مدينة... قال الطبري : هو ملك من بقايا اليونانية غشوم»<sup>(١)</sup> .

ومهما يكن من أمر فحسبُ أبي بكرٍ فخراً أن عمد إلى تدوين ثقافة العامة في العراق والشام من خلال أمثالهم ، مما درج المؤلفون الآخرون - في العادة - على احتقاره ، فكان في ذلك رانداً بحق ، وحقيق .

(١) ينظر السابق ٢ ، ٤٤٦-٤٤٧ .

(٢) المجمع ١ ، ١٩٠ .

# علي جواد الطاهر

(شهادة حق وليس رثاء)

كنتُ أسمعُ بالأستاذ العلامة علي جواد الطاهر ، كما يسمعُ به غيري ، وكنتُ أعجبُ به كما يُعجبُ غيري ، ولكن بين إعجابٍ وإعجابٍ بونٌ ، فقد كنتُ معجباً بطراوة أسلوبه مقالياً من الطراز الأول ، على حين كان الآخرون يُعجبون بالاثنيين معاً ، علمه ، وطراوة أسلوبه . ولا شكَّ أنَّ إعجابهم كان أرقى من إعجابي ، ولكنَّ سني يومذاك لم تكن تؤهلني أن أرقى إلى فهمهم ما يقول ، فكان حسبي من هذا الذي يقول هذه اللغة الساحرة التي تتصور وأنت تقرأها أنها خلقت له وحده على وفق ما يشتهي .

واقتربتُ من فهم بعض علمه - أو كدتُ - في آخر عام من أعوام دراستي الثانوية ؛ فقد كانَ علينا أن ندرسَ كتابه المقرر من وزارة المعارف العراقية «النقد الأدبي» ، وأن نؤدِّي امتحاناً فيه . أقول : اقتربتُ من بعض علمه ولا أعني أنني بدأتُ أفهم جيداً ما يقول ؛ ولكنَّ الذي استطعتُ أن أفهمه منه أنَّ كتابه لم يكن يُشبه كتاب الراحل العلامة الأستاذ مصطفى جواد وزملانه ؛ فقد كان يُرادُ لكتاب العلامة مصطفى جواد وزملانه عن «تأريخ الأدب العربي» أن يكون عمامة أبي سعيد السيرافي توضع على رأس غلامٍ راهقٍ الحلم أو كاد ؛ مما جعلنا نأبى لبس هذه العمامة التي لم نكن نعرف قدرها حقَّ معرفته . أما كتابُ الراحل الطاهر فقد كان مثل كتابِ جوادٍ وزيادة بما جمع بين الشرق والغرب ، والتقديم

والمعاصر ، والتراث والحداثة ، ولكن كان فيه سرٌّ آخر لم يكن في كتاب العلامة مصطفى جواد هو ، أخذنا هذا الأخذ اللين المحبَّب إلينا أن نتعلَّم وأن نفرح بما نتعلَّمنا ، وأن نعرف ما هو الأدب لا نظرياً ، وإنما بمَثَلٍ قريبٍ من معارفنا ، ودروسنا ، ومستويات إدراكنا . وهل أقرب إلينا من أن تكون أمثلة الأدب الذي هو كالزئبق في زوغان تحديده من علم الأحياء الذي درسنا ومن علم النبات ؟

كان الأدب قبل أن نعرف كتاب العلامة الطاهر محفوظاتٍ ثقيلةٍ نستظهرها أحبينها أم لم نحبيها ، أما حين بدأنا بدراسة كتاب الطاهر فقد أصبح أمرنا وأمرُ الأدب شيئاً آخر ، فقد أصبح الأدبُ حياتنا التي نعيش ، والهواء الذي ينبغي أن نتنفس . أو هكذا خُيِّلَ إلينا .

قال لنا العلامة الطاهر في أول صفحةٍ من صفحات كتابه « النقد الأدبي » ما مؤداه : يمرُّ عالمُ نبات في غابةٍ فيرى ورقةً صفراءَ فيقف عندها ليقول لك شيئاً عن الصبغة الخضراء التي جفَّتْ ، وأشياء عن تأثير الضوء في هذه الصبغة ، وهكذا . ويمرُّ الأديبُ بالقاية نفسها ، والورقة الصفراء نفسها ، ويتأثَّرُ بما يرى فماذا سيقول ؟ لا أتذكَّرُ الآن قطعة الرثاء المؤثرة التي ساقها ، ولكنني أتذكَّرُ كيف استقر في أذهاننا - نحن الصبيان - مفهوم الأدب ، وأتذكَّرُ أنَّ منا مَنْ زعم لنفسه أنَّه أحبُّ الأدب - وكان كاتبُ هذه السطور واحداً من هؤلاء الزاعمين - وأنَّه يجبُ أن يربط مستقبله به ، وهكذا .

وصار كتابُ النقد الأدبي من الكتب التي لا تُرمى حال الوصول إلى البيت كما يرمى سواه من الأعباء المدرسية .

إنَّه كتابٌ يُعلِّمنا فضلاً عن الشعر ، والقصة ، والمسرحية ، والمقالة ، والزيات وموبسان ، والجاحظ ، وسانت بيف ، يُعلِّمنا هذه الطراوة في الأسلوب وهذه القدرة على تقديم المعلومات كما لو أنها معلوماتنا نحن .

ولكن متى ستري الطاهر ؟

لا بدّ من صنعا وإن طال السفر .

والطريق إلى صنعا الطاهر هو أن تكون طالباً في قسم اللغة العربية من كلية الآداب ، وهو أن تجدّ وتجتهد لتبلغ السنة الثانية من دراستك في القسم .

وألحّ والذي عليه رحمه الله واستمات في إلحاحه أن أنتمي إلى كلية الفقه في النجف الأشرف أدرس فيها العربية وعلوم الدين - بعد أن رأى إلحاح ابنه على دراسة العربية - فكان من توفيق الله وحده أن رفض أحدُ رجال الدين المتزمتين قبولي في كلية الفقه لأسباب لا تتعلق بشيء اسمه دراسة أو مستوى دراسي .

وكان معنى ذلك أن أكون من طلاب الآداب ، وأن أدرس على الدكتور الطاهر ، وإذا وضعتُ قدمي على بابها الذي يؤدّيني إلى الطاهر والعربية ، وجدتُ أن الممرّ الذي يتصل به الباب يمكن أن يؤدّيني إلى قسم التاريخ ، أو الآثار ، أو الفلسفة وليس اللغة العربية وآدابها ؛ لأنّ معدّل الدرجات التي حُزّت عليها في البكالوريا تؤهّلني لما هو أعلى من قسم العربيّة . ولم أكن أظنّ أنّ هنالك أمّة تحترق لغتها على هذه الصورة ، فتربّأ بمن تظنّ أنّ نتيجة امتحانه توحى بشيء من النباهة أن يدرس العربية وأن يتخصّص فيها . ويسّر الله تذليل تلك العقبة بفضل إصرار صاحب الحق الأعلى أن يرضى بما هو أدنى .

وكان ما أردتُ . فهذا هو قسم اللغة العربية .

ولم يكن من أسأتذتي فيه الدكتور الطاهر ؛ لأنه كان عليّ أن أجدّ وأن أجتهد ، وكان عليّ أن أستمع للـعمر - كما قلتُ - لكي أكون في رحاب الدكتور الطاهر .

وأتممتُ كلّ ذلك ، وإذا بالطاهر بلحمه ودمه أمامنا يدرّسنا مادة « منهج البحث الأدبي » ، وكان انطباعي الأوّل عنه طائفة من مشاعر متضاربة متنافرة لعلّها أقرب ما تكون إلى خيبة الأمل منها إلى شيء آخر ؛ فقد رأيتُ الفقيد

يتحدث وهو من الأناة في حديثه كأنه يتلجلج ، ويقرّر ما يراه وكأنّ في نفسه شيئاً مما قرّر ، ويقدم على الرأي وكأنّه مُحجّم عنه ، وهكذا .

ولكن كان علينا مع هذا وذاك أن نفخر على زملائنا من الشعب الدراسية الأخرى في قسمنا أن أستاذنا هو الدكتور الطاهر ، وأنّ أساتذتهم من تلاميذه .

ويتخلّى الانطباع الأول عن مكانه للإعجاب التام بالدقّة في تقرير الرأي ، وبالأناة في اختيار الكلمة المناسبة التي تنقل الرأي كما يريد له صاحبه لا يزيد ولا ينقص ، ويتقصر ما قيل وما يُقال لفريضة المسألة .

حدث كلّ هذا ونحن في المحاضرة الثانية ، أو الثالثة من محاضراته ، وكأنّنا أدركنا أننا أمام أستاذٍ من طينةٍ أخرى لا يُشبه من عرفنا من أساتذتنا الأجلاء . وبعبارة أخرى قرّر النابهون منا أن يتعلّموا منه شيئين : منهج البحث الأدبي ، والدقّة التي تكاد تكون وسواساً عنده .

أما كاتبُ هذه السطور فقد كان الفقيه - تغمّده الله برحمته ورضوانه - قد أدّخر له على غير انتظارٍ منه درساً آخر لك أن تُسمّيه ما شئت من تسميات ، أما هو فلا يعرف من هذه التسميات إلّا ما يفرّق به بين الأب الأستاذ ، والأستاذ . وإذا كان الأستاذُ ممن يُعلّمك ، فإنّ الأب الأستاذُ ممن يُعلّمك فيوجّه حياتك إذ يُعلّمك ، وهكذا وجّه حياتي العلامة الطاهر ، كما وجّه حيوات المئات من طلاب علمه ، بحادثةٍ أرجو ألا أثقل على الآخرين برواية شيء منها ؛ فأقول :

انعقد في بغداد مؤتمر الأدباء العرب ، ومهرجان الشعر العربي في شهر نيسان (أبريل) من عام : ١٩٦٩م ، وكان الأديب العراقي المرحوم بسيم الذويب قد أصدر سلسلة من كُتّيات أسماها « شعراء المهرجان » ؛ ينقد فيها الشعراء المجودين ممن يُلقون قصائد فيه . وإذا ألقى الجواهري قصيدته في المهرجان التي مطلعها :

يا ابن الفراتين قد أصفى لك البلد زعماً بأنك فيه الصادح الفرد  
 كان لابد للذويب أن يخصّص واحداً من كُتُبَاتِهِ لقصيدة الجواهري . وصدر  
 الكتيبُ فعلاً ، وإذا بي أجِدُ فيه من التحامل على الجواهري وعلى قصيدته أكثر  
 مما وجدته فيه من النقد ، مما جعلَ دماء الشباب وتوصية الطاهر بالموضوعية  
 في النقد تفوران برأسي ، فأكتبُ إلى جريدة «النور» العراقية مقالاً أنقد فيه نقد  
 الأستاذ المرحوم الذويب للقصيدة ، فاستغرق ذلك المقال على ما أذكر الصفحة  
 الثقافية من الجريدة بكاملها .

وكان نشرُ المقال مما يفرحني ، ولكن الذي وجّه حياتي بصورة مباشرة  
 مرّة ، وغير مباشرة مرّة أخرى هو ما صوّر لي الدكتور الطاهر - بعد إذ قرأ  
 المقالة - من أمر مستقبلي ما صوّر ، فوجّه بذلك حياتي . وأرجو ألاّ تسألني بعد  
 ذلك إن كان أصاب في التوجيه أم أخطأ فحسبُ الدليل الخريت أن يُعيّن لك  
 الاتجاه وليس عليه أن تضلّ فلا تصل .

وللدكتور الطاهر من روح العلم في إنصاف الأشياء ما لا يتهيأ لسواه إلاّ  
 نادراً ؛ فقد عرض وهو يدرّسنا النقد الأدبيّ إلى حركة الشعر الحرّ في العالم ثمّ  
 عزّج على الحركة عند العرب ، فكان لا بدّ له أن يعرض لبدائها في العراق ،  
 وإذا بدأ بها سرّح هنيهة ثمّ قال ،

- لو كانت الجامعة جامعة لا تلتزم بالأوراق التي تسميها شهادات  
 الأساتذة ، لكان سعدي يوسف - وسعدي من أبرز شعراء الحركة بعد المرحوم  
 السيّاب - أولى بهذا الكرسيّ منّي لنسمع رأيّه ونناقشه .

وكان هذا درساً آخر من الدروس العميقة التي يلقيها الدكتور الطاهر  
 يعلّمنا بها أن نأتي البيوت من أبوابها .

ودرسٌ ثانٍ تعلّمناه من ملاحظته هو أنّ ما وقر في أذهاننا من أنّ الأدب  
 لعبة ، وأنّ الشعر نزوة ليس صحيحاً .

كان يريد أن يقول لنا بأوضح صورة ، ولكن بجملة غير مباشرة : إنَّ حركة الشعر الحُرّ قامت على فلسفة ، وعلى رؤية يحسنُ بنا أن نسممهما من بعض من يدعو إليها قبل أن نحكم عليها .

هذا وقد بلغ الدكتور الطاهر من القَرَفِ في ثمانينيات هذا القرن بحركة الحدائث الشعرية بحيث كتب لي - وهو المتذوق المتذوق - يوم كنتُ في الجزائر أنه يُفكر أن يدعو إلى « الشعر الأدبي » (هكذا سمّاه) ، يعني بذلك أنَّ هذا الشعر الحديث بمقدار ما اقترب مما يريد ابتعد عن الذوق العربي فلم يُعد يُحرِّك فيه شيئاً .

وإن أنسَ لا أنسَ حديثاً تجاذبنا أطرافه - سعدي يوسف وأنا - فتعجَّب الشاعر الكبيرُ سعدي من عدم إعجاب الطاهر بتجاربه في القصيدة الحديثة بعد ديوانه « الأخضر بن يوسف ومشاغله » .

ولم يكن الدكتور الطاهر مؤقلاً أن يُعجبَ بالتجريب في القصيدة إذا لم يُعجبَ بالتجربة ، ومن ذا يلوم عبدَ القاهر الجرجاني على موازنته بين الجسر والجسر ؟ ومن ذا الذي يلوم القاضي عليَّ بن عبد العزيز الجرجاني وهو يريك أبا تمام في حاله كزازته ، وطلاوته ؟

وإذا فلم يكن الطاهر ملوماً أن يكون عبدَ القاهر بذوقه ، وعليَّ بن عبد العزيز الجرجاني في ثقافته وإنصافه .

وإذا ينصف الدكتور الطاهر الأشياء كان عليه أن ينصف أصحابَ هذه الأشياء أعني المبدعين - وكانت شغلُه الشاغلُ في الإبداع القصَّة - وقد جرَّت عليه روحُ الإنصاف هذه من عداوات ضعاف المواهب ما جرَّت ، فلم يصف ولم يهن ؛ حتى لكانه لم يسمع بهذه العداوة ، وأريدُ أن أذكرَ حادثةً واحدةً من هذه الحوادث ، وهي أن صدرت للقصاص العراقيِّ يوسف الحيدري مجموعةٌ قصصيةٌ تحت عنوان : « حين يجفُّ البحر » فكتب الدكتور الطاهر مقالةً في مجلة الكلمة

التي كانت تصدر بمدينة النجف عنوانها : « وإذ يولدُ جيلٌ » فما رأيتُ عاصفةً شفوئيةً هبَّت على أحدٍ كما هبَّت على الفقيد الطاهر . وكانت هذه العاصفة قد هبَّت من القصاصين العراقيين الذين يعلنون عن أنفسهم بمناسبة وبدون مناسبة - ومصطلح إعلان الأديب عن نفسه من مصطلحات الدكتور الطاهر التي يحتقرها ويحتقر أصحابها - أقول : هبَّت من القصاصين الذين كانوا يعلنون عن أنفسهم ويظنون أنهم مجودون أكثر من يوسف الحيدري عاصفةً على الفقيد الطاهر . أمّا الذي لم يعلنوه وهم يثيرون العاصفة على الدكتور الطاهر أنه كتب عن يوسف الحيدري ولم يكتب عنهم ، لأنهم كانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أن كتابة الدكتور الطاهر عن أيٍّ أحدٍ منهم هي جوازُ المرور إلى عالم الأدب ، والتجويد فيه .

وسمعتُ منه ذاتَ يومٍ ونحنُ نتحدَّثُ عن شرطه الذي كرَّره في معظم كتبه من أنه لا بدَّ للناقد لكي يكون ناقدًا أن يُلَمَّ - على الأقلَّ - بلغةً أجنبيةً واحدةً ، أقول سمعتُ منه أنه يجبُ عليه أن يعدِّل رأيه بهذا الشرط . وكان قد غيَّر رأيه في ضرورة عدم التمسك بهذا الشرط بعد أن صدر كتابُ تلميذه الدكتور عبد الإله أحمد عن القصة العراقية ؛ لأنَّ الدكتور عبد الإله كتب كتاباً ممتازاً في تاريخ القصة العراقية على الرغم من أنه لا يعرف لغةً أجنبيةً يقرأ بها أصول هذا الفنِّ الغربيِّ . هذا ولم أسمع من الفقيد أنه قال : إنَّ عبد الإله من تلاميذه وإنما سمعتُ ذلك من الصديق العزيز عبد الإله نفسه .

وتحدثتُ عن روح الإنصاف هذه عنده ، وسقَّت كلَّ ما سقَّتْ عامداً من شواهد في الأدب المعاصر ، أريدُ من خلال ذلك أن أوحى إلى القارئ الذي لا يعرف مقدار الخسارة بفقيدنا أننا فقدنا واحداً من أديبائنا المعاصرين فحسب ، ولكن الخسارة أفدحُ ، والمصيبةُ أعمُّ .

لقد كان علي جواد الطاهر أُمَّةً في أُمَّة .



ولأنَّ هذه الأمَّة ماتزالُ أُمَّةً حيَّةً ، فقد هَيَّا اللهُ لها علامةَ الجزيرة الشيخ حمد الجاسر يُعنى بمثل هذا الرجل ؛ ولا يعرفُ الفضل إلا ذووه ، ولو كان قد تهياً للطاهر غيرُ الجاسر لكان ذلك موضعَ عجبٍ . أمَّا والعلامة الجاسر يُعنى بالعلامة الطاهر فلا عجبٌ ، ولا بُدُّ ، ولا قُربُ ؛ لأنَّ تلك هي طبيعة الأشياء . ولا يعرفُ الفضل - كما قلتُ - إلا ذووه .

ويبقى للطاهر سرُّه أن تحتفل به مجلَّة «العرب» الغراء وهي ما هي في حفظ تراث العرب ، وتمتَّزُ بنتاجه بمقدار ما كانت تحتفلُ به «الأدب» ، وهي ما هي في الحداثة والمعاصرة . وبمقدار ما عزَّ فقده على : «الثقافة الجديدة» .

تلكم هي ثقافة الدكتور الطاهر ، بل إنَّها الدكتور الطاهر نفسه . تقرأ له كتابه : «الشعرُ العربيُّ في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي» فتظنُّه لا يحسنُ غير أدب العصر السلجوقي شأنه في ذلك شأن منات الدكاترة العرب الذين يتخصَّصون في موضوع فلا يرحونه ، وتقرأ له : «الأبن وسبع قصص أخرى» فتظنُّ أنَّه أديبٌ لا يحسنُ إلا الفرنسيَّة ؛ أداء ذلك الإعجابُ بقصص بعض الأدباء الفرنسيين أن يشرك في إعجابه نفرًا من أدباء العربية . ويغيبُ عمَّن لا يعرفه أنَّه لم يكن لا هذا ولا ذاك ، وإنَّما كانَ الطاهرُ حُلُمَ أُمَّة تريد أن تُتقنَ حاضرها دون أن تعتبر هذا الحاضر مما يلغي كيانها وكيانيتها . وتلك هي عظمة علي جواد الطاهر ، وأرجو أن تغفر لي روحه الطاهرة - حين أوازنُ بينه وبين الدكتور طه حسين - فقد كان يرى عميدُ الأدب العربي في كتابه : «مستقبل الثقافة في مصر» ألا سبيل لنا لكي نتقدَّم إلا حين نسلك طريق أوربا لا لشيء إلا لتشاطُننا في البحر الأبيض المتوسط . على حين كان علي جواد الطاهر وهو يدعونا أن نستفيد من حضارة الغرب يشترطُ علينا ألا نذوب فيها .

وأعودُ الآن أريدُ أن أتحدَّثَ عن جانبيه معاً وهما : جانبُ الإنصاف في شخصيته ، هذا الإنصاف الذي جعله يكتبُ بإجلالٍ عن العلماء الذين التقى بهم

وتتلمذ لهم ، والذين لم يتلمذ لهم ، وجانبُ هذا الجمع العجيب بين الثقافتين ،  
والهضم الرائع لهما معا ، حتى تظنُّ أنَّه أبو الحسن الأسواري - كما صوّره  
الجاحظُ - في تمكُّنه من لغتي عصره : العربية والفارسية .

فأمّا معرفة الفقيد الراحل بما هو من لغات عصره أعني بذلك : الفرنسية  
فلا يكادُ يجِدُ من يبحث عنها كما هي عند الدكتور طه حسين والدكتور محمد  
مندور وأضرابهما من الأساتذة الكبار شيئاً ، ولا يكادُ يجِدُ لها أثراً في كتاباته ،  
وأما من يبحث عنها منهجاً واستفادةً وعمقاً ، ويكون كلُّ ذلك مصبوغاً بطابع  
عربيٍّ هو طابع الفقيد الطاهر فإنَّه ليَجِدُ ذلك في كلِّ ما كُتِبَ ، وألف ، لأنَّ  
الحضارةَ أيَّة حضارةٍ هي روحٌ عندَه وليست قشوراً . وهل أبلغ من أن يكونَ  
خريجُ السوربون - أيام كان سوربوناً ، وتلميذُ ريجيس بلاشير - ثمَّ لا يمنعه  
ذلك من أن يرى في أستاذٍ من أساتذة المرحلة الثانوية الذين درَّسوه بمدينة  
مدينة الحلة ، أعني به الأستاذ المهنا ، مثلاً من الأمثلة في حياته حتى لتجده  
يقول عنه : « درَّسنا التاريخ القديم وكأنه عاش مع السومريين ، وإذا قلنا هذه  
بابل ، وهو يعرفها فما قولك في أثينة وإسبرطة ؟ إنَّه عاش فيها دون شكٍّ ورأى  
الحضارةَ اليونانيةَ عن كثب . ودرَّسنا اللغة العربية ، وهنا لا نُطيلُ فهو ابنها  
وأبؤها ، هو نحويٌّ إن أردتَ النحو ، وصرفيٌّ إن طلبتَ الصرف ، ومؤرِّخٌ للأدب  
إن أردتَ تأريخَ الأدب... »<sup>(١)</sup> بل ويبلغ تقدير الطاهر لأستاذه القدير أن يصبح  
الدكتورُ عليُّ جواد الطاهر العلامةَ الطاهر ، ثمَّ لا يُنسيه ذلك محمد أحمد المهنا  
أستاذاً من أساتذته في الثانوية ، وربُّما المتوسطة .

كان الطاهرُ أُمَّةً في أُمَّة ، أجل ، كان وحدهُ أُمَّةً في أُمَّة شأنه في ذلك شأنُ  
القليل من علمائنا أطلال الله في أعمار من بقي منهم وتغمَّد من اصطفاء منهم  
برحمته .

(١) أساتذتي ومقالات أخرى للدكتور الطاهر ، ٦٠ .

وأريد أن أرجع الآن إلى ما كنت فيه من شأن معرفتي الفرنسية (وقد كان يتقن الإنكليزية أيضاً) فأقول :

إنه لا يحق لي أن أشهد على فرنسيته التي يراود لها أن تشبه ما يتباهى به الآخرون ، وحاشاه ، حين يتباهون تباهياً أجوف باللغة التي يعرفونها ، فسأدع الشاعر خليل الخوري يتحدث عن الفقيه . و خليل الخوري من معرفة الفرنسية بحيث أنيط به تحرير مجلة « العراق اليوم » عشرين سنة أو أكثر أو أقل ، وبحيث ترجم إلى العربية من الفرنسية شاعراً من أصعب شعرانها لغةً ومجازاً . بسبب حداته الشعرية هو آرثور رامبو ، ولكن كل هذا لم يمنع الشاعر خليل الخوري أن يقول بعد أن راجع الفقيه الطاهر ترجمته كتاب هنري ترويا عن تشيخوف : « ... إنني مدين ، كثير الدين ، للشيخ العلامة علي جواد الطاهر ، دكتوراً وإنساناً . فقد تشبّع في مراجعته الترجمة كل كلمة وكل حرف في النصين ، وكان لملاحظاته أثر كبير في تسديد هفوات كثيرة... كان في دقته أثر كبير في إرشادي إلى الأخطاء... وإذا كان لي أن أضيف فما أجده على لساني الآونة أن الدكتور الطاهر كان مفاجأتي وغبطتي معاً . فما كنت أعرفه عنه كثير ، لكن ما تمت [الأصل : لكن اما تمت] لي معرفته عنه ، عبر الاحتكاك بهذه السيرة عن تشيخوف ، يقنعني للمرة الألف أن درب الكمال في المعرفة والتخصص تحتاج إلى من هم مثل الدكتور... »<sup>(١)</sup> .

أريت بعد هذا شهادة أرقى من هذه الشهادة ثقال في رجل لا يعلم كثير من الناس أنه يتقن اللغتين الفرنسية والإنكليزية ، أما لماذا لا يعلمون فلأن اللغة الأجنبية لا تكون من أدواته في المعرفة حتى تتعلم الألفباء العربية ، وحتى تكون في خدمتها .

(١) تشيخوف : ٣-٦ ترجمة خليل الخوري ، مراجعة د . علي جواد الطاهر ، وزارة الثقافة وإعلام العراقية

بغداد ، ١٩٨٧ .

أما إكباره للعلم والعلماء فحسبك منه كتابه : « أساتذتي ومقالات أخرى »<sup>(١)</sup> وإذا كان من حقك أن تعدَّ حديثه فيه عن : مصطفى جواد وطه الراوي ، ومحمد مهدي البصير وفاء : لأنَّ هؤلاء من أساتذته الذين تتلمذ لهم فأجلهم فلا أظنُّ أن من حقك أن يطرد مقياسك هذا فتعدَّ حديثه عن طه أحمد إبراهيم ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتي ، وحمد الجاسر ، وسواهم وقد أدرج هؤلاء جميعاً تحت باب أساتذته - ولم يكن تتلمذ لهم - من ذلك الباب نفسه .

إنَّ حديثه عن هؤلاء ضربٌ من إكبار العلماء ، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان أنثى عليهم بما ليس فيهم ، ولكنته قال ما قال ولم يجروا أحدٌ أن يسأل لماذا قال لأنه ما تزال - ولله الحمد - للعلم حرمة ، وثقله ، ولأنه لم يقل عنهم شيئاً ليس فيهم ، وحاشاه أن يتزَيَّد مهما بلغ إعجابه . ولك بعد ذلك أن ترجع إلى كتابه نفسه فيغنيك عن مطالبتي أن أفسر لك ما يبدو على أنه ضربٌ من التأليف بين المتناقضات عنده ؛ وإلا فما الذي يجمع عندك بين السحرتي واهتمامه بالشعر الحديث ، وطه أحمد إبراهيم وهوَّسه بالنقد الأدبي عند العرب هوَّساً جعل كلَّ من كتَب بعده في النقد عند العرب - كما قال الطاهر وهو على حاقَّ الحق - عيالاً عليه ، ما الذي يجمع هذين وسواهما ممن لم أذكر بالشيخ حمد الجاسر صاحب « العرب » ولن أقول لك شيئاً عما خلَّق له من علم عجيب في جغرافية الجزيرة والأنساب ، لأنني لا أحبُّ أن أنقل الثمر إلى هَجَر ، ولا العنب إلى الطائف .

أقول : ما الذي يجمع بين هذين وسواهما مع الشيخ حمد الجاسر ؟

أيها المُنكحُ الثرياً سهيلاً	عمرك الله كيف يلتقيان
هي نجديةٌ إذا ما استهلَّتْ	وسهيلٌ إذا استقلَّ يمانِي

(١) صدر عن دار الشؤون الثقافية في وزارة الإعلام العراقية ، سنة ١٩٨٧ .

إن الذي يجمعهم أنهم من منزل واحد هو العلم الحق وهو الإخلاص لهذا العلم أياً كان منزعه ، وإياك إياك أن تصدق عمر بن أبي ربيعة المخزومي وتكذب علي بن الحاج جواد الطاهر ، فلم يعرف عن ابن الحاج جواد الطاهر أنه كذب في حياته . وسترى بعد هذا من حديث صدقه ما دمت له عيناى .

هذا إلى أن الدكتور الطاهر الذي رأيت من ثنائه الصادق على العلماء ما رأيت كتب إلي - وأنا في الجزائر - قبل أن تحيله جامعة بغداد على التقاعد وهو دون السن القانونية :

خزيت بغداد من بلد كل شيء فيه مقلوب

أقول كتب إلي وهو يضحك مما بلغته جامعة بغداد من تهاون في العلم فقال في رسالته المؤرخة في ١٩٨٠ / ٣ / ٢٤ :

« ... أما طلبة الماجستير فقد تعدوا - والحمد لله - الخمسين .

من الموضوعات التي سجلها طلبة الماجستير : (ابن يعيش في شرحه المفصل للزمخشري) ومن الموضوعات التي ستسجل : (البلاغة عند السيوطي) والحبلى على الجزائر ، وقد أتفضل باقتراح موضوع : (البلاغة عند الصفدي) و(عبقريّة شعر الموصل في القرن الحادي عشر) ... ولا نطيل والخير كل الخير فيما حصل ... » .

لم يكن الدكتور الطاهر يحب الكذب لا أبيض ولا أسود ، وسأروي له موقفين من صدقه العجيب العجيب أحدهما خبرته بنفسى يوم اقترح علي عنوان رسالتي للماجستير عن : « الشعر في الكوفة منذ منتصف القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث للهجرة » ووقفت في كتابتها ، وأجازني بطبعها فما راعني إلا أن أجد يوماً من يعرفني ومن لا يعرفني من زملائي يبلغني بأن الدكتور الطاهر قد جاء إلى الكلية بشكل خاص لعله يراني ، فما أذكر أنني ارتعت يوماً كما ارتعت ذلك اليوم . وكان لا بد لي ارتعت أم لم أرتع أن أتصل به هاتفياً في بيته

- وكان يومذاك في شارع فلسطين ببغداد - أرى الذي حَزَبَهُ من الأمر . وإذا اتَّصَلْتُ به وأنا لا أكادُ أملكُ صوتي قلقاً وهيبَةً واحتراماً إذا به كعادته من الأناة في الحديث يسألني :

- أين وصلتَ بطباعة رسالتك ؟

- أوشكُ على الانتهاء أستاذي الكريم ، فلم يبق لي إلا جزءٌ من الملحق الذي أعرَفَ فيه بالشعراء ، وأسردُ مصادر ترجمتهم .

- طيب ، ولكن هنالك مشكلة أرجو أن تأخذها بحجمها .

- يا سَثار استر (هكذا قلتُ في نفسي) ، وكان هو مُتمهلاً في الحديث كعادته ، فأردف دون أن يبدو عليَّ أنني طلبتُ السر :

- هذه المشكلة هي أَنَّهُ رجعتُ إلى مجلَّة «العرب» صباح هذا اليوم ووجدتُ فيها مقالاً للشيخ حمد الجاسر عن مُحَمَّد بن عبد الملك الأسدي نُشر قبل خمس سنواتٍ ، أليس هو صاحبك الذي أسميته الفقعي؟  
- أظنُّ أَنَّهُ هو .

- هذه المسائل يا مُحَمَّد لا تُحلَّ بـ «أظن» أعتقد أَنَّهُ هو ، فتعال الآن إليَّ في البيت لنرى .

ووجدتُ أن صاحب العلامة الجاسر صاحبي هو هو ، وسرَّح الطاهر وأنا على آخر من الجمر أن يقول شيئاً ، وبعد أخذٍ وردٍّ عما إذا كنتُ أستطيع إعادة طباعة الرسالة أم لا ، قال :

- إنَّك من دون شكٍّ قلتَ ما قلتُ عن مُحَمَّد بن عبد الملك الأسدي الفقعي سَمَهُ ما شئتَ - هكذا قال - باجتهادك ، ولكنَّ الذي قاله الشيخُ الجاسرُ قد أُذيع قبلك ، فصار صاحبك الفقعيُّ من حقِّه وليس من حقِّك ، والآن لديَّ اقتراحٌ ، وسكت .

- يا ألهُ قد جاء الفرجُ فمَجِّلْ به (هكذا كنتُ أقول في نفسي) أنتظر اقتراحه ، فقال :

- أنت الآن في طبع في الملحق وقد انتهيتَ من ذكر هذا الأسديّ -  
الفقعمسيّ ، أليس كذلك ؟ عليك الآن أن تعيد طباعته ، فتقول : إنَّ من مصادر ترجمته «مجلة العرب ، س ١ ، ع ١١ ، جمادى الأولى ١٣٨٧ = آب ١٩٦٧ من ٩٩٩-١١٠٦ ، س ٢ ، ع ١٦ رجب ١٣٨٧ = تشرين الأوّل ١٩٦٧ : ٩٥-٩٦ .  
مقال بعنوان (الشاعر محمد بن عبد الملك الأسدي) للأستاذ حمد الجاسر» .  
هذا أقلُّ ما تفعلُ .

وفعلتُ ما قال ، وإن لم يَحْجِ للناس أن يروا ما فعلتُ ، لأن هذه الرسالة لم تُطبع إلى الآن .

ويمكنك أن تُسمِّي هذا أمانةً علميّةً هي من أبرز ما يَصفُ به فقيدنا الراحلُ ، ولكن أن يسرّدَ لك كلّ ما قلّته لك ممّا قاله أمام لجنة المناقشة معترفاً بتقصيره - وحاشاه - أنّه كان عليه من اليوم الأول أن ينبّه الطالبَ إلى هذا ، وأنّه أشفق على الطالب أن يُكلّفه مبلغاً من المال في إعادة طباعة الرسالة ، وهكذا ،  
فذلك ما لا يوصف إلا بصفةٍ واحدةٍ هي الصدق .

هذا ولو كان أحدٌ من أعضاء لجنة المناقشة المؤقّرين - وقد انتقلوا إلى العالم الآخر جميعاً - قد تنبّه إلى شيء من هذا لكان من حقّي وحقّك أن نقول :  
إنّ الدكتور الطاهر الأستاذ - الأب رأى أنّه لم ينبت الريشُ على جناحي ابنه بعدُ ، فلا يحتملُ الزغبُ الذي فيهما ما لا طاقة له به ، فرأى أن يتحمّل أعباء الطيران وحده ، ولكنّ أحداً من لجنة المناقشة لم يُحاسِبني على إغفالي الجاسر في طول الرسالة وعرضها ، ثمّ ذكرني بإياه في الملحق فحسب دون سواء من صفحات الرسالة ؟ لم يُحاسِبني أحدٌ ، ولم يعاتبني ، فما معنى أن يثير الطاهر الأمر ؟

إنَّ له معنى واحداً هو صدقه ، مع نفسه ومع الآخرين .

وأحاديثُ صدق الطاهر الطاهر لا تنتهي . ولكنني وعدتُك أن أروي من صدقه ما دمت له عيناى ، وما أراني وفيت بوعدى فدعني أروي لك أنَّه اتَّخذ الدموعَ في أيامه الأخيرة بعد أن ثقل عليه المرضُ حديثاً مع عواده ، وكان عواذه يظنون أنَّه لا يعلمُ بطبيعة مرضه الخبيث ، وأنَّه سيجيبهم حين يسألونه عن صحته أنَّه بخير ، وأنه يرجو دعاءهم وهكذا ، ولكنَّ الطاهر لا يعرف الكذب فقد كتب إليّ - وكنتُ في ليبيا - في ١٩٩٥/٧/٢٥ أي قبل وفاته بسنة وما يزيد على الشهرين يقول : « ... وتبقى بعد ذلك مخطوطاتُ أخرى تمتدُّ إلى العالم الآخر » وإنما ذكر المخطوطات لأنه كان تحدُّث إليّ عما ينتظر الطبع مما أريد أن أعرض إليه فيما بعد .

وهكذا اتَّخذ الدموعُ إجابةً لعواده . يقول أحدُ تلاميذه ، كما نشر في جريدة الجمهورية العراقية الصادرة في ١٩٩٦/١٠/١٢ ، أنه دخل عليه « فكانت تحيته قطرات من الدمع تحدَّرت على خديه... ووصلتُ إلى أذني هممةً بأنه يردُّدُ أبياتاً من الشعر ، فاقتربتُ من سريره ، فسمعتُه يقرأ بلسان أثقلته الأدويةُ المخدَّرة شيئاً من أبيات مالك بن الرِّيب التي رثى بها نفسه :

أقيما عليَّ اليومَ أو بعضَ ليلةٍ	ولا تُعجلاني قد تبَيَّن ما بيا
وقوما إذا ما استلَّ رُوحى فهَيَّنا	لي السَّدَر ، والأكفان عندَ فنانيا
خذاني فجزاني ببردي إليكما فقد	كان قبل اليوم صعباً قياديا »

ولم يكملِ الطاهر الطاهر أنَّه كان عطافاً إذا الخيل... لأنَّ ذلك لم يكن من شأنه ، وإنما كان من شأن ابن الرِّيب وأمثاله من الفرسان ، أما هو فكان فارساً من نوعٍ آخر . ولكنَّ الذي كان من شأنهما معاً عندي وعند سواي أن يقول ابن الرِّيب قصيدته اليتيمة التي لا نجد أختاً لها في العربية ولا بدَّ أنَّه كان سيكون لها - لو عاش - أختُ وأخواتُ ، وأن يموت الطاهر ، ولكتبه أخوة لم تر النور : فقد كتب إليّ قبل وفاته بأربعة أشهر وأربعة أيَّام أعني يوم : ١٩٩٦/٦/٥ يقول :



« ويصدر لي في عام ١٩٩٥ أكثر من كتاب ، ورجوت الناشرين أن يرسلوا إليك نسخاً منها ولكنهم لم يستجيبوا . وهذه هي الكتب :

١- منهج البحث الأدبي ، ط ٨ ، منقحة ، عن الدار المتحدة للنشر ، المبنى الاستعماري للجامعة الأردنية ، ص ب . ٥٢٢٩ عمان - الجبيهة .

٢- المرزوقي شارح الحماسة ناقدًا ، عن الدار نفسها .

٣- محمد بن سلام وكتابه طبقات الشعراء ، عمان دار الفكر ، ص ب . (١٨٢٥٢٠)

٤- سليمان بن سليمان النبهاني شاعرٌ من عصر النباهة في عُمان ، اللادقية ، دار الحوار .

ويصدر لي من الدار المتحدة « وأنت تقرأ في ٩٣ كتاباً »

وعن الموسوعة الصغيرة ، مصادر صناعة الكتابة مصادر للنقد الأدبي

ولي نحو من عشرة كتب مخطوطة لا أدري ماذا سيكون مصيرها ؟

وأنت... ؟

ولقد أزيدك على ما قال زيادة لا تخلو من فائدة ، فأقول : إنّه كتب إليّ قبل أن يصدر كتابه عن محمد بن سلام الجمحي ، كتب في : ١٩٩٥/٧/٢٥ يقول : « ... أما أنا فلم يخل المرضُ دون متابعة العمل ، ولعلّه زاد المتابعة حدة... ويصدر لي في عمان... محمد بن سلام وكتابه طبقات الشعراء ، وقد أضفتُ إليه باباً في مناقشة الشيخ محمود شاكر ، وأثبتُ بالبرهان القاطع تدخله في نصوص المخطوطة المحققة » .

فإذا لم ينفعك في شيء . أن الفقيد الطاهر أثبت بالبرهان القاطع أن الشيخ الجليل شاكر قد تدخل في كتاب ابن سلام ، فقد ينفعك أن أقول : إنه كان ناقش الشيخ شاكر منذ مدة في تحقيقه « طبقات الشعراء » وظنّ الناس أنّ

الجليلين : شاكر والطاهر قد فرغا مما كانا فيه ، ولكنّ تشبث الطاهر بالحقيقة حتّى بعد مُرور كلّ هذه السنوات الطويلة عليها شيء لا يمكن أن ينتهي . ولعلّه ينفعك أن أقول : إنّ الموسوعة الصغيرة الذي ذكر أن كتابه عن صناعة الكتابة مصدراً من مصادر النقد سيصدر في سلسلتها هو الذي أسّسها ، فما كان العراق ولا وزارة الثقافة فيه يعرفان شيئاً اسمه الموسوعة الصغيرة لولا أن رفع علي جواد الطاهر اقتراحاً بالأمر .

وكتب لي ولدّه لبيد - وهو مهندسُ هرب من مجاعة الحصار العراقية في حياة أبيه إلى ليبيا - كتب لي وأنا في بولنדה يقول في : ١٧/٣/١٩٩٧ : « ... الوالدة عكفت على تجميع أوراق الوالد ، وقد تمّ حصرُ مخطوطاتٍ لستّة عشر كتاباً... وأنت تعرف مصاعب الطبع... » .

وأريدُ أن أقول الآن ولن أزيد : إنّنا مسؤولون أمام الله وأمام أمتنا ، وأمام التاريخ إذا ضاع ما كتب الطاهر . إنّهُ كتبَ ما كتبَ لنا ولأمتنا ولتاريخنا ، فهل سنحترم هذا التاريخ ؟

اللهمّ إنني قد بلغتُ فاشهدُ .

اللهم ولا يَكُنْ علي جواد الطاهر أهونَ علي أمتنا ممّن أكرمنا بحقّ وبدون وجهٍ حقّ . آمين .

بولنדה - بوزنان

في : ٢٢/٥/١٩٩٧



# أديبان خالدان

أبو الفرج الأصبهاني  
الظاهر مرة أخرى



# أبو الفرج الأصبهاني

## واغانيه

حظي كتاب «الأغاني» باهتمام الأدباء قدماء ومحدثين ؛ لما فيه من مادة غنية ، وعلم جم حتى كاد لا يُعرف صاحبه أبو الفرج الأصبهاني إلا به ، فتحدث عنه القدماء حديث تقرير وثناء حتى كان من رأي ابن خلدون فيه أنه «هو كتاب العرب ، وديوانهم ، وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم ، وملتهم ، وسيرتهم نبينهم» ، وآثار خلفانهم ، وملوكهم ، وأشعارهم ، وغناؤهم... فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب»<sup>(١)</sup> .

وأخذه المعاصرون بالبحث والدرس ، فكتب عنه - على سبيل المثال لا الحصر - محمد عبد الجواد الأصمعي كتاباً سماه «أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني» ، وآلف فيه الدكتور محمد أحمد خلف الله كتاباً نفيساً عنوانه «صاحب الأغاني ، أبو الفرج الأصبهاني الراوية» ، وعرض إليه الدكتور زكي مبارك عرضاً طيباً في كتابه «النثر الفني في القرن الرابع» ، وقصر الدكتور الطاهر أحمد مكي في كتابه «دراسات في مصادر الأدب» عن شوط أولئك ، فسطا على الأصمعي ومبارك ، وآلف مما قالاً مبحثاً عن «الأغاني» نشره في الجزء الأول من كتابه . وإني لأرجو أن أفرغ لأبين هذا السطو في قابل الأيام .

(١) المبر وديوان المبتدأ والخبر ١٠٧٠١ .

\* ينظر ملحق الكتاب المستثنى بالأدب .

هذا ما حظي به الكتاب بل هو - على الأصح - بعضه . أما صاحبه فلم يكده يلقى ، لولا كتاب خلف الله ، الخطوة نفسها ، إذ لم يكده هؤلاء المؤلفون - عدا الدكتور خلف الله - يضعون في حساباتهم أن يقرأوا كتب أبي الفرج لعلة ذكر شيئاً من سيرته فيها ، وإنما ظلوا يعيدون من أخباره المتناقضة المتنافرة ما لا يكاد يرسم له شخصية واضحة . مما يجعلني مضطراً للحديث عن ترجمته .

ولقد كنتُ قبل أن يتفضل عليّ أحد الأصدقاء بكتاب خلف الله قد نقبتُ في كتابي أبي الفرج ، «الأغاني» و«مقاتل الطالبين» أستخرج منهما أشياء . حتى وجدت أن الدكتور خلف الله قد نخل «الأغاني» نخلًا فأخرج منه صورة هي أوضح ما نعرف لأبي فرج من صورة . على أن هذا لا يمنعي أن أقول : إنني وجدتهني أختلف معه قليلاً في هذا الموضوع أو ذاك ، وأنفق معه حيث سكتُ فأفيد منه ، في ترجمة أبي الفرج خاصة . وأقف الآن عند أبي الفرج فأقول :

هو عليّ بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم... ينتهي نسبه الى بني أمية من خلال جدّه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية المعروف بمروان الحمار ، لُقّب بذلك لكثرة ما احتمل في خلافته من الفتن والاضطرابات والثورات . وهو - كما سردتُ لك نسبه - عربيّ صليبة ينتهي الى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

أما نسبه لأمه فلم يكن كذلك ؛ فأمه هي بنتُ يحيى بن محمد بن ثوبة فقد نقل بعض رواياته في الأغاني قائلاً : « وقد نسختُ هذا الخبر من كتاب جدي يحيى بن محمد بن ثوبة بخطه... »<sup>(١)</sup> ، وآل ثوبة هؤلاء ، وهم على ما يبدو - ثلاثة إخوة هم : أحمد بن محمد بن ثوبة ، وجعفر بن محمد بن ثوبة ، وجدّ أبي الفرج لأمه : يحيى - ثلاثتهم من الكتاب ، وهم من أصل فارسي نصراني ،

(١) الأغاني . وفيما يخص نسبه لأبيه . انفراد ابن اندليم في الفهرست : ١٢٧ بقوله « إنه من ولد هشام بن عبد الملك » .

ولكنهم صاروا الى الإسلام ، والى التشيع - على وجه خاص - منه . وقد عمل نفر من آل ثوابة في دواوين الخلافة العباسية « منذ أواسط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع »<sup>(١)</sup> ومن هؤلاء النفر جد أبي الفرج وأخواه .

وأول من لمع اسمه من هؤلاء أبوهم « محمد بن ثوابة ، وكان يعمل في دواوين الدولة ، وهو من ممدوحى البحتري ، وكان ابنه جعفر يتولى ديوان الرسائل... بآخرة من عصر المعتمد ، وقد توفي سنة ٢٨٤ للهجرة... »<sup>(٢)</sup> .

وإذا عرفنا أن حاضرة الخلافة في القرن الثالث قد انتقلت الى سامراء منذ خلافة المعتصم العباسي ، وعرفنا أن أسرة أبي الفرج هم من الكتاب ، وأنهم كانوا يستوطنون سامراء<sup>(٣)</sup> ، تيسر لنا أن نقول : إن الأسرتين : آل ثوابة والأصبهاني كانتا تسكنان سامراء ، وإن اشتراكهما في مهنة الكتابة في دواوين الخلافة قد أقلت محمد بن أحمد الأصبهاني أن يخطب لولده الحسين ، بنت يحيى بن محمد ابن ثوابة . ولكننا لا نعرف متى كان ذلك ، رغم معرفتنا أن هذا الزواج أنجب ولداً سمّاه أبوه الحسين ، علياً وهو صاحبنا الذي نترجم له ، وأقول لا نعرف : لأننا وجدنا أن كنية الحسين الأصبهاني أبو العباس وليس أبا علي .

أما سنة ولادته فهي باتفاق المؤرخين ممن ترجموا له ٢٨٤هـ ، وهي السنة التي توفي فيها أخو جده لأمه : جعفر بن ثوابة ، والتي توفي فيها البحتري الشاعر أيضاً ، وأما مكانها فهو محل خلاف ، فقد فهم الذين ترجموا لأبي الفرج من قول المؤرخين عنه « أصفهاني الأصل ، بغدادى المنشأ » أنه ولد بأصفهان دون أن يكون لديهم دليل على مكان ولادته ، وجعل الدكتور خلف الله يرجح أن ولادته كانت بسامراء ، ذلك « أن أسرة أبي الفرج كانت تقيم

(١) تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني ١ ، ٦٢٣ . والأمر مفضل في صاحب الأغاني ١١١ وما بعدها للدكتور خلف الله .

(٢) تاريخ الأدب العربي ١ ، ٦٢٣ .

(٣) ينظر صاحب الأغاني ١٠-١١ ، ٣٦ .



بسرّ من رأى . وكانت تقيم بها قبل مولد أبي الفرج بخمسين من السنين .  
كان يقيم بها جده ، وجدّ أبيه ، وكان يقيم بها عمّه ، وعمّ أبيه...»<sup>(١)</sup> .

وحجة الدكتور خلف الله - كما يبدو - أول الأمر مقنعة ، مقبولة ، ولكن  
الذي يمنعي من قبولها هو أن مؤدّبه - أعني أبا الفرج - هو «محمد بن الحسين  
الكندي الكوفي»<sup>(٢)</sup> من الكوفة ، وأن من شيوخه الكوفيين محمد بن عبد الله  
الحضرمي المتوفى في سنة ٢٩٧هـ ، ومحمد بن جعفر القتّات المتوفى سنة  
٣٠٠هـ<sup>(٣)</sup> ومعنى هذا أنه سمع من الحضرمي في الكوفة قبل عام ٢٩٨هـ ؛ لأنه  
توفي في ربيع الآخر من هذا العام أي في الربيع الأول منه ، ومعناه أيضاً أن أبا  
الفرج سمع منه وله من العمر اثنا عشر عاماً . فإذا كان هذا هو مقدار عمره في  
السماع فكم كان عمره حين أدّبه محمد بن الحسين الكندي الكوفي ؟

والذي جعل الدكتور خلف الله يرجّح أنه وُلد في سامراء ظلّه أن أباه بعثه  
الى الكوفة وحيداً من أجل التحصيل<sup>(٤)</sup> ولكنني أستبعد أن يفعل هذا أب بابنه ،  
لأن الشابت أن مؤدّبه هو الكندي الكوفي - كما ذكرت - وأنه كان خطيب  
المسجد الجامع بالقادسية ، والقادسية أقرب كثيراً الى الكوفة منها الى سامراء .  
أم ترى أنّ علي بن محمد الأصبهاني استدعى الكندي الكوفي الى سامراء يؤدّب  
ولده ؟ وهذا ما لا أرجّحه ؛ لأنه ما كان أسهل أن يجد له مؤدّباً في سامراء .  
نفسها . وأكاد أظن أن الكندي أدّب أبا الفرج في الكوفة ، يحملني على هذا  
الظن أنه سمع من شيوخ كوفيين ألف من سماعه عنهم - فيما بعد - كتابه  
«مقاتل الطالبين» وله من العمر تسع وعشرون سنة مثل «أحمد بن محمد بن

(١) صاحب الأغاني ٢٢٠ .

(٢) الأغاني . وقد خلط الدكتور خلف الله بين محمد بن الحسين الكندي ، والخممي الكوفي . ويبدو لي أنهما  
شخصتان وليس شخصية واحدة . والخممي هذا قد قدم الى بغداد .

(٣) ينظر صاحب الأغاني ١٠٢٠ .

(٤) السابق ١٠٨١ .

سعيد الهمذاني ، ومحمد بن الحسين الكندي ، وعلي بن العباس المقاني ، وأحمد بن عيسى بن أبي موسى العجلي ، والحسين بن الطيب بن الشجاعى البلخي ، ومحمد بن علي بن مهدي ، وكثير غيرهم ممن نصّ أبو الفرج نفسه على أنه قد أخذ عنهم بالكوفة<sup>(١)</sup> ، ويحملني عليه أيضاً ما نعرفه من أن الفرق بين المعلم والمؤدّب - في أحد وجوهه - هو أن المؤدّب يُستقدم الى بيت الصبي ، على حين يذهب الصبي الى المعلم في كتابه . فإذا أيقنا - كما يقول الدكتور خلف الله نفسه - بأن الكوفة « مدينة النشأة والتربية الأولى »<sup>(٢)</sup> وأن من تعليم الطفل عند معلم أو مؤدّب هي عادة « السنة الخامسة أو السادسة من عمره »<sup>(٣)</sup> حتى يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة - على أكثر تقدير - من عمره ، جاز لنا أن نتصور أنه إنما أذّبه الكندي الكوفي ، لأنه ولد بها ، أو لأنه جاء به أبواه - على أسوأ الفروض - الى الكوفة وهو طفل غريب ، وإلا فمن غير المعقول أن يبعث أباً بابنه من سامراء الى الكوفة - على ما بينهما من المسافة - وله من العمر خمس سنين أو ست .

أما لماذا هجر علي بن محمد الأصبهاني سامراء ، فيُخَيَّل لي أنه فعل هذا أسوة بمن هجرها بعد أن نقل المعتمد حاضرة ملكه منها الى بغداد سنة ٢٧٦ هـ ، فقد هاجر خلق كثير من سامراء حتى لقد أحزن منظرها شاعراً مثل أبي علي البصير فراثها بقصيدة ميمية<sup>(٤)</sup> . وأما اختياره الكوفة فلعله جاء من وجهين أولهما « أن الكوفة أقرب البيئات الثقافية الى قرية النيل وهي قرية آل ثوابة »<sup>(٥)</sup>

(١) السابق ١٠٢-١٠٣ .

(٢) نفسه .

(٣) حصار العراق - مجموعة من المؤلفين ٨ ٢٦١ .

(٤) انظر القصيدة في أشعار أبي علي البصير ، مجلة المورد (العراقية) السنة الأولى ، العددان الثالث والرابع ، ١٩٧٢ .

(٥) صاحب الأغاني : ١٠٤ . والنيل قرية ماتزال قائمة في العراق تقع قرب مدينة الحلة . وممن تعرض إليها ابن مبر في رحلته .

الذين منهم - كما رأينا - زوجه ، وثانيهما أن نُذَرِ الفتنة الطائفية قد بدأت تلمع منذ أن امتحن المتوكلُ الفقهاء في خلق القرآن ، وأن من الخير له - وقد أوشكت هذه النذر أن يزداد لمعانها في العقدين الأخيرين من القرن الثالث - أن يسكن مدينة يعتنق هو وزوجه وابنه مذهبها أعني بهذا المذهب ، التشيع لآل البيت .

ومهما يكن من أمر فقد تأدب صاحبنا في الكوفة ، واختياراً مؤدّبٍ لطفل لم يكن يقع إلا لأولاد الخلفاء والوزراء والمياسير من الناس ، إذ كان هؤلاء « يستقدمون المعلمين إلى قصورهم لتأديب أولادهم ، وتعليمهم ، وتهياتهم لما ينتظرهم من مهام جسيمة »<sup>(١)</sup> . وإذا ، كان الصبي على ما يبدو من عائلة موسرة امتن أفرادها الكتابة ، وهو مُعِمٌّ مُخَوِّلٌ فيها .

ويمكننا أن نتخيل ما تلقاه علي بن الحسين عن مؤدبه من حفظ القرآن الكريم - على عادة ذلك العصر - وما يمكن أن يُعينه على فهم بعض آياته من نحو وإعراب يسيرين ، ورواية شاهد أو مثلي ، وما تلقاه عنه من قدر يسير من أشعار العرب ، ومن تلك الأشعار ما رواه أبو الفرج نفسه عن مؤدّبه ، فقد قال : « أخبرني محمد بن الحسين الكندي مؤدبي قال : حدثني علي بن محمد النوفلي ، قال حدثني عمي قال : دخل الحكم بن قنبر على عمي وكان صديقاً له فبشّ به ، ورفع مجلسه ، وأظهر له الأنس والسرور ثم قال أنشدني أبياتك التي أقسمت فيها بما في قلبك فأنشده :

وَحَقَّ الَّذِي فِي الْقَلْبِ مِنْكَ ، لِإِنَّهُ عَظِيمٌ ، لَقَدْ حَصَنْتُ سِرَّكَ فِي صَدْرِي ... فقال لي : يا بني اكتبها واحفظها ففعلتُ وحفظتها يومئذ وأنا غلام »<sup>(٢)</sup> .

وأما ما عدا ذلك فقد دلّنا عليه الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ في فصله عن

(١) حضارة العراق ٨ : ٢٧ .

(٢) الأغانى .

المعلمين ، إذ بين لنا البرنامج الذي يقرنونه للأطفال من خلال ما أوصى به المعلم قائلاً : « وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه الى السلامة من لائحس اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب [إن] كتبه ، وشعر إن أنشده ، وشي . إن وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أرد عليه منه ، من رواية المثل [و] الشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع... وعويص النحو لا يجري في المعاملات ولا يضطر إليه شيء ، فمن الرأي أن يعتمد [ به في حساب العقد دون حساب الهند ، ودون الهندسة ، وعويص ما يدخل في المساحة... وأنا أقول إن البلوغ في معرفة الحساب الذي يدور عليه العمل [ والتوقي ] فيه ، والسبب إليه ، أرد عليه من البلوغ في صناعة المحررين ورؤساء الخطاطين... ثم خذه بتعريف حجج الكتاب وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ الى المعنى الغامض ، وأذقه حلاوة الاختصار... »<sup>(١)</sup> .

فإذا عرفنا أن الموسرين من الناس حين يستقدمون مؤدباً يشاركونه « عادة في وضع المنهاج الذي يلانم »<sup>(٢)</sup> أولادهم ، أدركنا أن أبا الفرج قد أعد ليكون أبا الفرج الأصهباني ، وليكون واحداً من هذا البيت كتابه ، ورواية ، وأدباً .

وأنتم أبو الفرج - وهو الآن صبي - مرحلة التأذب ، فتعلم القراءة ، والكتابة ، وحفظ شيئاً من القرآن الكريم ، وشيئاً من الحساب أقله فيما بعد أن يتعلم حساب الهند الذي نهى الجاحظ عن تعليمه للصبيان ، والذي أقله - أعني أبا الفرج - أن يقول عن مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب « ... أما ما تقوله العامة إنه قتل يوم الاثنين فباطل... وكان أول المحرم الذي قتل فيه يوم الأربعاء ، أخرجنا ذلك بالحساب الهندي من سائر الزيجات ، وإذا كان كذلك فليس يجوز أن يكون اليوم العاشر يوم الإثنين »<sup>(٣)</sup> .

(١) فصل من صدر كتابه في المعلمين : ١٥٢ ، مجلة المورد ، ٤٤ ، ص ٧ ، ١٩٧٨ عدد خاص بالجاحظ .

(٢) حاضرة المراق ٢٧٠٨ .

(٣) مقاتل الطالبين ٧٨٠ .

أقول : تعلم حساب الهند ، وسمع شيئاً من الحديث النبوي الشريف من شيخين كوفيّين - كما مرّ بنا - هما : الحضرمي ، والقنات ، ولكن محصوله من الحديث الشريف لم يكن شيئاً ذا بال<sup>(١)</sup> ، ولعل اهتمامه بأخبار شهداء البيت النبوي وهو يسمع في الكوفة أخبارهم ، وما أحاط بمصارعهم ، ثم وهو يسمعه من الطبري في بغداد كان أكثر من اهتمامه بالحديث الشريف ، ومن هنا قال عنه الذهبي موجزاً كلّ قيمته في الحديث : « أكبر شيخ عنده مطّين ، ومحمد بن جعفر القنات » .

ولعل قلة اهتمامه بالحديث الشريف تومئ الى أن الصبي لم يكن مستعداً في نفسه وفي تربيته الموسرة أن يكون متديّناً شديد التدين ، فهو الى رقة التدين أقرب منه الى التزمّت والاستقامة . فإذا وافقنا أنه جاء الى بغداد « سنة ثلثمائة أو قبلها بقليل »<sup>(٢)</sup> لأن في شيوخه البغداديين من مات في السنة نفسها ، فمعنى هذا أنه ناهز الحلم أو بلغه وهو في الكوفة تلك المدينة التي عرفت من ديارات النصارى وخمورها مثل معرفتها بمساجد المسلمين وصلواتها ، وعرفت من دور الفناء مثل معرفتها من حلقات العلماء ، أفترى أن الفتى امتنع عن زيارة تلك الديارات وغشيان تلك الدور ؟ إنه إن يكن امتنع عنها خيفة من رقابة أبيه فما أظنه امتنع عن سماع أخبارها ، والتلذذ بهذا السماع ، إذ ظل يحنّ الى ديارات النصارى المحيطة ببغداد - بعد أن أقام فيها - ويفشاها<sup>(٣)</sup> ، حتى آلف كتاباً في « الديارات » ، وآخر في « الخمارين والخمارات »<sup>(٤)</sup> .

ويهجر آل الأصهباني الكوفة الى بغداد لأسباب لا نعلمها ، ولعل أن يكون في هذه الأسباب أن بدأت ثورة القرامطة في سواد الكوفة ، وقد بلغ الحسين بن زكرويه القرمطي من القوة في سواد الكوفة أنه هاجم في المحرم من سنة ٢٩٤

(١) ينظر صاحب الأغاني ١٠٤ .

(٢) نفسه ١١٢ .

(٣) ينظر معجم الأدباء ١٢ : ١١٢ ما بعدها .

(٤) ينظر نفسه ١٢ : ٩٩ .

« قوافل الحجاج في أوبتها من المسجد الحرام ونهب جميع ما كان معها من الأموال مما قدّرت قيمته بنحو مليونين من الدنانير ، وقتل من الحجاج نحو عشرين ألفاً... »<sup>(١)</sup> وهذا يعني أن السبب الذي دعاهم الى اتخاذ الكوفة مسكناً أول الأمر قد انتفى ، فقد اضطرب جبل الأمن فيها ، ولم تعد وقفاً على الشيعة الزيديين - وآل الأصهباني زيديون - وإنما صار الإسماعيليون ومنهم القرامطة أصحاب كلمة ، وثورة فيها . هذا سببٌ ، وأما الآخر فعلة أن الفتى وأباه رأيا أن لم يعد في وسع الكوفة أن تمتدّ الصبي بعلم أوسع مما أمده به ، فليس في الكوفة - خلال القرن الثالث - نحوئٌ كبير ، ولا لقويٌّ كبير ، حتى لقد بلغ الأمر بشاعر من شعرائها أن يقول : إنه ربما يضطر أن يهجر معاني مليحه تجنيه لأنه يشك في لفتها وفي إعرابها<sup>(٢)</sup> ، ولم يكن هذا الشاعر - وهو علي بن محمد الحماني - ملوماً ؛ لأنه عاش في النصف الثاني من القرن الثالث فيها ، ولم يكن يومئذ من حلقات العلماء الكبار شيء فيها ، إذ هاجر علماؤها الكبار الى بغداد . وعلّ هنالك غير هذين السببين الظاهرين من الأسباب الخفية ما لا نعلمه ، ولا تعلمه كتب التراجم ، ومصنّفات المؤرخين .

وجاء الفتى هو وأبوه الى بغداد في مطلع القرن الرابع - كما قلنا - أو قبله بقليل ، وقد تشوّفت نفس الفتى الى حلقات العلماء فيها ، ومجالس الغناء ، فاتخذ له فيها داراً « على دجلة في المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة ، وملاصقة لدار أبي الفتح البريدي »<sup>(٣)</sup> ولا نعلم إن كان اشتراها في حياة أبيه أو بعد موته ، ولكننا نعلم أن موقعها مما لا يسكن فيه - كما هو ظاهر الحال - إلا الأثرياء الموسرون ، فجاره البريدي وزيرٌ ، ودرب سليمان نفسه هو درب سليمان بن جعفر بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي .

(١) تاريخ الأدب العربي ٤ : ٤٠١ . وينظر تفصيل الخبر في العميون والحدائق في أخبار الحقائق ٥ : ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) ينظر الموشح للمرزباني ٣٤٦ .

(٣) معجم الأدباء ١٢ : ١٠١ .

ويبدو أنه إنما سكن هذه الدار ، لا لأنه موسرٌ فحسب ، ولكن لأنه شيعي فقد انقسمت بغداد في هذا القرن - وقد صارت تُدْرُ الفتنَةُ الطائفية التي فرَّ منها أبو صاحبنا إلى الكوفة واقعاً دموياً - إلى جانب يغلب على سكانه التسنُّ وهو الرصافة التي هي الجانب الشرقي من بغداد ، وجانب آخر يغلب على أهله التشيع وهو الكرخ الذي هو الجانب الغربي من بغداد <sup>(١)</sup> .

ولكن الفتى الشيعي لم يكن متعصباً ، فقد أخذ عن شيوخ مذهبهم غير مذهبه ، وعن آخرين مذهبه مثل مذهبهم <sup>(٢)</sup> فلم يذم هؤلاء على مذهبهم ، ولم يحمّد أولئك بما يعتقدون ، فهو يروي عن محمد بن جعفر الطبري المتوفى سنة ٢١٠ هـ صاحب «تاريخ الأمم والملوك» والتفسير المشهور ، الذي «كان له مذهب في الفقه اختاره لنفسه» <sup>(٣)</sup> ، والذي «دُفن ليلاً خوفاً من العامة» <sup>(٤)</sup> ، ويأخذ عن اسماعيل بن يونس الشيعي ، ثم لا يمنعه مذهبه الشيعي ، ولا أخذه عن شيوخ من الشيعة من الأخذ عن محمد بن يحيى الصولي - ورواياته عنه في الأغاني عديدة - هذا الصولي الذي «توفي مُستترّاً بالبصرة لأنه روى خبراً في عليّ عليه السلام فطلبته الخاصة والعامة لقتله» <sup>(٥)</sup> .

ولقد جعلتُ قبل قليل في أسباب هجرة الفتى إلى بغداد خلوة حلقات الكوفة من عالم كبير في اللغة أو النحو يأخذ عنه ، وساقني إلى ذلك فضلاً عن معرفتي بالكوفة - وهي معرفة متواضعة - أنني رأيت جُلَّ شيوخ أبي الفرج في بغداد من الذين اتصل بهم وأخذ عنهم ، وقرأ عليهم هم من اللغويين النحاة ، فأخذ عن أبي

(١) أخبار هذا الانقسام مستفيضة في كتب التاريخ بحيث لا أرى بي حاجة إلى النص والاستشهاد .

(٢) صاحب الأغاني ١١٦٠ .

(٣) الفهرست ٢٩١٠ .

(٤) تجارب الأمم لمسكويه ٨٤٠ : ٥ .

(٥) معجم الأدباء ١٨٠ : ٤٠ .

بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي المتوفى سنة ٢٢١هـ وقد كان « إمام عصره في اللغة والأدب والشعر والأنساب »<sup>(١)</sup> .

وأخذ عن أبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري المتوفى سنة ٢٢٨هـ ، وقد « كان من أعلم الناس ، وأفضلهم في نحو الكوفيّين ، وأكثرهم حفظاً للغة ، وكان في نهاية الذكاء والفطنة ، وجودة القريحة ، وسرعة الحفظ ، وكان يُضرب به المثل في حضور البديهة وسرعة الجواب ، وأكثر ما كان يُملّيه من غير دفتر ، ولا كتاب... »<sup>(٢)</sup> .

وأخذ عن إبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بـ « نفطويه » لقبوه بذلك ، لدمايته ، وقد « كان عالماً بالعربية ، واللغة ، والحديث ، صادقاً فيما يرويه حافظاً للقرآن ، فقيهاً على مذهب داود الظاهري... وكان مجلسه في مسجد الأنباريين بالغدوات ، وتوفي في صفر لستّ خلون منه سنة ٢٢٣هـ... »<sup>(٣)</sup> .

وأخذ عن الأخفش الصغير أبي الحسين علي بن سليمان بن الفضل « وكان من أفاضل علماء العربية... وتوفي ببغداد سنة ٣١٥هـ وقيل سنة ٣١٦هـ »<sup>(٤)</sup> وقد لقيه - كما يبدو لي - بعد عودته من حلب ؛ لأن الأخفش - كما يقول ياقوت الحموي - « قدم... مصر في سنة سبع وثمانين ومائتين ، وخرج منها سنة ثلاثمائة الى حلب »<sup>(٥)</sup> ثم عاد الى بغداد فبقي فيها حتى وفاته .

وأخذ - كما قلت - عن محمد بن جرير الطبري ، ولا بد أن يكون قد أخذ عنه شيئاً من التاريخ ، وشيئاً آخر من التفسير فقد « كان يختلف إليه... يقرأ عليه كتبه »<sup>(٦)</sup> في داره .

(١) أبو الفرج... وكتابه الأغاني للأصمعي : ٦١ .

(٢) السابق : ٦٢ .

(٣) السابق : ٦٢-٦٤ .

(٤) السابق : ٦٣ .

(٥) معجم الأدباء ، ١٢ : ٢٥٥-٢٥٦ .

(٦) السابق : ١٨ ، ٢٧ .



وحدث عن محمد بن جعفر الصيدلاني ، و« كان صهر أبي العباس المبرد على ابنته ، ويُلقَّب بُرمة ، وكان أديباً شاعراً... »<sup>(١)</sup> .

وأخذ عن أبي عبد الله محمد بن العباسي اليزيدي المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، فوصفه في « الأغاني » بقوله : « ... كان فاضلاً عالماً ثقة فيما يرويه ، منقطع القرين في الصدق وشدة التوقي فيما ينقله ، وقد حملنا عنه وكثير من طلبه العلم ورواته علماً كثيراً ، فسمعنا منه سماعاً جماً »<sup>(٢)</sup> . وقد قرأ عليه أبو الفرج « أخبار أبي كلدة ونسبه ، وديوان شعره » ، كما قرأ عليه وعلى الأخفش « كتاب التناقض »<sup>(٣)</sup> .

وأخذ عن محمد بن خلف وكيع صاحب كتاب « أخبار القضاة » وهو مطبوع متداول ، كما أخذ عن محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩ هـ . « وكان حافظاً للأخبار ، والأشعار ، والمُلح ، وكان فاضلاً بليغاً مؤرخاً عالماً بمجاري اللغة... وكان أحد التراجمة ، ينقل الكتب الفارسية الى العربية له أكثر من خمسين منقولاً من الفرس... »<sup>(٤)</sup> .

وأجازه رضوان بن أحمد الصيدلاني أن يروي عنه ، فقد ذكره في كتاب « الأغاني » قائلاً : « وذكر رضوان بن أحمد الصيدلاني فيما أجاز لي روايته عنه... »<sup>(٥)</sup> .

وأخذ عن أبي خليفة الفضل بن الحُبَاب الجُمحي المتوفى سنة ٣٠٥ هـ ، وأبو خليفة هذا من أهل البصرة ، وقد ولي القضاء فيها<sup>(٦)</sup> ، ولا أعرف إن كان

(١) السابق ١٨ ، ٩٥٠ .

(٢) الأغاني .

(٣) صاحب الأغاني ١١٧١ .

(٤) أبو الفرج ٦٦١ .

(٥) الأغاني .

(٦) تنظر ترجمته في أبو الفرج : ٦٢ .

أبو الفرج قد أخذ عنه مشافهة . إذ رأيته في « الأغاني » يروي عنه فيقول : « أخبرني أبو خليفة »<sup>(١)</sup> مرة ، ويروي عنه مرة أخرى إجازة ، ومرة ثالثة مكاتبة . على أنني أعرف أن أبا خليفة قد أجازته أن يروي عنه ، وأن أبا الفرج كان يكتب إليه فيجيبه ، فهو يقول في موضع من « الأغاني » : « أخبرني أبو خليفة إجازة عن محمد بن سلام... »<sup>(٢)</sup> ، ويقول في موضع آخر : « كتب إلي أبو خليفة الفضل بن الحباب ، أخبرنا محمد بن سلام... »<sup>(٣)</sup> ، ومهما يكن من أمر فلا بد أن يكون قد أخذ عنه فضلاً عن اللغة ، والأشعار والأنساب كتاب خاله ابن سلام الجمحي ، « طبقات فحول الشعراء » فقد كان أبو خليفة يرويه عن خاله ، وقد وصل إلينا الكتاب من طريقه .

ولا أريد أن أطيل في تعداد من أخذ عنهم أبو الفرج ، ومن تلمذ لهم ، ومن روى عنهم ، فلو قلت إن ذلك أمر صعب لما بالفت . ولكنني أريد أن أضع اللغة والنحو والأدب ، والشعر ، والأنساب جانباً لأقف على أساتذته في الغناء وفي معرفته طُرقه ، لاسيما ونحن نريد أن نعرض - فيما بعد - إلى كتاب الأغاني ، ولقد وقف قبلي على هذا الجانب ، فجلاء جلاء حسناً الدكتور خلف الله ، ولكنه رأى أن يعدّ من أساتذته الذين تأثر بهم من لم يرههم ، ولم يسمع منهم ، وإنما تلمذ على كتبهم لاسيما إسحق الموصلي<sup>(٤)</sup> وإذا كان الإعجاب تلمذة فأشهد أن أبا الفرج معجب غاية الإعجاب بإسحق ، وما أشك في أنه تأثر به وبما سمعه من الألحان التي تروى عنه ، وإن رأى أن كتابه « الأغاني الكبير » منحول عليه ؛ فقد روى ابن النديم قال : « حدثني أبو الفرج الأصبهاني قال : أخبرني أبو بكر محمد بن خلف بن وكيع قال : سمعت حماد بن إسحق يقول :

(١) ينظر الأغاني في أكثر من موضع .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

(٤) ينظر صاحب الأغاني ، ص ٥٦ وما بعدها .

ما ألف أبي هذا الكتاب قط ، يعني كتاب (الأغاني الكبير) ولا رآه... وقال لي أبو الفرج ، هذا سمعته من أبي بكر وكيع حكاية فحفظته واللفظ يزيد وينقص»<sup>(١)</sup> .

أما أنا فأستطيع أن أتخيل أن ليس أستاذه هو إسحق - كما يذهب الى ذلك الدكتور خلف الله - وإنما هو السماع والتذوق لدى غشيان مجالس الغناء ، فلا بد أن يكون أبو الفرج قد بلغ من الإعجاب بما يسمعه من غناء في بغداد ، وربما في الكوفة ما يُدرينا ؟ بحيث سعى الى أن يتعلم أصول هذا الفن على أصحابه ، وأصحاب الصنعة فيه الذين منهم إسحق . ولعل تلمذته لجحظة البرمكي ، وطول ملازمته إياه كانا من قبيل ذلك ؛ إذ لم يلزم أبو الفرج أستاذاً من أستاذته ، كما لزم جحظة ، ولم يتبسّط معه شيخ من شيوخه كما تبسّط معه جحظة ، حتى يخيّل لقاري أخبارهما أنهما كانا صديقين أكثر من كونهما أستاذاً وتلميذاً . ولعل مجالس الغناء والشرب هي التي أزال الحُجُب التي تقوم في العادة بين التلميذ وأستاذه .

وأنا لا أقول هذا ؛ لأن الدكتور خلف الله لم ينبّه إلى هذه الصحبة ، أو إلى ذلك السماع ، وإنما أردت أن أضع الحصان - كما يقولون - أمام العربية .

وإذاً ، نقول : إن من الشيوخ الذين أخذ عنهم الغناء جحظة البرمكي . وجحظة هذا هو «أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى... بن برمك ، شاعر ، مغنّ ، مطبوع في الشعر ، حاذق بصناعة غناء الطنبور... توفي بواسط سنة ٣٢٦هـ وقيل سنة ٣٢٤هـ»<sup>(٢)</sup> ويدلنا تأريخ وفاته أن أبا الفرج لزمه زهاء ربع قرن من الزمن ، ولا بد أن يكون قد قرأ - فيما قرأ عليه - كتابه الموسوم بـ«كتاب الطنبوريين» ، فقد روى عنه في كتاب الأغاني كثيراً ، ونقده بقوله : «وكان مذهبه - عفا الله عنا وعنه - في هذا الكتاب أن يثلب جميع من ذكره من أهل

(١) النهرست : ١٥٨ .

(٢) أبو الفرج : ٦٤-٦٥ .

صناعته بأقبح ما قدر عليه ، وكان يجب عليه ضدّ هذا...»<sup>(١)</sup> . أما من كتب غيره ، فقد قرأ عليه كتاب أستاذه - أعني أستاذ جحظة - في الفناء ، وهو أبو حشيشة<sup>(٢)</sup> .

ومن أساتذته الذين أخذ عنهم الفناء حرمي بن أبي العلاء ، وإبراهيم بن القاسم بن زررور ، وقد « كان يسمعه وهو يُغني بعض الأصوات »<sup>(٣)</sup> .

ومن الذين أخذ عنهم أبو الفرج عبد الله بن المتوكل ، وعجائز المغنيات اللاني أدركن محمد بن أحمد بن يحيى المكي المغني البارع مثل قمرية العمرية<sup>(٤)</sup> .

ومن الدور التي كان يغشاها أبو الفرج يسمع فيها الفناء ، ويأخذ عنها الثقافة الغنائية دار نفطويه أستاذه في اللغة والنحو وأيام الناس ، فقد « كان لنفطويه جوار يُجِدُن الفناء ومنهنّ واحدة عرفت بقارئة الألحان »<sup>(٥)</sup> ، ودور آل المنجم ، إذ هم معروفون بالثقافة الغنائية فقد تحدث صاحب بن عباد عن علي ابن هارون المنجم فقال : « فسمعت منه أخباراً عجيبة ، وحكايات غريبة ، ومن ستارته أصواتاً نادرة ، مشنّفة ، مقرطقة ، يقول في كل منها الشعر لفلان ، والصنعة لفلان ، أخذته هذه عن فلان أو فلانة حتى يتصل النسب بإسحق أو غيره من أبناء جنسه »<sup>(٦)</sup> .

أما دار جحظة البرمكي وما كان يجري فيها من الفناء وأخباره ، فلعلّ ذكرها يكون من نافلة القول ، إذ كانت طائفة من أصدقائه تغشى داره تسمع منه غناءه<sup>(٧)</sup> .

(١) الأغاني .

(٢) ينظر صاحب الأغاني ١٢٢٠ .

(٣) السابق ١٢٠٠ .

(٤) ينظر المرجع السابق ١٢١٠ .

(٥) نفسه .

(٦) معجم الأدباء ١٥ ، ١١٦٠ بدلالة صاحب الأغاني .

(٧) ينظر معجم الأدباء ٢ ، ٢٥٦٠ .

على أن أبا الفرج ، وقد تعلّم أصول الغناء ، وغشي دوره ، وصارت له فيه ثقافة لم يكن ليسبغ الغناء الحديث الذي كان على عصره ، وإنما بقي متمسكاً بالغناء القديم فقد رأى أن من أفسد الغناء القديم خاصة « بنو حمدون بن إسماعيل ، فإن أصلهم فيه مخارق ، وما نفع الله أحداً قط بما أخذ عنه ، وزرياب الواقفية ، فإنها كانت بهذه الصورة تغير الغناء كما تريد ، وجواري شارية وريق . فهذه الطبقة على ما ذكرت . ومن عداهم من الدور مثل دور عريب ، ودور جواربها والقاسم بن زررور ، وولده ، ودور بذل الكبرى ومن أخذ عنها ، وجواري البرامكة وآل هاشم وآل يحيى بن معاذ ، ودور آل الربيع ومن جرى مجراهم ممن تمسك بالغناء القديم وحمله كما سمعه ، فعسى أن يكون قد بقي عمن أخذ بذلك المذهب قليل من كثير ، على أن الجميع من الصحيح والمغير قد انقضى في عصرنا هذا »<sup>(١)</sup> .

ولعل تمسك أبي الفرج بالغناء القديم ، والصنعة القديمة هما اللذان جعلاه يُعجب بإسحق الموصلي ، ويُعظم طريقته ، وصنعتة .

ومهما يكن من أمر ، فإن أبا الفرج وقد أخذ عن هؤلاء الشيوخ ما أخذ من لغة ، ونحو ، وسير ، وأخبار ، وأنساب ، وأدب ، وغناء لم يكن يكتفي بما أخذ ، وإنما كان يحفظ « من آلة المنادمة شيئاً كثيراً »<sup>(٢)</sup> ويلم ببعض العلوم « مثل علم الجوارح ، والبيطرة ، وتنف من الطب ، والنجوم ، والأشربة وغير ذلك » ، وإذا كنا قد رأينا علمه بالنجوم في ما أخرجه من يوم مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام - كما مر بنا - وما حققه من أنه لا يمكن أن يكون يوم الإثنين ، فقد نرى علمه بالبيطرة في ما رواه أبو الحسين هلال بن المحسن بن... الصابي من قوله : « قصدتُ أنا وأبو علي

(١) الأغاني .

(٢) تاريخ بغداد ١١ : ٢٩٩ .

الأنباري وأبو العلاء صاعد دار أبي الفرج لقضاء حقه ، وتعرف خبره... وصعد بعض غلماننا لإيذانه بحضورنا ، فدفق الباب دقاً حتى ضجر من الدق وضجرنا من الصبر ، قال : وكان له سنور أبيض يُسميه يقفاً ، ومن رسمه إذا قرع الباب قارعاً أن يخرج ويصيح الى أن يتبعه غلام أبي الفرج لفتح الباب أو هو نفسه ، فلم نر السنور في ذلك اليوم ، فأنكرنا الأمر ، وازددنا تشوقاً الى معرفة الخبر ، فلما كان بعد أمد طويل صاح صائح أن (نعم) ثم خرج أبو الفرج ويده متلوثة بما ظنناه شيئاً كان يأكله فقلنا له : عققناك بأن قطعناك عما كان أهم من قصدنا إياك . فقال : لا والله يا سادتي ما كنت على ما تظنون ، وإنما لحق يقفاً - يعني سنوره قولنج ، فاحتجت الى حقنه فأنا مشغول بذلك...»<sup>(١)</sup> .

وأيّاً كان مقدار ضبط أبي الفرج تلك العلوم فإن الذي يهمنا من شخصيته جانبها الأدبي ، فقد روي عنه أنه « كان يحفظ من الشعر ، والأغاني ، والأخبار ، والآثار ، والحديث المسند ، والنسب ، ما لم أر قط من يحفظ مثله »<sup>(٢)</sup> . هكذا قال معاصره التنوخي عنه . ولعل في هذا القول ما يفسر لنا بكوره في التأليف إذ لم تجئ سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة حتى وجد أبو الفرج نفسه منتصباً للتأليف ، فقد فرغ من تأليف كتابه « مقاتل الطالبين » - كما يقول هو - في شهر جمادى الأولى من تلك السنة<sup>(٣)</sup> .

وإذا كان لهذا التأليف من معنى - ولابد أن يكون - فهو أنه بعد إذ انتفع من علم أشياخه في التاريخ والأخبار وما إليهما أنس في نفسه القدرة على أن ينفع الآخرين بعلمه ، فيكون له تلاميذ ، لا من بغداد وحدها وإنما من الأندلس أيضاً . وعلى أننا لا نعلم متى انقطع عن شيوخه ، ومتى انتصب لتلاميذه على وجه

(١) معجم الأدباء. ١٢، ١٠٤١-١٠٥٠ .

(٢) المصدر السابق ١١، ٢٩٩١ . والنجوم الزاهرة ١٤، ١٥١٠ . وغدرات الذهب ٣، ١٩١٠ .

(٣) ينظر مقاتل الطالبين ٧٢١١ .

اليقين إلا أنه بإمكاننا أن نقدّر أن ذلك كان - على أبعد تقدير - في العقد الثالث من القرن الرابع ، إذ ليس بين شيوخه من توفي بعد هذا العقد ، فقد توفي آخر شيوخه أبو بكر بن الأنباري - كما ذكرت - سنة ثمان وعشرين وثلثمائة .

فمن تلاميذه - كما يقول الخطيب البغدادي - الدارقطني<sup>(١)</sup> أبو الحسن علي بن عمر... البغدادي « كان عالماً حافظاً فقيهاً... وقد انفرد بالإمامة في علم الحديث في عصره... ويحفظ كثيراً من دواوين العرب ، منها ديوان السيّد الحميري... »<sup>(٢)</sup> وكانت ولادة الدارقطني سنة ٢٠٦ هـ ووفاته سنة ٢٨٥ هـ ، في ذي القعدة منها وقيل ذي الحجة .

ومنهم - كما يقول الخطيب أيضاً - أبو إسحاق الطبري ، إبراهيم بن أحمد بن محمد وأبو إسحاق هذا أحد من روى كتاب أبي الفرج : « مقاتل الطالبين »<sup>(٣)</sup> وهو المعروف بـ (تيزون) « كان من أهل الفضل والأدب ، وسكن بغداد ، وصحب أبا عمر الزاهد... وأخذ عنه وعن غيره علماً كثيراً »<sup>(٤)</sup> ومن تلاميذه أبو زكريا يحيى بن مالك بن عائذ ، وقد قدم من الأندلس - وهو شيخ - إلى بغداد « لطلب العلم ، ولزم أبا الفرج... »<sup>(٥)</sup> ثم عاد إلى الأندلس فتوفي فيها سنة ٢٧٨ هـ .

ومنهم أيضاً ابن دينار الكاتب علي بن محمد بن عبد الرحيم ، المولود سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، والمتوفى سنة تسع وأربعمائة ، وقد لقي أبا الطيب المتنبّي و« سمع منه ديوانه »<sup>(٦)</sup> ، وشاركه « في أكثر ممدوحيه كسيف

(١) ينظر تاريخ بغداد ١١ : ٢٩٨ .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ١١٧ .

(٣) ينظر مقاتل ٦٠ .

(٤) تاريخ بغداد ٦ : ١٧٠ .

(٥) معجم الأدباء ١٢ : ١٢٩ .

(٦) السابق ١٤ : ٢٤٦ .

الدولة بن حمدان ، وابن العميد ، وغيرهما » ، وقرأ على أبي الفرج « جميع كتاب الأغاني »<sup>(١)</sup> .

ومن تلاميذه أبو علي المحسن بن أبي القاسم علي... التنوخي - وإن لم ينص أحد على تلمذته له - فقد رأيته يروي عن أبي الفرج روايات أجدها في مقاتل الطالبين حيناً<sup>(٢)</sup> ، وفي « الأغاني » حيناً آخر<sup>(٣)</sup> ، والتنوخي هذا ولد سنة سبع وعشرين وثلثمائة بالبصرة ، وتوفي ببغداد سنة أربع وثمانين وثلثمائة<sup>(٤)</sup> ، وله من الكتب : الفرج بعد الشدة ، ونشوار المحاضرة ، والمستجد من فعات الأجواد .

ومنهم أيضاً أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد المغربي « راوية المتنبى » ، وأحد الأنمة ، والأدباء ، والأعيان ، والشعراء ، خدم سيف الدولة ، ولقي المتنبى... وجالس صاحب بن عباد ، ولقي أبا الفرج الأصبهاني ، وروى عنه...<sup>(٥)</sup> وكانت ولادته في سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، وتوفي في وقت العصر من يوم الأربعاء السابع عشر من ذي الحجة سنة عشر وأربعمائة<sup>(٦)</sup> .

ومنهم علي بن أحمد ، « أبو الحسن المعروف بابن طيب الرزاز » ، سمع أبا عمرو بن السماك... وأبا عمر الزاهد... وأبا الفرج الأصبهاني... وكف بصره في آخر عمره ، وكان يسكن الكرخ ، وله دكان في سوق الرزازين . وكان الرزاز... كثير السماع ، كثير الشيوخ ، وإلى الصدق ما هو ، سألته عن مولده فقال : في شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وثلثمائة ، ومات في ليلة الأربعاء السابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وأربعمائة<sup>(٧)</sup> .

(١) السابق ١٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ .

(٢) ينظر على سبيل المثال الفرج بعد الشدة ١٧٠ ، والمقاتل ٣٥٠-٣٥١ .

(٣) ينظر على سبيل التمثيل أيضاً الفرج ١٨٦ ، والأغاني .

(٤) تظن ترجمته في وفيات الأعيان ١٨٣-٥٦٥ ، وتاريخ بغداد ١٢-١٥٥١ .

(٥) معجم الأدباء ١٧-١٢٨-١٢٧ .

(٦) تاريخ بغداد ٦-١٨٩٠-١٩٠ .

(٧) السابق ٦-١٩١٠ .



هذا ما كان من أمر حياة أبي الفرج الأدبية ، أما جوانب حياته الأخرى فنعرف منها أنه كان - كما سبق أن ذكرت - شيعياً . وأريد الآن أن أعيد القول في مذهبه ؛ لأنني رأيت المؤرخين يوحون بأنه كان يتشيع وحده من بين أهله ، فهم كثيراً ما يقولون في ترجمته : إنه « كان أموياً ، وكان يتشيع »<sup>(١)</sup> ، وإنه « من العجائب أنه مرواني يتشيع »<sup>(٢)</sup> ، وإنه « كان شيعياً وهذا من العجب »<sup>(٣)</sup> وما إلى ذلك . وإذا كان المؤرخون يوحون بذلك ؛ فإن خير من درس أبا الفرج من المعاصرين - أعني به الدكتور خلف الله - قد قال ذلك من دون لبس حين قرّر « أن أبا الفرج قد ورث تشيعه عن أسرة أمه »<sup>(٤)</sup> .

وأريد أن أقول بادي ذي بدء ؛ إنه لا يهمني كثيراً أن يكون أبو الفرج الأصبهاني نصرانياً ، أو مجوسياً ، أو مسلماً شيعياً ، وإنما الذي يهمني أن أقرّر الحقيقة التاريخية كما تبدو لي من خلال حياة أبي الفرج نفسها ، فأقول ،

إن الذي يتهماً لي أن الأمر لم يكن كذلك ، وأن أبا الفرج لم يتشيع وحده دون أعمامه وعشيرته الأقربين ؛ وذلك لسببين أولهما ما رواه أبو الفرج نفسه إذ قال : « حدثني حكيم بن يحيى ، قال : كان الحسين بن الحسين بن زيد شيخ بني هاشم ، وذا فُغْدَدِهِمْ ، وكانت الأموال تُحمل إليه من الآفاق . قال : فاجتمعنا يوماً عند جدك أبي الحسن محمد بن أحمد الأصبهاني ، وجماعة من الطالبيين ، فيهم الحسين بن الحسين بن زيد بن علي ، ومحمد بن علي بن حمزة العلوي العباسي ، وأبو هاشم داود بن القسام الجعفري ، فقال جدك للحسين : يا أبا عبد الله ، أنت أقعد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله

(١) السابق ١١ : ٢٢٠-٢٢١ .

(٢) السابق ١١ : ٤٠٠ .

(٣) العبر في خبر من غير ٢ : ٣٠٥ . وشذرات الذهب ٣ : ١٩٠ .

(٤) صاحب الأغاني ١ : ١٠٢ .

كلهم ، وأبو هاشم أقعد ولد جعفر ، وأنتما شيخا آل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجعل يدعو لهما بالبقاء...»<sup>(١)</sup> .

إذ أنا أستبعد أن يشم - لا أن يجالس - شيخ بني هاشم الحسين بن الحسين رجلاً أموياً مثل جد أبي الفرج لو لم يكن شيعياً . على أن الأمر لم يقف عند المجاملة وإنما بلغت المودة بين شيوخ بني هاشم ، ومحمد بن أحمد الأصبهاني بحيث يجتمع عنده أقعد ولد علي بن أبي طالب ، وأقعد ولد جعفر بن أبي طالب ، وبحيث يدعو لهما بالبقاء . على حين يبخل الشريف الرضي بشيء من ماء عينيه على الخليفة عمر بن عبد العزيز - وهو من هو صلاحاً وتقى - لا شيء . إلا لأنه أموي النسب .

يا ابن عبد العزيز لو بكيت الـ عين فتي من أمية لبكيتك  
أنت نرّهتنا عن السب والشتم ، فلو أمكن الجزاء جزيتك

هذا عندي سبب ، أما السبب الثاني فهو أنني أستبعد أن يوافق آل ثوابة وهم من الأسر « الشيعة التي نالها الاضطهاد لتشيّعها ، ووقع على بعض أفرادها أذى من الخلفاء »<sup>(٢)</sup> ، أقول ، أستبعد أن يوافق آل ثوابة أن يزوجوا ابنتهم من رجل أموي هو الحسين بن محمد الأصبهاني لو لم يكن هو وأبوه شيعة ، بل لعل الذي جمع بين الأسرتين فتصاهرتا - من بين ما جمع - كونهما أسرتين شيعيتين .

وصفة القول عندي أنه في حياته المذهبية ، كان شيعياً من أسرة شيعية على أنني لا أعرف - على وجه الدقة - جدّه الأول الذي اعتنق التشيع ، فورثت عنه هذه الأسرة الأموية مذهبه .

على أنني أريد أن أنبه الى أن تشيعه لم يكن ليتعدى حب آل رسول الله

(١) مقاتل : ٦٧٨ .

(٢) المرجع السابق .

صلى الله عليه وسلم . وما هو إلى ذلك ، ولكن هذا الحب لم يمنعه من أن يروي عن سكينه بنت الحسين بن علي بن أبي طالب من الحديث ما لا يليق بامرأة من عامة الناس وليس بامرأة من آل بيت النبوة<sup>(١)</sup> ، هي سكينه بنت الحسين .

وأريد أن أنبه إلى أنه كان - كما قلت - رقيق الدين ، وأنه أقرب إلى المجنون منه إلى الصلاح والتقوى ، فقد كان أبو الفرج من ندماء الوزير أبي محمد المهلبى « منقطعاً إليه ، كثير المدح له ، مختصاً به »<sup>(٢)</sup> ، ويحسب من مجالس الوزير المهلبى أن أنقل ما روي عنه من أن بعض القضاة كانوا « يجتمعون عنده في الأسبوع ليتين على أطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة ، وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضي الإيذجي وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان الوزير المهلبى ، فإذا تكامل الأنس ، وطاب المجلس ، ولذّ السماع ، وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار ، وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والعيش ، ووضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب من ألف مثقال مملوء شراياً قطربلياً وعكبرياً فيفمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرش بها بعضهم على بعض ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم المصبغات ومخانق البرم ، ويقولون كلما كثر شربهم هر... »<sup>(٣)</sup> .

ولابد أن حال أبي الفرج لم تكن تختلف في الخلاعة عن القاضي الإيذجي أو سواء ، بل إن لدينا خبراً يرويه ياقوت نفسه يدلنا على أنه كان من التبسط بين أبي الفرج والمهلبى ما هو أكثر من هذا في مجالس السكر<sup>(٤)</sup> . وحسبك من هذا

(١) ينظر على سبيل المثال ما رواه أبو الفرج من وفود الفردق على سكينه بنت الحسين وما دار بينهما من حديث في الأغاني .

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ١١٤ . وينظر معجم الأدباء ١٢ : ١٠٠١-١٠١٦ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ : ١٦٦١-١٦٧٧ .

(٤) ينظر نفسه ١٢ : ١٠٨٠-١٠٩٠ .

أن هجا الأصبهاني الوزير المهلي - في هذا المجلس - بصدر بيت فاحش أجازته المهلي بما هو مثله في الفحش ، حتى لكان الأمر من طبيعة العصر نفسه .

وإذاً ، لم يكن أبو الفرج بدعاً لا في مجونه ، ولا في سكره ، ولا في حبه الغلمان ، وإنما هو ابن عصر من أتمته في المجنون الحسين بن الحجاج ، وابن سكرة الهاشمي .

ومن جوانب حياته الأخرى أنه كان صديقاً حميماً للوزير المهلي قبل أن يتولى الوزارة وبعدها « إلى أن فرّق بينهما الموت »<sup>(١)</sup> ، ولعل هذه الصبغة هي التي جعلت الوزير المهلي لا يكلف أبا الفرج بشيء من العمل يشق عليه ، فاختره « في كل شيء مريح »<sup>(٢)</sup> . ولعل هذه الصبغة هي التي قربته من معز الدولة البويهبي فكان « نديماً له »<sup>(٣)</sup> .

ولابد لي هنا أن أعرض إلى جانب من جوانب أبي الفرج بدا القدماء والمعاصرون معاً متفقين عليه كما لو أنه من المسلّمات ، أما ذلك الجانب فهو ما روي من أن أبا الفرج « كان وسخاً قذراً لم يغسل له ثوباً منذ فصله إلى أن قطع... »<sup>(٤)</sup> ، وأنه بلغ من هذه الوساخة ، وقلة المبالاة فيما يفعله أنه « كان جالساً في بعض الأيام على مائدة أبي محمد المهلي فقُدّمت سكباجة وافقت من أبي الفرج سعة ، فبدرت من فمه قطعة من بلغم فسقطت وسط الغضارة ، فتقدم أبو محمد برفعها وقال : هاتوا من هذا اللون في غير الصحيفة ، ولم يَبِنْ في وجهه إنكار ، ولا استكراه ، ولا داخل أبا الفرج في هذه الحال استحياء ولا انقباض »<sup>(٥)</sup> .

(١) السابق ١٣ ، ١٠٥١ .

(٢) نفسه .

(٣) أبو الفرج ، ١١٥١ .

(٤) معجم الأدباء ، ١٣ ، ١٠١١ . وينظر من المعاصرين - على سبيل المثال الأحمدي في أبو الفرج ، ١٤٤-١٤٥ .

والسيد صقر في (ب) من مقدمة مقاتل الطالبين . وخلف الله في صاحب الأغاني ، ١١٩ .

(٥) معجم الأدباء ، ١٣ ، ١٠٢١ . والسكباجة مرق يُصنع من اللحم والخل والزعفران كما في حاشية المعجم .

وينبغي لي أن أقول مرة أخرى كما قلت في مذهبه : إنه لا يهمني أن يكون وسخاً أو أنيقاً ، حياً أو غير حيٍّ ، بقدر ما يهمني أن أقرر أن في نفسي شيئاً من صحة هذه الأخبار ، مردؤه أنها وردت في كتاب أبي الحسين هلال بن المحسن الصابي . « الذي آلفه في أخبار الوزير المهلبى »<sup>(١)</sup> ، فما يمتع - والحال تلك - عليه أن يصطنع المناقب للوزير ، وأن يصطنع له شدة توقيه في حفظ حرمة الصحبة التي بينه وبين أبي الفرج ، وإلا فإنه من العجب العجائب أن يصبر المهلبى على أبي الفرج حتى « لم يبين في وجهه إنكار ، ولا استكراه » ، والصابى نفسه يروي لنا عن تأتق المهلبى في مطعمه ، ونظافته فيه أنه كان لا يدخل ملعقة يأكل بها إلى فمه مرتين فكان « إذا أراد أكل شيء بمعلقة كالأرز واللبن وأمثاله وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً - وكان يستعمله كثيراً - فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية . لنأى يُعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية... »<sup>(٢)</sup> .

أفترى أن المهلبى الذي يتوقى ما علق في ملعقة من فمه هو يصبر على « قطعة من بلغم » تسقط من فم أبي الفرج ثم لا يبين « في وجه إنكار ولا استنكار » ؟ ثم تبلغ القحّة من أبي الفرج - وهو أعرف الناس به وألزمهم له - بحيث لم يستح ولم ينتقبض ؟ إن في المهلبى إذن لصبراً يعجب منه الثّقة الصابرون ، وإن في أبي الفرج من الوقاحة وسوء الأدب ما لم يبلغه العتاة الوقحون . ولم يكن المهلبى - وهو الحديث النعمة - كذلك ، ولم يكن أبو الفرج أيضاً .

هذه واحدة . أما الثانية فإننا قد رأينا أن أبا الفرج قد نشأ في أسرة موسرة من طرفيها ، وتمتحن الكتابة وتغشى دواوين الدولة من جناحيها - إذ

(١) السابق ١٢ : ١٠٠٠ .

(٢) السابق ١٢ : ١٠٢٠ - ١٠٢٤ .

عائلة الأب من الكتاب ، وعائلة الأم كذلك - فإذا لم يكن الطفل الذي ينشأ في مثل هذه الأسرة بين الأصهبانيين وآل ثوابة قد تربى على النظافة ، واللياقة ، وحسن الأدب فعلى ماذا تربى ؟

وإليك الثالثة وهي أن أبا الفرج كان - كما رأيت - من ندماء معز الدولة البويهى . فهُبَّ أن المهلبى كان يصبر على وساخته ، وسوء أدبه لطول الصحبة ولكن قل لي ما الذي كان يُرغم معز الدولة على الصبر عليهما ؟

ثم ألم يقل مؤرخوه إنه « يحفظ من آلة المنادمة شيئاً كثيراً »<sup>(١)</sup> ؟ فإذا لم يكن من آلة المنادمة نظافة الثوب ، وحسن الأدب ، وظرف الحديث فكيف تكون ؟

هذه أمور تجعلني أشك في صحة ما رواه الصابى ، وأمر آخر أضيفه إليها هو أنني رأيت له قصيدتين يطلب فيهما من الوزير المهلبى ثياباً<sup>(٢)</sup> ، أفترى أن الذي « لم يكن ينزع دراعة إلا بعد إبلانها وتقطيعها »<sup>(٣)</sup> يكون من همه ، ومن وكده ، ومن دأبه ، أن يطلب الثوب ؟

كل هذا يجعلني أظن أن أبا الفرج قد ذهب ضحية اصطناع المناقب للوزير المهلبى ، وربما ضحية الحسد ، والغيرة مما بلغ من منزلة أدبية ، ولكن ذلك لا يجعلني أزعم أنه كان قد أوفى على الغاية من حسن المظهر ، وعلى المنتهى من حسن الأدب . إذ لم يشر معاصروه - ومنهم الثعالبى - إلى شيء في مظهره ، مما يستشف منه أن مظهره كان كمظهر الآخرين مألوفاً . وأما أدبه فيحسبه منه حديث الحسن بن الحسين النغال « قال : قال أبو الفرج الأصهباني : بلغ أبا الحسن جحظة أن مدرك بن محمد الشيباني الشاعر ذكره بسوء في مجلس كنت حاضره وكتب إلي :

(١) عذرات الذهب ٢ : ١٩٠ ، وتاريخ بغداد ١١ : ٢٩٩٠ .

(٢) هما في يتيمة الدهر ٢ : ١١٥ - ١١٧ إحداهما ميمية . والأخرى رانية .

(٣) معجم الأدباء ١٣ : ١٠١ - ١٠٢ .



« يحذرون لسانه ، ويتقون هجاءه... »<sup>(١)</sup> ، ولم أر له من الهجاء العفيف ما أستطيع نقله إلى القارئ الكريم إلا قوله في أبي سعيد السيرافي النحوي المعروف :

لست صدراً ، ولا قرأت على صد ر ، ولا علمك البكي بكاف  
لعن الله كل شعير ، ونحور وعروض يجي ، من سيراف<sup>(٢)</sup>

ويبدو أن أبا الفرج أعسر بعد إيسار ، فقد رأيناه ، وقد انحدر إلى البصرة يشكو ما آل إليه حاله حتى إنه ليسكن بيتاً من بيوت الكراء بعد أن كان يملك « منزلاً مبهجاً »<sup>(٣)</sup> ولكننا لا نعلم متى افتقر ، على أننا نعلم أن قصيدته التي يشكو فيها حاله تبلغ من صدق النبرة ، ما لا يدع مجالاً للشك في أنه قد افتقر حقاً ، وما يجعل الدارس إذا نظر إلى معاتبته الوزير المهلب في قوله الذي مرّ قبل قليل : « أبعين مفتقر إليك » على أنها تصاغر الكاتب أمام وزيره ، لا يستطيع أن ينظر إلى هذه القصيدة بالعين نفسها .

بقي عليّ أن أشير إلى سرعة بديهة أبي الفرج ، وذكانه في ردّ ما لا يصدقه من الأمور بالفكاهة البارة ، والدّعابة الحلوة ، ولي في ما جرى بينه وبين أبي القاسم الجهنّي القاضي في مجلس الوزير المهلب<sup>(٤)</sup> ما يدلّ دلالة واضحة على ذلك .

ولا أريد أن أقيض في جوانب حياته أكثر مما أفضت ، ولكنني أريد أن أتحقّق من تاريخ وفاته : فقد أجمع المؤرخون لحياته - ما عدا ابن النديم - أنه توفي « يوم الأربعاء ، لأربع عشر خلون من ذي الحجة سنة ست وخمسين وثلاثمائة... وهذا هو القول الصحيح في وفاته »<sup>(٥)</sup> . وقول الخطيب البغدادي إن

(١) السابق ١٢ ، ١١ ، ١٠ .

(٢) يتيمة الدهر ٣ ، ١١٧٠ . ومعجم الأدباء ٨ ، ١٤٨٠ .

(٣) معجم الأدباء ١٢ ، ١١٦٠ .

(٤) تنظر الحادثة في معجم الأدباء ١٢ ، ١٢٢٠-١٢٤٠ .

(٥) تاريخ بغداد ١١ ، ٤٠٠ .



« هذا هو القول الصحيح في وفاته » يدلنا على أن القدماء أنفسهم كانوا في أخذ وردّ من سنة وفاته ، ولعل أول من نبّهنا الى ذلك منهم ياقوت الحموي حين ذكر سنة وفاته المتفق عليها بين المؤرخين فقال : « وفاته هذه فيها نظر ، وتفتقر الى التأمل... »<sup>(١)</sup> .

أما الأسباب التي تدعو إلى هذا التأمل عنده فمن بينها قوله : « حدثني صديق قال : قرأت على قصر معز الدولة بالشماسية ، يقول فلان بن فلان الهروي ، حضرت هذا الموضع في سباط معز الدولة ، والدنيا عليه مقبلة ، وهيبة الملك عليه مشتملة ، ثم عدت في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، فرأيت ما يعتبر به اللبيب... »<sup>(٢)</sup> .

ومهما يكن من أمر فقد درج الناس أن يؤرخوا لوفاته بسنة ست وخمسين وثلاثمائة ولم يشذّ عنهم - فيما نعلم - إلا قلة من بينهم الدكتور خلف الله ، وقد بنى شكه على أمرين أولهما أن تاريخ وفاته المشهور لم يذكره إلا تلميذه محمد بن أبي الفوارس - وقد كان جوالاً في طلب العلم يوم مات أبو الفرج - وثانيهما أن قول ابن أبي الفوارس لم يُدوّن إلا بعد مدة طويلة في تاريخ الخطيب البغدادي<sup>(٣)</sup> .

وأراني أوافق الحموي ، وخلف الله على أن وفاته لم تكن سنة ٣٥٦هـ مضافاً الى أسبابهما سبباً آخر هو قول أبي الفرج نفسه : « وخرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن إبراهيم بن علي بن عيسى رحمه الله ماضين الى دير الثعالب في يوم... من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة للنزهة ، ومشاهدة اجتماع النصارى... وإذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش... فمضينا معها... وحصلت بينها وبين أبي الفتح

(١) معجم الأدباء ١٣ : ٧٦١ .

(٢) نفسه .

(٣) ينظر صاحب الأغاني ١٩٠ - ٢١٠ .

عشرة بعد ذلك ، ثم خرج الى الشام ، وتوفي بها ، ولا أعرف لها خبراً بعد ذلك...»<sup>(١)</sup> .

إذ أن هذا النص - عندي - يدل على تأخر وفاة الأصبهاني الى ما بعد سنة ٣٥٦هـ ، لأسباب منها : أن الحادثة وقعت قبل وفاة أبي الفرج المزعومة بشهور ، وهو من النشاط والمرح ، وحب الحياة ما لا ينسجم وقول المؤرخين من أنه خلط في آخر حياته<sup>(٢)</sup> .

هذه مسألة ، أما الثانية فهي أنه يذكر أنه قامت عشرة بين تلك الفتاة وصديقه أبي الفتح ، وأن أبا الفتح هذا قد خرج الى الشام وتوفي بها . وكل هذا معناه أنه خرج الى الشام بعد هذه السنة أو في أثنائها أعني سنة ٣٥٥هـ ثم توفي قبل وفاة أبي الفرج ، وصيغة الحديث يمكن أن توميء الى طول مدة مكثه في الشام ، وإلا فإن العشرة بين أبي الفتح والفتاة لا تكون بيوم ويومين ولا بسنة وستين ، إن العشرة وحدها دليل على طول المدة ، فإذا نظرنا الى أن هذه العشرة قد انتهت وأن صاحبها أبا الفتح قد مات كان لنا أن نطمئن الى ما رواه ابن النديم - وهو من معاصريه الذين رووا عنه - من أن وفاته كانت في سنة «ثيف وستين وثلاثمائة»<sup>(٣)</sup> .

هذا ما كان من أمر أبي الفرج ، أما ما كان من أمر مؤلفاته فهي كثيرة تكاد تقارب الأربعين مؤلفاً ، وسأعتمد في سردها على محمد عبد الجواد الأصمعي فيما نقله عن ابن النديم وياقوت الحموي ، والقفطي<sup>(٤)</sup> ، واضعاً زياداتي عليه بين قوسين معقوفتين ، وهي :

(١) معجم الأدباء ١٣ - ١١٢ - ١١٥ .

(٢) ينظر تاريخ بغداد ١١ - ٤٠٠ . وشرحات الذهب ٢ - ٢٠٠ . وميزان الاعتدال ٣ - ١٢٢١ .

(٣) الفهرست ١٢٧٠ .

(٤) أبو الفرج ١٥٧١ - ١٥٩٠ .

- ١- كتاب الأغاني الكبير ، نحو خمسة آلاف ورقة .
- ٢- كتاب مجرد الأغاني .
- ٣- كتاب مقاتل آل أبي طالب ، وطبع بطهران سنة ١٢٠٧هـ ، وطبع للمرة الثانية بمطبعة الحلبي بمصر [١٢٦٨هـ - ١٩٤٩م] ، بتحقيق السيد أحمد صقر ، ومنه طبعة لبنانية في دار العرفان بصيدا بإشراف المرحوم الشيخ عارف الزين ، وعنوان الكتاب في الطبعتين المصرية واللبنانية «مقاتل الطالبين» .
- ٤- كتاب التعديل والانتصاف في أخبار العرب وأنسابها... ذكره هو في كتاب الأغاني وهو كتاب جمهرة أنساب العرب .
- ٥- كتاب تفضيل ذي الحجة .
- ٦- كتاب أخبار القيان .
- ٧- كتاب الأخبار والنوادر .
- ٨- كتاب نسب بني كلاب .
- ٩- كتاب أدب السماع .
- ١٠- كتاب أخبار الطفيليين .
- ١١- كتاب أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب [وقد حققه الدكتور صلاح الدين المنجد عن مخطوطة فريدة ، ونشره في دار الكتاب الجديد ببيروت سنة ١٩٧٢ ، بعنوان : (أدب الغرباء) ولكتاب هذه المقدمة رأي في التحقيق نشره في مجلة الأديب البيروتية في عددها الثاني من سنتها الثانية والثلاثين - فبراير ١٩٧٣] .
- ١٢- كتاب مجموع الآثار والأخبار .
- ١٣- كتاب أشعار الإمام والممالك [وقد حققه الأستاذ جليل العطية سنة ١٩٨٨

ونشره بعنوان الإماء الشواعر ، ولم أره ، وإنما حدثني بذلك أخو المحقق  
الأستاذ الدكتور خليل إبراهيم العطية .

١٤- كتاب الحانات .

١٥- كتاب الخمارين والخمارات اوبقي من أوله سبع ورقات محفوظة لدى السيد  
أحمد عبيد في دمشق<sup>(١)</sup> .

١٦- كتاب الديارات [وقد التقط أشياء منه الدكتور جليل العطية فنشر هذا الملتقط  
في كتاب سنة ١٩٩١] .

١٧- كتاب صفة هارون .

١٨- كتاب الفرق والمعياريين الأوغاد والأحرار وهي رسالة في هارون بن المنجم  
[ولعل هذا العنوان والذي قبله اسمان لكتاب واحد] .

١٩- كتاب دعوة النجار .

٢٠- كتاب أخبار جحظة البرمكي .

٢١- كتاب نسب بني عبد شمس .

٢٢- كتاب نسب بني شيبان .

٢٣- كتاب نسب المهالبة [ولعله كتبه لمخدومه الوزير أبي محمد المهلي] .

٢٤- كتاب نسب بني تغلب .

٢٥- كتاب القلمان والمفنين .

٢٦- كتاب مناجيب الخصيان ، عمله للوزير المهلي في خصين كانا له .

٢٧- كتاب أيام العرب : ألف وسبعمائة يوم .

---

(١) ينظر الأعلام للزركلي ٥ : ٨٨ حاشية .

٢٨- كتاب دعوة الأطباء .

٢٩- كتاب تحف الوسائد في أخبار الولاند .

٣٠- جمع ديوان أبي تمام ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع...

٣١- جمع ديوان أبي نواس .

٣٢- جمع ديوان البحثري ، ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع كما فعل بديوان أبي تمام .

٣٣- كتاب في النغم أشار إليه في كتابه : الأغاني .

٣٤- رسالة في شرح أصوات الأغاني . أشار إليها في كتابه الأغاني... وقد ردّ فيها على يحيى المكي شيخ جماعة المنين وأستاذهم .

٣٥- كشف الكربة في وصف الغربة أشار إليه بروكلمان [قلت : لعله هو كتاب أدب الغربة] .

٣٦- الأمالي أشار إليه بروكلمان .

٣٧- [كتاب ما نزل من القرآن في أمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام<sup>(١)</sup>] .

٣٨- [كلام فاطمة عليها السلام في فداك] .

هذه هي قائمة كتب أبي الفرج . أما أهم كتب هذه القائمة مما وصل إلينا من كتبه فهو كتاب الأغاني لا ينازعه - في باب - منازع من سائر كتبه .

وفكرة كتاب الأغاني مبنية على الأصوات المانة «المختارة» لأمير المؤمنين الرشيد رحمه الله تعالى ، وهي التي كان أمر إبراهيم الموصلي ، وإسماعيل بن جامع ، وقليج بن العوراء باختيارها له من الغناء كله ؛ ثم رفعت إلى الواثق بالله

(١) انفراد أبو جعفر الطوسي المعروف بشيخ الطائفة في فهرست ٣٧٩١ بذكر هذا الكتاب والذي يليه له . نقلنا عن صاحب الأغاني ١٢٨١ .

- رحمة الله عليه - فأمر إسحق بن إبراهيم بأن يختار له منها ما رأى أنه أفضل مما كان اختيار متقدماً ، ويبدل ما لم يكن على هذه الصفة بما هو أعلى منه وأولى بالاختيار ، ففعل ذلك...»<sup>(١)</sup> .

وهكذا وجد أبو الفرج إزاءه مائة لحن هي في رأي إسحق أفضل الألحان العربية فرأى أن يؤرخ لهذه الألحان بعد إذ رأى أن كتاب « الأغاني » المنسوب الى إسحق ، « مدفوع أن يكون من تأليفه ، وهو مع ذلك قليل الفائدة... »<sup>(٢)</sup> ، فسلك طريقاً واحداً في كتابه كله هو أن يذكر الشعر الذي غُنِّيَ به هذا اللحن أو ذاك من المائة تحت عنوان « صوت » ثم يذكر عروض ذلك الشعر أهو من الكامل أم من الخفيف أم من البسيط ؟ ثم ينتقل الى نسبة هذا الشعر لشاعره ، وإلى نسبة الغناء لصاحبه ، ليصل إلى تدوين موسيقى ذلك الغناء بالمصطلحات الموسيقية القديمة التي لا نعرف عنها اليوم شيئاً كأن يقول : « ولحنه المختار من الثقيل الأول بالنصر ، وفيه لبابويه خفيف ثقيل بالوسطى »<sup>(٣)</sup> وما إلى ذلك . حتى إذا فرغ من ذلك كله انتقل الى ترجمة الشاعر ، فذكر نسبه ، وأخباره ، وما يمت إلى حياته بسبب مما يكون قد وقع إليه أو اطلع عليه ، ذاكرًا كل ذلك بسنده ، وسلسلة رواته .

وبهذه الطريقة ترجم أبو الفرج لخمسمائة وستة وتسعين شاعراً من العصور الجاهلية ، والإسلامية ، والأموية والعباسية ، ولسبعة وثمانين مغنياً من العصرين الأموي والعباسي<sup>(٤)</sup> عدا ما ذكره من أخبار الخلفاء ، والوزراء ، والكتاب ومن إليهم .

فلو قلت بعد هذا : إن كتاب الأغاني كنز أدبي ثمين ، وثروة أدبية طائلة

(١) الأغاني .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

(٤) قام الدكتور داود سلوم وشريكه بالإحصاء في كتابهما « شخصيات كتاب الأغاني » ٤١٥١-٤٣٦ .

لما أبعدت ، ولما جاوزت الحد ، وكان الذي يماريك في هذا أحد رجلين إما جاهلاً وإما مجنوناً .

ولا أكاد أشك في أن هذه الثروة الأدبية الطائلة أثارت على أبي الفرج شيئاً من الحسد والغيرة ، بمقدار ما أثارت عليه من الإعجاب ما يكاد يدخل في الأساطير . فأما أهل الحسد فقد هالهم أن يأتي أبو الفرج بكل هذه الثروة رواية ، فقالوا عنه « كان أبو الفرج الأصهباني أكذب الناس ، كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب ، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ، ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها »<sup>(١)</sup> . وأنا لا أريد أن أناقش هذا القول لأنه إذا كان يؤلف مطعناً في أبي الفرج وفي كتبه - ومنها الأغاني - خلال العصر العباسي ، فإنه ليس كذلك في عصرنا الحاضر ؛ وذلك أن معنى القول أن أبا الفرج لم يكن رواية يأخذ عن شيوخ ، وإنما كان يتلمذ للكتب التي يمكن أن يقع فيها التصحيف والتحريف ثم يزعم أنه يروي بسند وأنه رواية .

والحق أنني وجدت أبا الفرج ينص على طبيعة مروياته ، فهو يقول : « أخبرني » ويقول « حدثني » ويسكت ، فتفهم منه أنه يروي من حفظه - وهذا هو الغالب على مروياته - أما حين يأخذ من كتاب فإنه ينص على ذلك ، وقد مر بنا قوله - على سبيل التمثيل لا الحصر - « ونسخت من كتاب جدي يحيى بن محمد ابن ثوبة بخطه » أكثر من مرة ، وينص على إجازته إذا كان مجازاً في الرواية ، وعلى المكاتبه كما فعل مع أبي خليفة الفضل بن الحباب ، وينص على الوجدادة .

وسواء أكان أبو الفرج رواية أم ينقل مروياته عن كتب ، فإنه كان يعول « في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط ، وغيرها من الأصول الجياد »<sup>(٢)</sup> .

(١) تاريخ بغداد ١١ ، ٢٩٩ .

(٢) الفهرست ١٢٧١ .

وفي الحالين ، إننا آمنون من أن يصحَّف الأسماء في كتبه أو أن يحرفها وذلك غاية ما نرجوه .

ويزيد من قيمة كتابه تثبُّته في الرواية بالمعنية نادرة ، ويعلم جَمِّ وافر غزير ، دالاً على علم بالرجال وبالجرح والتعديل مرة كأن يقول : « أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه عن علي بن الصباح - وأظنه مرسلًا... لأنه لم يسمع من علي بن الصباح... »<sup>(١)</sup> . ودالاً على معرفته بالتاريخ مرة كأن يقول : « أخبرني عمي قال ، حدثنا أبو هفان قال : كان بكر ابن النطاح قصد مالك بن طوق فمدحه ، فلم يرض ثوابه فخرج من عنده... هكذا ذكر أبو هفان في خبره ، وأحسبه غلطاً ، لأن أكثر مدائح بكر بن النطاح في مالك بن علي الخزاعي - وكان يتولى طريق خراسان - وصار إليه بكر بن النطاح بعد وفاة أبي دُلْفَر ومدحه... »<sup>(٢)</sup> .

ويدلُّك أبو الفرج في أكثر من مرة أنه دارس متفحص ، وناقد متمرس ، فمن كان في ريب من ذلك فله أن يقرأ قصيدة الفرزدق التي مدح بها الإمام زين العابدين ، علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، والتي مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته      والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ  
وسيرى كيف يسلك أبو الفرج الشعرة من العجين ، وكيف يُخرج من أبيات القصيدة ما ليس فيها بذوق ثاقب .

أما دراسة أبي الفرج المتفحصة ما يرويه من أخبار فحسبي منها هذا الخبر ، يقول أبو الفرج : « ونسختُ هذا الخبر من كتاب جدي يحيى بن محمد ابن ثوابة بخطه قال : حدثني الحسن بن سعيد قال : حدثني منصور بن جمهور

(١) الأغاني .

(٢) نفه .



قال : لما هجا ابن قنبر مسلم بن الوليد بعد أن أشلى لسانه قال : فجاءه عمُّ له فقال له : يا هذا الرجل : إنك عند الناس فوق ابن قنبر في عمود الشعر ، وقد بعث عليك لسانه ثم أمسكت عنه . فإما أن قارعته أو سالمته ، فقال له مسلم : إن لنا شيخاً وله مسجد يتهجّد فيه ، وله بين ذلك دعوات يدعو بهنّ ، ونحن نسأله أن يجعله من بعض دعواته : فإننا نُكفّاه ، فأطرق الرجل ساعة ثم قال :

غلب ابن قنبر واللئيم مُغْلَبُ      لما اتقيت هجاءه بدُعاهِ  
ما زال يقذفُ بالهجاء ، ولذعه      حتى اتَّقوه بدعوةِ الآباءِ

قال : فقال له مسلم : والله ما كان ابن قنبر يبلغ مني هذا كلّهُ ، فأمسك لسانك عني ، وتعرّف خبره بعد هذا . قال : فُبُعْثَ - والله - عليه من لسان مسلم ما أسكته . هكذا جاء في الأخبار<sup>(١)</sup> .

ولعل مسؤولية أبي الفرج لو لم يكن أبا الفرج كانت ستنتهي عند هذا الحد ، وعهدة الخبر على ما « جاء في الأخبار » لكنه لم يقف عند هذا وإنما رجع الى مناقضات ابن قنبر ومسلم بن الوليد يستجلي صحة الخبر فقال : « وقد حدثني بخبر مناقضته ابن قنبر جماعة ذكروا قصائدهما جميعاً فوجدتُ في الشعر الفضل لابن قنبر ، لأن له عدة قصائد لا نقانض لها ، يذكر فيها تعريده عن الجواب... »<sup>(٢)</sup> .

وإذاً ، لم تكن مرويات أبي الفرج مما يقبله على عواهنه ، فهو يخضعها الى ما نصلح عليه اليوم بالنقد التوثيقي .

ولعلي كدتُ أنسى ما أنا فيه ، بسبب أمر حسّاد أبي الفرج فأنسي معي القاري، ما هو بسبيله ، فأقول : هذا ما كان من أمر حسّاد الأصبهاني وقد هالهم ما رأوا في كتبه من روايات لا تتهياً لأمة من الناس وليس لفرد واحد . فقالوا :

(١) نفسه .

(٢) نفسه . وعزّد عن الجواب بمعنى عجز عنه .

« إنه كان يذهب إلى سوق الوراقين وهي عامرة بالكتب . فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف... ثم تكون رواياته منها » . ولقد كنا نتمنى على هؤلاء أن يدلّونا على ما صحّف فيه أبو الفرج ، أو ما نحله لنفسه من روايته ، ولكنهم لم يفعلوا رغم أن أبا الحسن البّشي كان يقول : « لم يكن أحد أوثق من أبي الفرج »<sup>(١)</sup> .

أما ما أثارته هذه الثروة الأدبية الطائلة من الإعجاب - وأنا أعني بها الأغاني - فلي عليه شاهد من قول ياقوت الحموي : « لعمري إن هذا الكتاب لجليل القدر ، شائع الذكر ، جم الفوائد ، عظيم العلم ، جامع بين الجدّ البحت ، والهزل النحت ، وقد تأملتُ هذا الكتاب ، وعنيت به ، وطالعتُه مراراً وكتبْتُ منه نسخة بخطي في عشر مجلّدات... »<sup>(٢)</sup> ولي عليه شاهد آخر فيما صنعه يحيى الخدّوج المرسي من « كتاب الأغاني الأندلسية على منزع الأغاني لأبي الفرج... »<sup>(٣)</sup> .

ولقد قلت : إن من هذا الإعجاب ما كاد يدخل في الأساطير ، فمنها ما قيل بما يشبه الإجماع من المؤرخين القدماء والمعاصرين - عدا الدكتور خلف الله - من أنه أهداه إلى سيف الدولة الحمداني . حتى لكانهم يقولون - حين يروون هذا - إن مثل كتاب الأغاني لا يليق إلا بأمير مثل سيف الدولة ممدوح أبي الطيب المتنبي ، وهو فخر ما بعده فخر .

ولقد جاءت أسطورة الإهداء إلى سيف الدولة أول ما جاءت في كتاب معجم الأدباء ، فقد جاء فيه : « وقال الوزير أبو القاسم الحسن بن الحسن المغربي في مقدمة ما انتخبه من كتاب الأغاني إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار... »<sup>(٤)</sup> .

(١) ميزان الاعتدال ٤ : ١٢٤٠ .

(٢) معجم الأدباء ١٢ : ٩٨١ .

(٣) نفح الطيب ٢ : ١٨٥١ .

(٤) المعجم ١٢ : ٩٧ .

ولا أعرف كيف فهم القدماء والمعاصرون من هذا النص المضطرب أن أبا الفرج أهداه إلى سيف الدولة ، فإذا أخذنا النص على اضطرابه كان معناه - كما فهم منه خلف الله - أن الوزير المغربي انتخب كتاب الأغاني الى سيف الدولة ، وإذا صحّ هذا فأين إهداء أبي الفرج كتاب الأغاني الى سيف الدولة ؟ إن كل ما في الأمر أن الوزير المغربي اختار منتخبات من كتاب الأغاني لسيف الدولة ، وهذا باطل لأن الوزير المغربي متأخّر عن عصر سيف الدولة ، إذ توفي سنة ٤١٨ هـ .

وإذا افترضنا أنه سقط من النص شيء يدل على هذا كان علينا أن نعيد من كتابته على هذه الصورة : « وقال الوزير أبو القاسم... المغربي في مقدمة ما انتخبه من كتاب الأغاني [أنه أنفذه] الى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار وبلغ ذلك صاحب أبا القاسم بن عباد فقال : لقد قصر سيف الدولة وإنه يستأهل أضاعافها... » . فإذا قبلنا النص على هذه الصورة فهمنا منه أن أبا الفرج أنفذ كتاب الأغاني إلى سيف الدولة وأنه أجازاه عليه .

ويرى الدكتور خلف الله - وأراني أوافقه - أن هذا لم يقع لجملة أسباب منها :

« أن الكتب التي جمعت من أخبار سيف الدولة الأدبية والتاريخية الأمور الكثيرة »<sup>(١)</sup> لم تذكر « لهذه المسألة ظلاً... مع عناية أصحاب هذه الكتب بما هو من جنس هذه المسألة »<sup>(٢)</sup> . وأن العداوة التي كانت قائمة بين الحمدانيين والبويهيين والتي استتبع حروباً كانت تمنع أبا الفرج - وهو كاتب المهلي - وزير البويهيين أن يهدي كتابه إلى أعداء أولياء نعمته .

زد على ذلك أن أبا الفرج ينص في مقدمة الأغاني أن رئيساً من رؤسائه قد

(١) صاحب الأغاني : ٨٠ .

(٢) نفسه .

كلفه بجمعه له . وسيف الدولة ليس برئيس ، وإنما هو أمير ، ولو كان - على أسوأ الفروض - رئيساً لما كان رئيساً لأبي الفرج <sup>(١)</sup> .

ورغم كل هذا فقد بنى بعض المعاصرين على مسألة هذا الإهداء نتائج منها قول بروكلمان عن أبي الفرج ، « ومن ثم وجدناه ينادم سيف الدولة » <sup>(٢)</sup> علماً أن من يقرأ ما تبقى من كتب أبي الفرج - كما قرأها الدكتور خلف الله - يجده لم يزر في حياته إلا أربع مدن - على وجه التحديد - هي الكوفة ، والقادسية ، والبصرة ، وأنطاكية <sup>(٣)</sup> .

وإذا نحن ما تجاوزنا بغداد التي اتخذها سكناً له فلا نستطيع أن نضيف إلى أربع المدن هذه إلا حصن مهدي الذي يقع في خوزستان <sup>(٤)</sup> .

ومهما يكن من أمر فإن مسألة إهداء الكتاب إلى سيف الدولة أسطورة نسجها المعجبون بالكتاب ومؤلفه . وإذا كان سيف الدولة ممن ليست لهم علاقة بالكتاب ، فإن المهلب كان كذلك . أقول هذا لأنني رأيت الدكتور خلف الله يميل إلى ذلك - أعني أن الكتاب آلف للمهلب - ويرجحه . وحبته على ذلك أن المهلب ممن تنطبق عليه صفة الرياسة ، وأن هنالك من العلاقة بينه وبين أبي الفرج ما يجعل تأليف الكتاب له أمراً وارداً . أما لماذا لم يذكره باسمه الصريح مكتفياً بإطلاق لفظ الرئيس عليه فذلك عائد في رأيه إلى أن المهلب « قد مات مغضوباً عليه من معز الدولة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، ولعله من أجل هذا الغضب نفسه سكت أبو الفرج عن أن يقول في المهلب شيئاً من الرثاء » <sup>(٥)</sup> .

(١) ينظر السابق ٧٦١ وما بعدها .

(٢) تاريخ الأدب العربي ٣ ، ٩٨٠ . وفي أدب الغرباء ٥٧٠ ما يوحى بأن أبا الفرج كان من حفار مجلس المتنبى ولا تعلم إن كان قد حضره في بغداد أو في حلب . ولكن يطلب على غني أنه حضره في بغداد .

(٣) ينظر صاحب الأغاني ٢٦١-٢٧٠ . ومعلوم أنه لم يكن من كتب أبي الفرج المطبوعة - على عهد خلف الله - إلا اثنان هما الأغاني والمقاتل .

(٤) ينظر أدب الغرباء ٢٧٠ وحاشية محققة .

(٥) صاحب الأغاني ٩١٠ .

ويغلب على ظني أن الأمر لم يكن كذلك لجملة أمور منها أننا نعلم أن أبا الفرج « كتبه مرة واحدة في عمره »<sup>(١)</sup> فإذا صح هذا وهو عندي صحيح لا شيء ، إلا لضخامة حجم الكتاب الذي بلغ - كما يقول ابن النديم - خمسة آلاف ورقة . وصعوبة نسخه . والدليل على ذلك أن أبا الفرج نفسه لم يحتفظ لنفسه إلا بمسودة الكتاب « وهي أصل أبي الفرج أخرجت الى سوق الوراقين لتبتاع... (فا) بيعت في النداء بأربعة آلاف درهم ، و... أكثرها في طروس وبخط التعليق »<sup>(٢)</sup> أقول : إذا صح أنه كتبه مرة واحدة ، ولا شيء يمنع من صحته ، فإن ذلك معناه أنه أهدى النسخة الى المهلب في حياته وليس بعد وفاته ، وفي وزارته وليس قبلها إذ ماذا كان يؤمل أبو الفرج بالمهلب - وهو المفلس - قبل وزارته ؟ فإذا كان ما ذهب إلى صحته - والمهلب في مجده ورفعته ووزارته - فما الذي كان يمنع أبا الفرج من ذكر اسم الرئيس صراحة ؟

إن فرض الدكتور خلف الله كان سيكون صحيحاً من أن أبا الفرج لم يذكر المهلب لأنه كان مغضوباً عليه يوم توفي لو ثبت أن أبا الفرج أخرج نسخة من كتابه بعد وفاة المهلب ، أما مسألة أن أبا الفرج لم يرثه يوم مات فذلك مسألة بها حاجة الى أن يكون ديوان أبي الفرج بين أيدينا نتحرى الأمر فيه . أما وقد ضاع الديوان فتقرير رثائه إياه من عدمه يبقى رجماً بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله .

فإذا قررت هذا ، فليس في وسعي - وأنا أقول إنه لم يؤلف لا لسيف الدولة الحمداني ولا للوزير المهلب - أن أعين الرئيس الذي آلف له ، وحسبي من هذا أنني مشيتُ من الطريق نصفه .

وأسطورة أخرى صاغها المعجبون ، فقال قائلهم عن الحكم المستنصر

(١) معجم الأدباء ١٢ : ٩٨٠

(٢) السابق ١٢ : ١٢٦١-١٢٦٧ .

صاحب الأندلس أنه : « بعث في كتاب الأغاني الى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني [كذا] وكان نسبه في بني أمية ، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين . فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرج به إلى العراق »<sup>(١)</sup> .

وعلى أنني لا أعرف متى ألف أبو الفرج - على وجه التحديد - كتاب الأغاني ، ولا أعرف أيضاً من أين جاء السيد أحمد صقر بقوله عنه إنه نهض « بتأليف كتاب الأغاني العظيم ولما يبلغ الثلاثين من عمره »<sup>(٢)</sup> إلا أنني أكاد أظن أنه ألفه بعد مقاتل الطالبين بنحو من ثلاثين عاماً أو تزيد قليلاً ، فقد قرأه عليه تلميذه ابن دينار قال : « قرأت على أبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني [كذا] جميع كتاب الأغاني »<sup>(٣)</sup> ، وابن دينار هذا من واسط مولداً ومنشأ ، ويبدو أنه نزل الى بغداد لطلب العلم ثم عاد الى مدينته واسط فقد « سأل الناس بواسط بعد موت أبي محمد عبد الله العلوي أن يجلس لهم صدرأ فيقرنهم فامتنع »<sup>(٤)</sup> ، ومعنى هذا أنه نزل الى بغداد - كما هي طبيعة الأمور - وهو في سن الطلب ، فإذا فرضنا أنه لقي أبا الفرج وله من العمر عشرون سنة ، فمعنى هذا أنه قرأه عليه في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة . وهذا الفرض يتسجم مع أخذ ابن دينار عن أبي سعيد السيرافي . ويمكن أن يكون الأغاني - بعد هذا - قد ألف قبل هذا التاريخ .

فإذا صحَّ هذا الفرض فمعناه أن الكتاب قد ألف قبل أن يتولى الحكم المستنصر الخلافة بنحو من سبع سنين ، لأنه « ولي... في ثاني أو ثالث شهر رمضان من عام خمسين وثلاثمائة »<sup>(٥)</sup> . فإذا كان الأمر كذلك فكيف بعث إليه

(١) نفح الطيب ١ : ٢٨٦ .

(٢) مقاتل الطالبين : أ .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ٢١٨ .

(٤) السابق ١٤ : ٢٤٦ وإذا صحَّ فرضي ثلاث الأسطورة القائلة إنه ألفه في خمسين عاماً : لأن معناها أنه ابتدأ بتأليفه سنة ٢٩٢ وعمره يومذاك تسع سنوات . وهذا مما لا يقبله من له أدنى مسكة من عقل .

(٥) نفح الطيب ١ : ٢٨٥ .

أبو الفرج « بنسخة منه قبل أن يخرج به إلى العراق » ؟ وهو يقرنه ببغداد لتلاميذه قبل أن يتولى الحكم المستنصر الحكم ، وقبل أن يهتم بجمع الكتب من الأقطار . على أن ما ترويه المصادر القديمة فصدقه المحدثون - بمن فيهم الدكتور خلف الله - من علاقة أبي الفرج بخلفاء الأندلس الأمويين هو عندي ضرب آخر من الأساطير ، وأخشى أن أسوق أسبابي مفصلة فأدخل في استطراد لا أحب أن أدخل فيه ، ولكن لا بأس من أن أقول : إن علاقة أبي الفرج برؤسائه - وهم من الشيعة - فضلاً عن تشييعه يمنعانه من الاتصال بأولئك الخلفاء ، ثم إذا كان هذا الاتصال حقيقة وكان « حصل له ببلاد الأندلس مصنفات لم تقع إلينا منها : كتاب نسب بني عبد شمس ، وكتاب أيام العرب... وكتاب التعديل والانتصاف... وكتاب جمهرة النسب... وكتاب نسب المهالبة... وكتاب القيان... »<sup>(١)</sup> فإنني أفهم أن يهدي إلى هؤلاء الخلفاء نسب بني عبد شمس ، وأيام العرب وما إليها ، ولكنني لا أفهم أن يهدي إليهم كتاب نسب المهالبة ، فما لهم ولهذا النسب ؟ ثم إنني تصفحت ما وقع تحت يدي من فهرس أندلسية ، فلم أجد لتلك المؤلفات ظلاً .

ولكن يبدو أن المؤرخين لم يريدوا أن يصدقوا أن الأصبهاني أموي يتشيع - كما ترجموا له - فجعلوا تشييعه واجهة ، واختلقوا له صلة سرية بينه وبين الخلفاء الأمويين في الأندلس .

وعلى أية حال : أعود إلى رأس أمري فأقول : إن حاسدي أبي الفرج ضفوفه ، وإن المعجبين به نسجوا الأساطير التي تدور عليه وعلى كتابه حتى أن المرء لا يستطيع أن يجد عند هؤلاء أو أولئك خيراً كثيراً ، مما يجعله يواجه الكتاب بنفسه فيقول :

إن الحديث عن أهمية الأغاني من الوجهة الأدبية من نافلة القول ، وللمرء

(١) تاريخ بغداد ١١ ، ٢٩٨ .

أن يتصور كيف كان يمكن أن يكون حال الدراسات الأدبية في عصور الأدب العربي حتى عصر أبي الفرج لو كان الكتاب قد ضاع ، وله أن يتصور مقدار الخسارة الفادحة لو حدث ذلك لأن هذا الكتاب لا يعوضه كتاب آخر حتى من الكتب التي جاءت بعده ، ونقلت عنه .

فإذا كان هذا الحديث نافلة فإن الحديث عن مرويات أبي الفرج وقيمتها التاريخية مما ينفع ، فقد أخذ الأستاذ محمد كرد علي على أبي الفرج أنه شوه صورة الأمويين<sup>(١)</sup> التي أرادها كرد علي أن تكون براقية . وأظن أن هذا يحسب لأبي الفرج لا عليه ، وهو عندي دليل على التجرد ، وإلا فإن أبا الفرج أولى بالدفاع عن أجداده الأمويين من كرد علي لو أنه وجد في القول متسماً ، وفي القوس منزعاً .

أما الدكتور زكي مبارك ، فقد أراد أن يتسلق قامتين شاهقتين في سماء الأدب العربي ليصفعهما فلم يجد سُلماً إليهما ، ولم يكد ، حتى عثر على أبي الفرج فقال : « كان الأصهباني مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلفي أثر ظاهر في كتابه ، فإن كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون ، وهو حين يعرض للشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ، ويهمل في الجوانب الجدية إهمالاً ظاهراً يدل على أنه قليل العناية بتدوين أخبار الجدة ، والرزانة ، والتجمل والاعتدال ، وهذه الناحية من الأصهباني أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جرجي زيدان... وما كتبه الدكتور طه حسين... تكفي للإقناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني جرّ هذين الباحثين إلى الخطّ من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية ، وحملهما على الحكم بأن ذلك العصر عصر شك ، وفسق ، ومجون... »<sup>(٢)</sup> .

(١٤١) مجلة المجمع العلمي العربي في آذار (مارس) ١٩٢٨ نقلاً عن أبو الفرج : ١٧٦-١٧٩ .

(١٤٢) انشر الفني في القرن الرابع : ٢٣٤-٢٣٥ .



وهكذا قعد الأصبهاني - كما يقال - في طريق قافية الدكتور زكي مبارك حتى لأحسب أن هذا الرأي من زكمبرياته كما كان يحب أستاذنا الدكتور الطاهر أن يصف بعض آرائه ، وإلا فإن أبا الفرج قد وصف من تهتك مجان الكوفة ما وصف مثل الحسين بن الضحاك ، والحمادين الثلاثة ومن إليهم ، ووصف أيضاً صلاح محمد بن كناسة وتقواه ، وزهده أفيكون من ذنبه أن الدكتور طه حسين رحمه الله قد استوحى من أخبار المجان أن العصر عصر « شك وفسق ومجون » ؟ ثم إذا لم يكن العصر كذلك فلم استحدث فيه ديوان للزنادقة وكان حمدويه صاحب الزنادقة ؟ ولم يكن هذا الديوان قانماً على عصر الخلافة الراشدة أو على عصر الأمويين .

وإن عجبت فاعجب من أن الدكتور زكي مبارك ينسى أن الكتاب هو كتاب في الأغاني ، وأن الأغاني تدور في مجالس اللهو وليس - أستغفر الله - في بيوت الذكر والمساجد ، وأن أخبار هؤلاء الشعراء الذين يتغنى بأشعارهم هي - في الغالب - من جنس تلك المجالس ، فماذا كان ينتظر الدكتور زكي مبارك أن يدور بها ؟ ولم يكن أبو الفرج الأصبهاني بدعاً في هذا فمن يقرأ كتاب « الديارات » للشابشتي ، أو « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمري يجد في أجواء أخبارهما ما يجده في أخبار الأغاني لا شيء إلا لأن كليهما يكتبان عن الديارات وما إليها ، ومجالس الخمر كانت تعقد في هذه الديارات .

أقول كل هذا لا أريد من ورائه أن أنفي تأثير حياة أبي الفرج في كتابه ، ولكنني أريد أن أحمد الله أن كتب هذا الكتاب أبو الفرج وليس سواء من الذين يرون أن ناقل الكفر كافر وإلا لضاع علينا جانب من جوانب الحياة العربية ما كنا نطمع أن نظفر به عند غير أبي الفرج . على أن أبا الفرج لم يكن - كما أرى - « مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات » . لأن الذي يكتب ما يقرب من أربعين كتاباً بينها الأغاني في خمسة آلاف ورقة ، وأيام العرب وقد ذكر فيه

ألفاً وسبعمئة من أيامهم ، لا يجد متسعاً من الوقت ليسرف أشنع الإسراف في اللذات والشهوات .

ولكن هل كتاب الأغاني كتاب يتوفر على المادة التاريخية المحضة من سياسة واجتماع وما إليهما ؟ وأجيب أن «نعم» و«لا» في آن واحد .

أما نعم فلأن فيه من المادة التاريخية ما يوافق كتب التاريخ فيما تورده ، ويزيد عليها بأننا نجد في أخباره من الجزئيات ما لا نجده في كتب التاريخ . وأما «لا» فلأنه اشترط على نفسه في مقدمة الكتاب أن يأتي بفقر «إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلاً بها من فائدة الى مثلها ، ومتصرفاً فيها بين جدّ وهزل...»<sup>(١)</sup> فكان يسوقه هذا المنهج الى ذكر أخبار يعرف هو قبل غيره أنها موضوعة ، فيعقب عليها بأنه إنما أوردها لنلا يشذّ عن الكتاب خبر من جنسه ومن موضوعه ، ومن يتصفح كتاب الأغاني يجدني في حلّ من أن أستشهد .

ولعل من هذا الباب كان نقله عن ابن خرداذبة وردّه عليه في مواضع كثيرة ، وكذلك فعل مع جحظه في «أخبار الطنبوريين» في مواضع ، ولعل من هذا الباب أيضاً ما يراه القارئ أحياناً من نقله أنساباً لا يستطيع أحد أن يزعم أنها صحيحة أو حتى قريبة من الصحة .

على أن هذا المنهج كان فيه فائدة ، فمن فوائده أنه جعل أبا الفرج يصور لنا الحياة - من حيث يريد أو لا يريد - بجزئيات لم نكن نطمح أن نظفر بها في غير كتابه ، منها ما رواه عن طب الأسنان في البصرة وهو يترجم لعمر بن أبي ربيعة ، «أنه أتى إلى الثريا يوماً ومعه صديق كان يصاحبه ويتوصل بذكره في الشعر ، فلما كشفت الثريا السر وأرادت الخروج إليه ، رأت صاحبه فرجعت ، فقال لها : إنه ليس ممن أحترشمه ، ولا أخفي عنه شيئاً ، واستلقى فضحك - وكانت النساء إذّاك يتختمن في أصابعهن العشر - فخرجت إليه فصرته بظاهر

(١) الأغاني .

كفها فأصابته الخواتيم ثنيتيه العليين فنغضتا ، وكادتا تسقطان ، فقدم البصرة فمولجنا له ، فخبثتا واسودتا...»<sup>(١)</sup> .

ومما صوّره أبو الفرج مما يمكن أن يدخل في تاريخ السجون في الحضارة العربية الإسلامية ما رواه في ترجمة عريب المغنية قال : « لما وقف المأمون على خبرها مع محمد بن حامد أمر بالباسهما جبّة صوف ، وختم زيقها ، وحبسها في كنيف مظلم شهراً لا ترى الضوء يدخل إليها خبز وملح وماء من تحت الباب كل يوم...»<sup>(٢)</sup> .

ويعرض علينا أبو الفرج شيئاً من الحضارة في بغداد يظنه من يراه اليوم أنه تقليد أوروبي محض وفد إلى تقاليدنا في آداب الشرب في قوله : « كان الواصل يحب المواصل ، وما قيل فيها ، وما غني به في ذكرها . فعقد حانتين ، إحداهما دار الحرّم ، والأخرى على الشطّ ، وأمر بأن يختار له خمار نظيف ، جميل المنظر ، حاذق بأمر الشرب ، ولا يكون إلا نصرانياً من أهل قطربل . فأتى بنصراني له ابنان نظيفان مليحان وابنتان بهذه الصفة . فجعلهم الواصل في الحانتين ، وضمّ إليهما خدماً ، وغلماً وجواري رومية . وأخدم النساء حانة الحرّم ، والرجال حانة الشطّ . ونقل إليهما طرائف الشرب ، وفرشهما من فرش الخلافة ، وعلّق عليهما الستور ، وجعل فيهما الأواني المذهبة والدنان المدهونة... فلما فرغ منها... وحضرنا ، وخرج الخمار ، هو وأولاده معه ، عليهم الأقبية المسهمة ، وفي أوساطهم الزنانير المحلاة ، ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان ، والمبازل في الصواني ، وأخرجت تلك الدنان المذهبة ، وقد طيّنت رؤوسها تطييناً نظيفاً ، يعبق منه الطيب ، فأقيمت بإزاء المجلس الذي كان فيه جالساً ، فبزلت ، كما يفعل في الحانات ، وجعل يؤتى بالأنموذجات

(١) نفسه . بدلالة المذكور داود علوم في شخصيات الأغاني .

(٢) نفسه .

فيذوقها ويعرض ذلك على الجلساء فيختار كلٌ منهم ما يشتهيهِ . فيأخذ دناً ، ويجيء الى الخمار فيكتال منه بمكيال إنائه كما يفعل في المواخير...»<sup>(١)</sup> .

وإذاً فقد كانت الخمر في بغداد وفي حاناتها - كما هي في أوروبا اليوم - تشرب بمكيال ، وتذاق قبل شربها ، ولولا أبو الفرج ما عرفنا هذا ، ولا عرفنا طبيعة الحانات البغدادية .

ولا أريد أن أطيل على القارئ بسرد مثل هذه اللقطات الجميلة ، لأنني أطمع أن يكتشفها بنفسه ، ولكنني أريد أن أقول : إن أبا الفرج وضع تحت أيدينا مادة تنفعنا في دراسات شتى شرط أن يكون الباحث الناظر في «الأغاني» باحثاً بحق وحقيق . وإلا فإن أبا الفرج لم يكن يخلو - في أحيان نادرة - من خلطٍ لا أعرف إن كان جاءه من ذات نفسه فدب إلى الكتاب أم من نساخه . وأضرب مثلاً واحداً على هذا الخلط هو ما وقع له حين ترجم ليوسف بن الحجاج الصيقل ، فقد خلط بينه وبين يوسف لقوة خلطاً لا أريد أن أعرض إليه الآن بأكثر من أن أقول : إنهما شخصيتان لا شخصية واحدة ، كما توهم أبو الفرج ، على أن من الأمانة أن أقول : إن هذا الخلط قد جاءه من محمد بن داود الجراح صاحب كتاب «الورقة» فتابعه ، ولم يتثبت - خلاف عادته في التثبت - فوقع فيما وقع فيه . وأن أقول أيضاً إن أحداً ممن تناولوا كتاب الأغاني بالتحقيق أو بالدراسة لم يتنبه الى ذلك فيشير .

بقي عليّ أن أشير الى أن كتاب الأغاني ليس كتاب أخبار فحسب ، وإنما هو كتاب نقد أيضاً . وتأتيه الصفة النقدية من جانبين أولهما فيما حفظ لنا من «كثير من مسائل النقد الأدبي وأحكامه الى أواخر القرن الثالث»<sup>(٢)</sup> . وثانيهما من إيمانه بالمدارس الشعرية فهو «كثيراً ما يصل بين الشاعر وأساتذته ،

(١) نفسه .

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب - طه أحمد إبراهيم ، ١٤٦٠ .

والذين روى عنهم ، أو تلقى أو تأدب ، أو احتذى حذوهم ، وانتهج نهجهم ، وكأنه بذلك يميز المذاهب الأدبية بعضها عن بعض ، ويُرجع الشعراء الى حليات أو مدارس يصدر عنها كلامهم...»<sup>(١)</sup> .

وفضلاً عن أنه تكلم عن السرقات الأدبية وما إليها فقد « فطن الى كثير من الأمور التي تؤثر في الشعر ، وتوجّه الشعراء كالمكان ، والصحبة ، والسيرة...»<sup>(٢)</sup> . ومن هنا ، أظن أن على من يدرس النظرية الإقليمية عند الشعالي أن يبحث عن جذورها عند أبي الفرج وعند ابن سلام من قبله . فقد يصل الى أن العرب توصّلوا الى هذه النظرية النقدية قبل (تين) بقرون . وعلى العموم فإن أبا الفرج لم يُدرس ناقداً ، وإنما بقي في تراثنا العربي راوية إخبارياً ، وما هو كذلك فحسب ، فإن لديه من الذوق ما يجعله ناقداً كما هو ، وناقداً كبيراً لو كان أراد .

أما كتاب الأغاني فقد طبع أكثر من مرة - ولا أريد أن أتحدث عن مختصراته الكثيرة ومختجاته - في مصر وفي لبنان ، قد كانت أول طبعة من طبعاته في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٥هـ في عشرين جزءاً<sup>(٣)</sup> أي في سنة ١٨٦٨م « وقد أكمله المستشرق رودلف برونو بطبعة الجزء الحادي والعشرين منه في سنة ١٣٠٦هـ - ١٨٨٨م »<sup>(٤)</sup> .

وقام المستشرق الإيطالي « جويدي... ونفرٌ من أفاضل المستشرقين بعمل فهرس هجائية وافية لهذا الكتاب... طبعوها باللغة الفرنسية في مجلد ضخّم على حدته بمدينة ليدن سنة ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م وهو يشتمل على أربعة فهارس :

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) تاريخ الأدب العربي ٤ : ٦٩ .

(٤) أبو الفرج ٦١ .

الأول في أسماء الشعراء ، والثاني في القوافي ، والثالث في أسماء الرجال ، والرابع في أسماء الأمكنة والجبال والمياه»<sup>(١)</sup> .

ثم جاء الحاج محمد أفندي الساسي فطبع الأغاني طبعة ثانية ، مضيفاً إليه الجزء الذي نشره المستشرق برونو « مع ترجمة الفهارس التي وضعها... المستشرقون ، ولكن... لم تطبق أرقامها على هذه الطبعة فجاءت كلها مغلوبة ؛ لأنها لا تتفق إلا مع طبعة بولاق»<sup>(٢)</sup> وكان ذلك بمصر سنة ١٩٢٣<sup>(٣)</sup> ، فصدرت في واحد وعشرين جزءاً .

وكان من أريحية رجل فاضل غيور على اللغة العربية هو السيد علي راتب أن اقترح على دار الكتب المصرية بالقاهرة أن يتحمل نفقات طبع كتاب الأغاني طبعة لائقة به ، وأن يضع ما يملكه من نُسخ مخطوطة منه تحت تصرفها ، فاستجابت له الدار فبدأت بطبعه طبعة محققة منذ عام ١٩٢٥<sup>(٤)</sup> ، وطال الزمن بالطبع ، إذ طبعت الدار ستة عشر جزءاً منه ، وصورتها وباعتها مجلدة بثمان بخص ثم توقفت ، وكان ذلك - على ما أظن - سنة ١٩٦٢ ، فبقي الباحثون ينتظرون طبعة معتمدة من الأغاني ، فما كان من دار الثقافة ببירות إلا أن تستثمر هذا الانتظار فأقدمت على طبعه سنة ١٩٥٥ وألحقت به فهارس ، فكان الباحث إذا رجع إلى الأغاني اعتمد طبعة دار الكتب المصرية فإن احتاج إلى جزء لم يُطبع في الدار لجأ إلى طبعة دار الثقافة ، وظلت الحال على ما هي عليه حتى استأنفت الدار طبعه ، فأكملته في السبعينات في أربعة وعشرين جزءاً .

ثم صوّرت مؤسسة جمال للطباعة والنشر في بירות هذه الطبعة فيصرتها للقراء والباحثين .

(١) أبو الفرج ٧٠ .

(٢) نفسه .

(٣) تاريخ الأدب العربي ٣ : ٦٩٠ .

(٤) تنظر رسالته في الأغاني ١١٦ .

وصدرت فصل من الأغاني كأنها مهية للشباب الذي يهاب الكتاب ذا الحجم الضخم بحجم يقارب نصف الجريدة العادية - ولعل ذلك كان في بيروت - إلا أن هذه الفصل توقفت ، ولم تكمل الكتاب ، بل لم تأخذ منه إلا أقله .

وتشاء الآن سلسلة الأنيس - وهي سلسلة أدبية تصدر عن موقف للنشر - في الجزائر أن تُعيد طبعه في الجزائر ، وحسناً تفعل .

ومهما يكن من أمر ، فأجذني شاكرًا للأنيس ما أتاحتها للشباب الجزائري من صلة بأجدادهم العظام ، وبحضارتهم العربية الإسلامية ، وشاكرًا لها على ما أتاحتها لي من فرصة في أن أتلمذ لأبي الفرج الشامخ وأن أحاوره .

---

\* رجعت إلى كتاب الأغاني كثيراً ، ولكنني رأيت ألا أشير إلى الأجزاء والصفحات لسببين ، أولهما أنني اعتمدت طبعة دار الكتب المصرية ، ونسبت هذه الطبعة التي بين يدي القارئ ، وثانيهما أنني لم أرف في الباحثين - إلا نادراً - من أفاد من نعر بدلالة غيره فأشار إليه . ومن هنا رأيت أن أتمم الباحث عن نصوص اعتاد أن يأخذها جاهزة ، ثم يدعي أنه عثر عليها بنفسه بدون دلالة أحد .

# العلامة الطاهر

## مرة ثانية

لن يستطيع التلميذ أن يوفي حقَّ أستاذه ، وكيف يستطيع وفجيعته بوفاته وحدها كفيلاً أن تخلخله ، فما بالك وقد فجع بخبرين في شهر واحد ، وفاة أبيه بالدم ، ووفاة أبيه بالروح الدكتور علي جواد الطاهر ، أبي رائد ؟

مضى أحبائي ما ودعتُ من أحدٍ منهم ، ولا ودعوني يوم أن غزموا أذكرُ الجرح أم أنسى إذاعتَهُ حسبَ الجراحاتِ ألا يُذكرُ الألمُ

أما أبي ، فلن أستطيع أن أرثيه للناس ، لأنه لم يكن يزيد - عليه رحمة الله ومغفرته - عن كادح من عامة الناس ، وأما أبي بالروح فقد كان أباً لأجيال أستطيع أن أرثيه لهم ، وأستطيع أن أباهي به كما يباهون . ولكن ماذا أقول ؟

وتزدحم الذكريات في ذهن التلميذ ، فأيتها ينتقي ، وأيتها يدع ؟ ويا لله ويا للذكريات كم تتوهج في الأسي ، ولكنه ليس أسي المفجوع بعزيز أنه مات ، فقد قال المتنبّي العظيم قبل أكثر من ألف عام :

نحنُ بنو الموتِ فما بالنا نَعافُ ما لا بدَ من شُرْبِهِ ؟  
يموتُ راعي الضأن في جهله ميتةً جالينوس في طبه

ولكنه أسي من نوع آخر أعمق وأشف . أسي لا بد أنه ترك غصة في روح الدكتور الطاهر أقسى من غصة الموت نفسها ، هي غصته أن يموت والأمل



لم يتحقق . وأكاد أتصور غصته - وهو يُحتضر - مردداً قول الشاعر القديم :

وإن بقاء المرء بعد عدوه      ولو ساعة من عمره لكثير  
فقد مات ولم يفرح ببقاء كثير ولا قليل بعد عدوه .

ويتذكر الآن التلميذ أستاذه الدكتورين المخزومي والطاهر - وقد دُعيا إلى إلقاء محاضرات على طلبة الماجستير بجامعة قسنطينة في الجزائر - أن ساكنه بعد انتهاء المحاضرات في شقته بالجزائر العاصمة في محلة ابن عكنون ينتظران موعد الطائرة التي تقلهما إلى بغداد أياماً ، ويتذكر من هذه الإقامة الطيبة كل عطرها الفاغم ، ويلج عليه من بين هذه العطور عطرٌ واحد هو أن استيقظ - ذات صباح - أستاذه أبو رائد ، فأطل من شباك غرفته على أطفال جزائريين يلعبون ، فتذكر طفله : أريد - وكان ذلك في خريف عام ١٩٧٩ - فدمعت عيناه ، فسأله تلميذه عن دموعه فأخبره بما يحسن .

أما كيف أعجب التلميذ بأستاذه فلذلك حديث آخر .

لم أكن معجباً بالدكتور الطاهر ؛ لأنه عالم فحسب ، ولا لأنه أستاذي فحسب ، وإنما أعجبت به وأكبرته ؛ لأنه كان أستاذاً من طراز خاص ، لا يكاد يشبهه أستاذ آخر ، إذ كان أستاذاً يربي العقل أكثر مما يحشوه بالمعلومات . وإن أنس لا أنس أنني وهمت ذات يوم في امتحان الأدب العباسي عنده ؛ فأجبت عن سؤال لم يألناه - وكانت ورقة الأسئلة تتألف من سؤال واحد - وإذا اكتشفتُ وهمي خائفاً وجللاً موقناً بالرسوب ضحك هو - عليه رحمة الله - قائلاً : - حسناً سأعطيك صفراً على الإجابة ، وينتهي الأمر .

ثم سكت لحظة ، وسألني :

- عماداً أجبت ؟

فقلت :

- عن الرسائل الديوانية . فقال :

- حسناً سنغيّر السؤال في ورقتك الامتحانية بحيث يكون سؤالاً عن الرسائل الديوانية ، وسأصحح إجابتك على هذا الأساس . وهكذا كان الأمر ، ولم يكن الدكتور الطاهر يفعل هذا وهو الشديد الشديد ، ولكنه كان حسن الظن بتلميذه الذي كان من حسن الحظ وحده - وليس شيئاً آخر - يكون في نجاحه الأول على زملائه ، وعلى سواهم من طلبة الأقسام الأخرى .

وأذكر - ونحن في السنة الرابعة من كلية الآداب - أنه صدرت قصة « اللعبة » للأستاذ يوسف الصانع ، وأنها أثارت في حينها ضجة كبيرة ، فمن قائل : إنها كاسمها « لعبة » ، ومن موقن أنها مسروقة من الأدب السوفياتي (يومذاك) ، ومن معجب بها ، فكلف الدكتور الطاهر ثلاثة من تلاميذه كنت واحداً منهم أن يكتبوا عنها نقداً - وكان يدرّسنا مادة النقد الأدبي ، ثم استحالت دروسه تلك إلى كتابه الممتاز : « مقدمة في النقد الأدبي » - وإذا كتبنا ، وحان موعدُ إلقاء ما كتبنا على زملائنا في الصف لیسْمَعُ أستاذنا فيري رأيه ، ويناقش زملائنا ، لمحنا ونحن في الصف وجهاً جديداً كدنا نظن أنه طالب منقول إلى صفنا لولا أن عمره كان يكذب ظننا ، ولم نجرو - ونحن نتهاشم - أن نسأله عمن يكون ؟ وإذا جاء أستاذنا قرأ الفضول في عيوننا مبهماً : فبدأ محاضرتة ذلك اليوم :

- الذي بينكم هو الأستاذ يوسف الصانع صاحب « اللعبة » ، وقد دعوت إلى هنا ليناقتشكم فيما كتبتم ، فمن يبدأ منكم بالقراءة ؟

وقرأنا ، سلام ، ووليد ، والمتحدث ، ما كتبناه ، وناقشنا ونوقشنا ، وإذا انتهينا طلب مني أن أسلمه مقالتي ففعلت . أليس من حق الأستاذ أن يأخذ معه ما كلف به تلميذه ؟ وظننت أن الأمر قد انتهى ، وهو منتع عند أي استاذ سواه ،

ولكنني فوجئت بعد شهرين - أو أكثر أو أقل - لا أتذكر تماماً ، بالدكتور الطاهر وهو يعطيني مجلة « الأديب » البيروتية قائلاً : خذها فهي لك! وأخذتها أتصفح موادها وإذا بي أفاجأ بأن ما كتبتة عن « اللعبة » منشور فيها ، وكان الذي أرسله هو الدكتور الطاهر ، ولا بد أن يكون قد استثمر صداقته العميقة مع البير أديب ، صاحب المجلة ، في نشره ، وإلا فمن أنا يومذاك ، واليوم أيضاً ، لتشر لي « الأديب » ؟

وحماسته لمن يظن أنهم نابهون من طلابه من العجب العجاب ، ولولا أنه كان يظن أنني من بينهم ، لقلت : إنه لم يخطئ مرة واحدة في ظنه . ومن آيات هذه الحماسة أن جاء إلى القاعة التي نمتحن فيها امتحان التخرج ، وكان ذلك آخر يوم من امتحان السنة الرابعة ، فطلب مني أن ألقاه بعد الفراغ في قاعة الأساتذة ، فامتثلت ، وكان المرحوم الدكتور المخزومي معه - كما هي عادتهما - وإذا حيثهما أشارا علي بالجلوس ، وبدأ الطاهر الجنب والفكر والقلب :

- هل فكرت في مستقبلك ؟

- وماذا عسى أن يكون سوى مدرّس اللغة العربية في إحدى الثانويات ؟

- لا ، لا ، لا ، إن من هو مثلك لا ينبغي أن يكون هذا مستقبلي . ثم أردف :

- هنيء نفسك لامتحان القبول في الماجستير ، وقدم أوراقك .

وهكذا كان ، بل إن موافقة ما يُسمى بمجلس قيادة الثورة على تأجيلي من الخدمة العسكرية قد صدرت بعد انتهاء موعد تقديم الأوراق الرسمية فاستصدر الدكتور الطاهر استثناء من عميد الدراسات العليا في جامعة بغداد بقبول أوراقي .

لم يكن الدكتور الطاهر أستاذاً فحسب . كان أباً .

وأذكر - وأنا أكتب رسالة الماجستير تحت إشرافه ، وكتبت الدكتوراه

فيما بعد تحت إشرافه الكريم أيضاً - حوادث منها : أنه كان من عاداته إمعاناً في الدقة والتدقيق أن يقرأ الفصل الذي يكتبه تلميذه ثلاث مرات ، الأولى حين يأخذ الفصل من الطالب ، فيقرأه وحده ، والثانية حين يستدعي الطالب يقرأ عليه الفصل وهو يسمع ويناقش - ويكون عليه الرحمة حينئذ قد دقق ملاحظاته في المرة الأولى ووثقها - وتكون هذه القراءة عادة في مكتبة بيته ، والثالثة حين يتم الطالب رسالته ، فيقرأها من المقدمة حتى الخاتمة . والقراءة الثالثة تبلغ من الأهمية لديه بحيث إنه لا يعطي الإذن بطبع الرسالة إلا بعد الانتهاء منها معجباً ، وكان يريد من هذه القراءة شينين ، أولهما : ملاحظة المنهج الذي سارت عليه الرسالة ، وثانيهما التنبيه على ما يمكن أن يكون قد وقع في الرسالة من تناقض في الرأي أو اضطراب ، كأن يقرر الطالب حكماً في الفصل الاول ثم يبدو للقاري أنه ضعفه أو ناقضه في فصل آخر .

وكان زميلنا يوسف الصانع قد سجل رسالته تحت إشرافه ، وكانت بعنوان : « الشعر الحر في العراق منذ نشأته حتى عام ١٩٥٨ » - ولا أمهر من الدكتور الطاهر في حدس ما يناسب تلميذه من موضوع يكون هو رسالته - فكتب يوسف ، وكان قد قسم رسالته إلى فصول أربعة هي : السياب ، نازك ، البياتي ، بلند الحيدري ، وقرأ الدكتور الطاهر الفصول الأربعة وهو راضٍ عنها وعن التقسيم ، حتى إذا بلغ القراءة الثالثة - وكنا نسميها القراءة المرعبة - بدا له أن ما كان راضياً عنه من أمر خطة الرسالة لا ينبغي أن يكون محل رضى ، وإذا اقتنع تمام الاقتناع برأيه الجديد فُجع به يوسف ، فقد استدعاه الدكتور الطاهر ليقول له :

- كتبت رسالتك يا يوسف أفقياً ، وينبغي الآن أن تُعيد كتابتها عمودياً ، كأن تكون : اللغة ، الصورة ، الفكر ، وما أشبه .

واستغرقت ملاحظة الدكتور الطاهر ، وامتثال يوسف لها سنة كاملة من

عمر يوسف ، ولكنها لم تكن سنة ضائعة ، فقد تَوَجَّت ببناء الدكتور الطاهر على يوسف يوم المناقشة بقوله : « سلمت يداك يا بَيْدَبَا » ، وتَوَجَّت بأن أصبحت رسالته مرجعاً لا يستغني عنه باحث في الشعر الحر .

وكلفني ذات يوم زميل آخر هو خالد علي مصطفى - وكان يملأ المحافل الأدبية يومذاك ضجيجاً ، ولكنه ضجيج رحي تطحن قرونا - أن أفتح الدكتور الطاهر بقبول الاشراف على رسالته عن الشعر الفلسطيني ، وإذ فاتحته لم يزد في رأيه على كلمة واحدة :

- لن أزرع في أرض سبخة .

ومن هذه الحوادث أنه لم يرض عن رأيين ذهبتُ إليهما في رسالتي للماجستير ، فلم أستطع اقناعه بوجهاتهما ، ولم استطع - عليه الرحمة - أن يقنعني بخطلهما ، فلم يزد على أن قال :

- طيب ، لا تستغرب إذا ناقشتك - يوم المناقشة - في هذين الرأيين رغم أنني المشرف .

وفعل ما قال يوم المناقشة ، فكان من رأي المرحوم الدكتور باقر عبد الغني - وكان من أعضاء لجنة مناقشة الرسالة - أن الحق مع التلميذ وليس مع الأستاذ ، فما كان منه إلا أن تهلل فرحاً حتى ترقق الماء في عينيه ، ثم أمعن في تواضعه قائلاً : إنه لا شيء يُفرحه بمقدار ما يُفرحه أن يكون رأي التلميذ أصوب من رأي أستاذه .

ولا أظن الآن ان رأيي كان أصوب من رأيه ، ولكنه كان يريد ان يعلمني ويعلم الآخرين احترام الرأي الآخر ، والاذعان للحق حتى لو كان صادراً من تلميذ . وليس غريباً على مثله هذه التقاليد الديمقراطية .

ولعلي أدرك الآن فرحه بطلابه - ونحن في مرحلة اليسانس - حين

يتناقشون مناقشة هادئة قائمة على الاحترام ، وأدرك غضبه حين يسيء أحدهم في المناقشة إلى زميل من زملائه يخالفه في الرأي ، فقد أسأت الأدب في إحدى المحاضرات إلى زميلي الكريم سلام - وكان مغرقاً في الحداثة الشكلية - فردّ سلام على إساءتي بابتسامة وديعة ، ولكنها مُفعمة بالمرارة ، فما كان من أستاذنا الطاهر إلا أن سألني وهو يتوهج غضباً :

- هل تعلمت الآن من ابتسامته ؟ إن للمناقشة آداباً إما أن تلتزم بها ، وإما أن تعزلها .

وكم حاولت أن أتعلّم منه هذا الدرس ، فنجحت مرة ، وأخفقت مرات .

وماذا أتذكر ؟ إننا من كثرة ما نتذكر نفقد الذاكرة أحياناً!

كان آية في التواضع ، وفي نقاء الذمة ، ولا أعني بتواضعه أنه كان لا يعجب بما يكتب ، أو لا يحب ما ألّف ، ولكنه كان يمشي على خيط رقيق يفصل بين الغرور والثقة بالنفس ، ومازلت أتذكر أنه يوم جاء إلى الجزائر ، كان كتابي : « فن التمثيل عند العرب » قد صدر في بغداد ، فاصطحب معه نسخاً منه إليّ ، وإذ شكرته واطعاً النسخ على طاولة سألني متعجباً :

- لم أرك احتفيت بكتابك ، ألا تحب أن ترى ما تبحث في كتاب ؟

قلت :

أحب ذلك كثيراً ، ولكنني خجلت أن أفرح بحضرة أستاذي أنت والدكتور المخزومي . قال :

- ولم الخجل ؟ انني لا أكاد أنام فرحاً عندما يصدر لي كتاب .

ولكن هذا الذي لا يكاد ينام فرحاً حين يصدر له كتاب ، لم أسمعه ، ولم يسمعه الناس قال ذات يوم : إنه ذهب إلى هذا الرأي أو ذاك في أحد كتبه الكثيرة ، بل إنه حدث أن حقق الدكتور سامي مكّي العاني كتاب البخازري :

«دمية القصر» رسالة نال بها شهادة الدكتوراه تحت إشراف الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في القاهرة تحقيقاً على الغاية من الرءاءة . وكان عليه أن يكتب دراسة في صدر التحقيق عن الباخرزي وعن عصره ، فسطا على ما كتب الدكتور الطاهر عن العصر في كتابه الرائع : «الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي» فسرق منه ما يقرب من تسعين صفحة سرقة لم يكلف نفسه فيها حتى عناء تغيير حروفها ، ولابد أن الدكتور الطاهر - وقد طبع كتاب الدمية في النجف وتداوله الناس - كان قد اطلع على السرقة ، وتحقق منها - كدأبه في التحقيق - ولكن لم يسمع أحد منه أنه تحدث في أمرها . بل إنه لم يتحدث حتى بعد أن كتب الدكتور يحيى الجبوري عنها في مجلة «العرب» .

أما نقاء دمة الدكتور الطاهر ، فلعله مما لا يختلف فيه اثنان ، ولا ينتطح فيه عنزان ، فقد بلغ به هذا النقاء أن نصح قراءه من المؤلفين في مقدمة كتابه : «الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي» أن يُحيلوا - إذا احتاجوا الى شيء منه - على اسم الكتاب لا على اسم مؤلفه ؛ لأنه ليس لمؤلفه الدكتور الطاهر - كما يقول هو - إلا الجمع والاستيعاب والعرض . ومن هنا كان ينكر على المؤلفين العرب ، والمصريين منهم - بوجه خاص - أن يزعموا أنهم يؤلفون في الأدب الغربي ، وهم لا يفعلون - لدى الحق - أكثر من أن يترجموا وأن ينقلوا .

وقد كان من اليقين بهذه الحقيقة بحيث لم يهتز ولم يدهش يوم كتب الأديب العراقي الأستاذ عبد المطلب صالح عن الأستاذ الدكتور محمد مندور - وكان الدكتور الطاهر من المعجبين بمندور ناقدأ وبصفاء تذوقه الأعمال الأدبية - أنه ترجم كتابه : «نماذج بشرية» ولم يؤلفه كما زعم على غلافه ؛ إذ لم يزد الدكتور الطاهر - ونحن نتفاوض في الأمر - على أن قال :

- وماذا تنتظر ممن يكتب مثل هذا الكتاب ؟ لابد له من الترجمة وإن زعم أنه آلف .

ولعل تواضع الدكتور الطاهر ونقاء ذمته هما اللذان جعلاه يتخذ مواقف يراها الآخرون غير ودية من الأدباء الذين لم يكن يرى فيهم هاتين الصفتين كما يريد بالغا ما بلغت شهرتهم . ولعل أجلى مثل على ذلك موقفه من الاستاذ عبد الوهاب البياتي ، وقد كتب هذا الموقف ، فقد كان لا يحتفل به لسببين أولهما : كثرة إعلانه عن نفسه - وهذا يتنافى مع تواضع الدكتور الطاهر - وثانيهما ادعاؤه أنه ترجم شيئاً من شعر پول إيلوار بالاشتراك مع أديب مصري ، فقد كتب الدكتور الطاهر يسأل : كيف تسنى للبياتي - وقد رسب في الفرنسية عند مدام البصير - أن يترجم عنها ؟ وأثارت كتابة الدكتور الطاهر لفظاً بين الأدباء العراقيين حتى اتهمته طائفة منهم بالتجني على البياتي ، وحتى بدا لي أن أطلب من الاخ عبد الرضا الوزان - وكان مسجل كلية الآداب التي ورثت دار المعلمين العالية - أن يتحرى الأمر في ملف الأستاذ البياتي ، فوجدنا الأمر كما قال الدكتور الطاهر .

ولقد ذكرت الأستاذ البياتي دون سواء ، وعذراً لأبي علي ، لأدّل على المدى الذي بلغه نقاء الذمة من نفس الدكتور الطاهر ، وإلا فإنه كان يعلم - عليه رحمة الله - حق العلم أنه يعرض نفسه إلى عدااء مجموعة وزارات إعلام متنقلة تمشي على قدمين ، وليس إلى عدااء وزارة واحدة!

ويحز في النفس الآن أن رسائل الدكتور الطاهر التي لم تنقطع عني منذ أيلول ١٩٧٨ وحتى حزيران ١٩٩٦ ليست معي ، وإلا لكنت عرضت من خلالها إلى جانب آخر من جوانب طهره ونقاؤه . ويعزّيني عن ذلك أنني فاعل ذلك يوماً ما .

لم تكن وفاة الفقيد خسارة لعائلته : أم راند ، ورائد ، ولييد ، وأربد ، ولا خسارة للأدب العراقي ، أو العربي ، وإنما هي خسارة لكل هؤلاء وللحركة الوطنية العراقية ، وللفكر النير .

كان الطاهر أمةً وحده .





# من بغداد إلى القيروان

أبو بكر محمد بن خلف بن العزبان  
برية بن أبي اليسر الرياضي



## أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان

وكتابه: «ذمُّ الثقلاء».

لم يُفرد أحدٌ - قبل ابن المرزبان - كتاباً برأسه لموضوع الثقلاء إلا أبو العنبر الصيمري محمد بن إسحاق الكاتب الكوفي - قاضي الصيمرة - المتوفى سنة ٢٧٥هـ<sup>(١)</sup> ، رغم أنه موضوع إنساني فيه الكثير من الطرافة ، والجدة . وإذا كان خوض أبي العنبر في هذا الموضوع يمكن أن يدلّ على مزاج خاصٍ ساخرٍ عُرف به أبو العنبر ، واشتهر به ، مما يجعلني أتوقع أن يكون كتابه ساخرًا مثله لا يختلف كثيراً عن كتبه الأخرى في أدب السُخف من مثل : « تأخير المعرفة » ، و « فضل السلم على الدرجة » ، و « شكوى الجمل إلى رثه » وسواها من كتبه ، فإنه يمكن أن تدلنا إثارة ابن المرزبان موضوع الثقلاء مرةً أخرى - في هذا العصر - على الشوط الذي قطعتة المجتمعات الإسلامية في مدارج الحضارة ، والرقى الاجتماعي . ولا أدلّ على هذا الرقيّ مما كان عليه العربُ إبان نزول الوحي من تخلف يبلغ بعضهم - كما دلّنا المؤلف - أن يؤلم لهم النبي ﷺ ليلة بنائه بزينة بنت جحش (رض) ، فيظلوا في داره يتحدثون ، وكأنهم لا يدركون أن عليه أن ينصرف إلى أهله ؛ وأن عليهم أن ينصرفوا بعد إذ طعموا ؛ فيخلّوا ما بينه وبين أهله ؛ حتى لينزل الوحي الكريم يقول لهم : « يا أيها الذين

(١) ينظر الفهرست ٦٦٨ ، أما أبو محمد الحسن بن محمد الخلال . وله كتاب في الثقلاء . فهو متأخر عن ابن المرزبان إذ توفي سنة ٣٥٢ هـ .

آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَازِلِينَ بِهِ وَلَكِنْ  
 إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ  
 يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا  
 فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا  
 رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ  
 عَظِيمًا<sup>(١)</sup> . أَقُولُ : لَا أَذَلُّ عَلَى هَذَا الرَّقِيٍّ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنَ التَّخَلُّفِ  
 الْاجْتِمَاعِيِّ وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ حَتَّى لَنَرَى بَعْضَ الْمَشْتَغَلِينَ بِرَوَايَةِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ  
 الشَّرِيفِ لَا يَحْدِثُونَ مَنْ يَسْتَقْلُونَهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِدْرَاكِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ وَاجِبَاتِهِمْ  
 الدِّينِيَّةِ ، وَأَنَّهُ مِنْ صَمِيمٍ مَا يَشْمُكُونَ بِهِ مِنْ وَرَعٍ ، وَتَقْوَى .

وَمِنْ هُنَا فَالْكِتَابُ آيَةٌ نَاصِعَةٌ مِنْ آيَاتِ مَا بَلَغَهُ الْمَجْتَمَعُ الْعَرَبِيُّ ، وَالْعِرَاقِيُّ  
 مِنْهُ ، بِوَجْهِ خَاصٍّ ، مِنَ التَّطَوُّرِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَالرَّقِيٍّ الْحَضَارِيِّ . وَلَعَلَّ فِي هَذَا  
 مَا يُفَسِّرُ ظُهُورَ شُعْرَاءٍ فِيهِ مِنْ أَمْثَالِ : أَبِي نَوَاسٍ ، وَوَالِبَةَ بْنِ الْحَبَابِ ، وَالْحُسَيْنِ  
 بْنِ الضَّحَّاكِ ، وَمَطِيعِ بْنِ إِيَّاسٍ ، وَأَبِي حَكِيمَةَ الْكَاتِبِ ، وَسَوَاهِمَ مَنْ شَغَلُوا دُنْيَا  
 الْأَدَبِ بِظَرْفِهِمْ ، وَلَطْفِهِمْ ، وَخَفَةِ أَرْوَاحِهِمْ ، وَلَعَلَّ فِيهِ مَا يُفَسِّرُ مَا قِيلَ عَنْ شَيْخِ  
 الْقُرَاءِ فِي عَصْرِهِ ، أَعْنِي : ابْنَ مُجَاهِدٍ الْمَتَوَفَى سَنَةَ : ٣٢٤ هـ مِنْ أَنَّ فِيهِ « ظَرْفُ  
 الْبَغَادَةِ مَعَ الدِّينِ وَالْخَيْرِ »<sup>(٢)</sup> وَلَعَلَّ فِيهِ مَا يُعَزِّزُ مَا كَانَ سَمَاءُ الْمَرْحُومِ الْعَلَامَةِ  
 الدَّكْتُورِ مُصْطَفَى جَوَادٍ بِالظَّرْفِ الْعِرَاقِيِّ ، يَوْمَ كَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ « وَكَانَ  
 اسْمُ الْعِرَاقِ مَقَارِنًا لِلظَّرْفَةِ... »<sup>(٣)</sup> . وَلَعَلِّي مُقَارِبُ الصَّوَابِ إِذَا فَسَّرْتُ بِهِذِهِ  
 الْحَقِيقَةَ حِمْلَةَ الرَّخَالَةِ الْأَنْدَلُسِيِّ ابْنِ جُبَيْرٍ الَّذِي زَارَ بَغْدَادَ فِي شَهْرِ صَفَرٍ مِنْ سَنَةِ  
 ٥٨٠ هـ ، عَلَى الْبَغْدَادِيِّينَ إِذْ لَمْ يَرَ فِيهِمْ : « إِلَّا مَنْ يَتَمَنَّعُ بِالتَّوَاضُعِ رِيَاءً ،  
 وَيَذْهَبُ بِنَفْسِهِ عَجْبًا وَكِبْرِيَاءً ، يَزْدُرُونَ الْغُرَبَاءَ ، وَيُظْهِرُونَ لِمَنْ دُونَهُمُ الْإِنْفَةَ

(١) الْأَحْزَابُ : ٥٣ .

(٢) تَارِيخُ الْإِسْلَامِ (وَفَيَاتُ ٢٢١-٢٣٠ هـ) : ١٤٦ .

(٣) فِي التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ ٢ : ٢١٢ . يَحْتَجُّ : آرَاءُ السَّلَفِ فِي الْأَدَبِ الْعِرَاقِيِّ .

والإباء ، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء ، قد تصوّر كلّ منهم في معتقده وخلّده أنّ الوجود كلّه يصغر بالإضافة لبلده...»<sup>(١)</sup> ؛ فلعلّهم رأوا فيه - وهو يحدثهم عن علماء الأندلس ، وعن محاسنها ، ويطلب منهم أن يقرّوا له بفضلها - ما جعلهم يستثقلون حديثه ، ويستثقلونه ، وما حملهم على أن يتذكّروا قول شاعرهم أبي نواس :

يبكي على طلل الماضين من أسدٍ لا درّ درك قل لي : من بنو أسد ؟

فإذا أضفنا إلى هذا تزمت طائفة من الأندلسيين ، وكشافة طبائعهم ، ثم رأينا ميل العراقيين إلى السخرية بالأشياء أدركنا سبب الحملة ؛ إذ هي أقرب ما تكون إلى تصادم مزاجين ، وتنافر طبيعتين .

لا أقول هذا دفاعاً عن العراقيين ، ولا انتصاراً لهم ؛ فهم في غنى عن هذا الدفاع ، وذلك الانتصار بمقدار ما أردت أن أعلّل ما حفز ابن المرزبان على تأليف مثل هذا الكتاب .

على أنّ حديثي عن هذا الجانب لا يعني إهمالي تأثير مزاج ابن المرزبان نفسه في اختيار بعض موضوعات كتبه ؛ إذ ينبغي لي أن أتذكّر أنه هو صاحب « تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » مما يدلّ على نزعة هجائية في نفسه ، ولا يقلل من أهمية الحديث عن هذه النزعة أن تُعزى إلى ظروف عصره ، وإلى بداية انحلال الخلافة العباسية فيه ، وما يجزّئه هذا الانحلال من اختلال في الموازين<sup>(٢)</sup> .

ولست أطيل في الحديث عن دواعي تأليف الكتاب ؛ لأنني أريد أن أتحدّث عن جوانب أخرى تهّم شأنه كتاباً انتهيت من تحقيقه . وأبدأ بالحديث عن مؤلفه فأقول :

(١) رحلة ابن جبّير ١٩٠-١٩١ .

(٢) تحدّث عن ذلك تفصيلاً في التمهيد من كتابي : « الشعر في الكوفة منذ أواسط القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث للهجرة » ، فلا أعيد الحديث فيه .

لم أعر على مرجع يتحدث عن أبي بكر حديثاً يُغنيني عن التعرض إليه ،  
 فقد كنت أطمح أن أحيل إلى مقدمة ناشر<sup>(١)</sup> كتابه «تفصيل الكلاب على كثير  
 ممن لبس الثياب» ، ولكنني وجدته تحدث في المقدمة عن الكلاب ،  
 وطبيعتها ، أكثر مما تحدث عن ابن المرزبان ، وعلمه ، مما يجعلني مسوِّقاً إلى  
 الحديث عنه بما سمحت به المصادر ، فأقول :

ينبغي أن أنبه باديء ذي بدء إلى ما يبدو وكأنه مشكلة في ترجمة ابن  
 المرزبان أثارها الصفدي في الوافي بالوفيات ، حين ترجم له على أنه اثنان لا  
 واحد . وتفصيل الأمر أن ياقوت الحموي كان ترجم له - قبل الصفدي - فسمّاه «  
 محمد بن المرزبان» وكتّاه ونسبه بقوله «أبو العباس الدميري» (ودميرة ،  
 قرية كبيرة بمصر قرب دمياط... وهما دمرتان إحداهما تقابل الأخرى على  
 شاطئ النيل في طريق من يريد دمياط)<sup>(٢)</sup> فأوهم أنه غير صاحبنا ، ولكنه حين  
 سرد جريدة كتبه ، وعرض إلى سنة وفاته دلّ على أنه هو هو ، وإنما تحرّفت  
 كلمة الذيمرتي على : الدميري<sup>(٣)</sup> ونقل الصفدي مقالته ياقوت ، وزاد عليه  
 أشياء ، وحذف أشياء ، فكان له من كلّ ذلك ترجمتان إحداهما لمحمد بن  
 خلف بن المرزبان المتوفى سنة : ٣٠٩هـ<sup>(٤)</sup> ، وثانيتهما لمحمد بن المرزبان<sup>(٥)</sup>  
 الذي أهمل ذكر وفاته ، وأهمل ذكر بعض كتبه التي تدلّ عليه مما ذكر ياقوت  
 قبله . والحق أن مثل هذا الخلط ليس غريباً على الصفدي في بعض التراجم التي

(١) هو الدكتور عصام محمد شبارو . وقد قدّم لطبعة دار الشافعي من الكتاب . بيروت ، ١٩٩٢ .

(٢) معجم البلدان ٢ : ٤٧٢ . ولم يذكر ابن المرزبان في علمائها .

(٣) نقل السيوطي في بنية الوعاة ١ : ٢٤١ ترجمته عن ياقوت فسمّاه : الدميرتي ، ووردت نسبته في الوافي  
 بالوفيات ٥ : ٥١٥ الدميري فحرّفها المحقق بما في معجم الأدباء . وبما في الطبعة غير المحققة من البنية .  
 فجاء : الدميري .

(٤) الوافي ٢ : ٤٤٠-٤٥٠ .

(٥) السابق ٥ : ١٥٠ .

يعقدها لمن تقدّم زمنه من الأدباء ، والعلماء ؛ فقد خلط أيضاً في ترجمة نفطويه ، فجعل منه اثنين<sup>(١)</sup> . وإذ جاء السيوطي ينقل من ياقوت كان الصفديّ - كما يقلب على الظنّ - نصب عينيه ، فأخذ شيئاً مما ذكر ياقوت وآخر مما حذف الصفديّ ، فكان له من كلّ ذلك ترجمة لاتكاد تدلّ على أحد .

وجليّة الأمر - كما يبدو أن ياقوت الحمويّ أراد أن يشير إلى أصله الفارسيّ ، فنسبه إلى دِيْمَرْت (بفتح الدال ويكرها) ، وهي قرية من قرى أصبهان ، فلما رأى الصفديّ أن هذه النسبة غريبة على ابن المرزبان ؛ لأنّه اشتهر بالنسبة إلى باب المَحْوَل ، فقليل المَحْوَلِي ، توهم أنه آخر ؛ فأعاد ترجمته بما يؤيد تصوّره حذفاً وإضافةً . وأعود الآن إلى ما كنت أريد الحديث عنه من أمره ، فأقول ؛

هو محمّد بن خلف بن المرزبان بن بسام المَحْوَلِي ، يكنى بأبي بكر ، وهي كنيته الشائعة ، وبأبي العباس<sup>(٢)</sup> وأبي عبد الله<sup>(٣)</sup> وتختلف المصادر في سبب نسبته ، فتذهب طائفة منها إلى أنها نسبة إلى قرية تقع غربيّ بغداد تُدعى المَحْوَل<sup>(٤)</sup> ، ولكنّ الباحث لا يطمئن تمام الاطمئنان إلى هذا التعليل ؛ لأنّ الذين قالوا به هم من المتأخرين ، مما يجعلني أميل إلى التفسير الآخر الذي يقول ؛ إنه منسوب إلى باب مَحْوَل « وهي محلة... بجنب الكرخ... متصلة »<sup>(٥)</sup> به .

(١) ينظر الوافي بالوفيات ٦ ١٢٩١-١٣٠٠ . وكانت الترجمة الأولى باسم « ابن عرفة المهلي » . والثانية باسم « نفطويه النحوي » .

(٢) كناه بذلك النديم في الفهرست ٣٩٦٠ ، وياقوت في معجم الأدباء ١٩ : ٥٢٠ .

(٣) كناه بذلك إسماعيل باشا البغدادي في إيضاح المكنون في ١ : ٥٤٣١ ، وفي سائر الصفحات التي ذكره فيها . ويكنى أخوه أحمد بن خلف بن المرزبان بأبي عبد الله أيضاً .

(٤) ينظر النجوم الزاهرة ٢ : ٢٠٣١ . وهدية العارفين ٢ : ٢٦٠ . ولعلّ المحوّل هي ما ندعوه اليوم بالمحويل ، وهي قرية تقع غربيّ بغداد أيضاً .

(٥) معجم البلدان ٥ : ٦٦٠ . ومن ذهب إلى هذا الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٧٠ . وابن الجوزي في المنتظم ٦ : ١٦٥٠ ، وانفرد ياقوت في معجم الأدباء بنسبته إلى الدميرة ، فقال « محمد بن المرزبان ، أبو العباس الدميري . على حين لم يذكر شيئاً من هذا في معجم البلدان » .



وأسرته فارسية ، وفي اسم جدّه « المرزيان » وفي سكوت المصادر عن أن تنسبه إلى قبيلة بعينها ، ثم في نسبة ياقوت إياه إلى دِيمَرْت - كما مرّ بنا - إنّ في كلّ ذلك مضافاً إليه إجادته اللغة الفارسية ، وترجمته منها<sup>(١)</sup> ما يدلّ على كونه من أصلٍ فارسيّ دلالة واضحة ، وتجمع المصادر على نسبته إلى الآجر ، فتقول : الآجري المحوّلي ، ولانعرف إن كانت هذه النسبة إلى صناعة الآجر ، أو إلى « درب الآجر من نهر طابق في المحالّ الغريبة »<sup>(٢)</sup> من بغداد ، ولكننا نتصور أنّ تعدّد هذه النِسَب يمكن أن يشير إلى أصل الأسرة الأول ، ثم إلى تنقلها - بعد أن استوطنت بغداد - في محالّها .

وهي أسرة تهتمّ بالأخبار ، والأدب ، إذ وجدنا صاحبنا يروي عن أبيه في هذا الكتاب بما هو صريح في أن لأبيه مشايخ<sup>(٣)</sup> ، ووجدنا أبا الفرج الأصبهاني يروي عن أخي صاحبنا : أحمد<sup>(٤)</sup> . ولم تكن روايته عنه روايةً عابرةً ؛ فقد نصّ الخطيب البغداديّ وهو يترجم له على أنّه « صاحب أخبار ، ومُلَحّ ، وأشعار ، وله تصانيف وروايات... »<sup>(٥)</sup> شأنه في ذلك شأن أخيه الأكبر منه ، أعني به صاحبنا : محمداً . وعلى أن مثل هذه العائلة تبيح لنا أن نتخيّل أنّ نشأته كانت نشأة علمية ، إلّا أننا لا نملك صورة واضحة عن هذه النشأة .

ويبدو أنه اهتم برواية الحديث النبويّ الشريف والأخبار ، وبالأدب فكان له فيها شيوخ ، ولعله اهتم بشيء من الثقافة الإغريقية التي كانت سائدة في عصره ، ولكننا لا نزعم أنه كان عميقاً فيها .

(١) ينظر معجم الأدباء ١٩ : ٥٢٠ .

(٢) الأماكن ١ : ٥٦١ .

(٣) ينظر ٣ : و .

(٤) ينظر نشوار المحاضرة ٦ : ١٩٢ . فقد روى خبر شراء المتوكل جاريّتين عن أبي الفرج عن أحمد بن خلف بن المرزيان . وترجمة أحمد في تاريخ بغداد ٤ : ١٢٥١ .

(٥) تاريخ بغداد ٤ : ١٢٥٠ .

من شيوخه مَنْ نصرَ القدماءَ على تلمذته لهم ، فمن هؤلاء :

- ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد ، المتوفى سنة : ٢٨١هـ<sup>(١)</sup> .

- أحمد بن منصور الرمادي ، المتوفى سنة : ٢٦٥هـ<sup>(٢)</sup> .

- الزبير بن بكار المتوفى سنة : ٢٥٦هـ<sup>(٣)</sup> .

- محمد بن أبي السريّ الأزدي ، ولم يذكر الخطيب وفاته ، إلا أنه قال :

إنه من طبقة محمد بن أبي السريّ المتوكلّ العسقلاني ، ومعروف أن العسقلانيّ هذا توفي سنة ٢٣٨هـ<sup>(٤)</sup> .

- عبد الله بن عمرو البلخي ، وهو المعروف بعبد الله بن أبي سعد الوراق

البلخي ، المتوفى سنة : ٢٧٤هـ<sup>(٥)</sup> ، وقد روى عنه في كتابنا هذا مرة واحدة .

- أحمد بن أبي خيثمة المتوفى سنة : ٢٧٩هـ<sup>(٦)</sup> ، ويسميه في هذا الكتاب

باسم أبيه لا بكنيته ، فيقول : أحمد بن زهير .

- عيسى بن عبد الله الطيالسي المتوفى سنة : ٢٧٧هـ<sup>(٧)</sup> .

(١) نصرَ على ذلك الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٠ : ٩٠ . و ٢٣٨١ : ٥ . ويقوت في معجم البلدان ٥ : ٦٦ .

وابن الجوزي في المنتظم ٦ : ١٦٥ . والذهبي في تاريخ الإسلام (وفيات ٢٠١-٢٢٠) ٢٦٠ : ١ .

(٢) ينظر تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٧ . ومعجم البلدان ٥ : ٦٦ . وقد تصخّف فيه على الزيادي ، ومعجم الأدباء

١٩ : ٥٢١ . وتاريخ الإسلام ١ : ٢٦٠ . وطبقات المفسرين ٢ : ١٤٦ . وتصف في نشوار المحاضرة ٥ : ٩١

على : أحمد بن محمد بن منصور بن سيار . وهو في مصارع المشاق ١ : ٤٢١ أحمد بن منصور بن سيار .

(٣) تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٧ . ومعجم الأدباء ١٩ : ٥٢١ . ومعجم البلدان ٥ : ٦٦ . والمنتظم ٦ : ١٦٥ . وطبقات

المفسرين ٢ : ١٤٦ . والوافي بالوفيات ٢ : ٤٤١ . والنجوم الزاهرة ٢ : ٢٠٣ .

(٤) تاريخ الإسلام ١ : ٢٦٠ . وتاريخ بغداد ٥ : ٢٣٧ . وقد تحرف على : محمد بن أبي السوى .

(٥) تاريخ بغداد ١٠ : ٢٦٠٢٥٠ . وقد تحرف اسمه في نشوار المحاضرة ٥ : ١٠٥٠٥ على : عبد الله بن عمر .

ولممه تطيع . وينظر مصارع المشاق ١ : ٧٧ .

(٦) نفسه .

(٧) نفسه .

- الحارث بن أبي أسامة المتوفى سنة : ٢٨٢هـ<sup>(١)</sup> .

- مغيرة بن محمد بن المهلب... بن المهلب بن أبي صفرة ، المعروف بأبي حاتم المهلبى الأزدي المتوفى سنة : ٢٧٨هـ<sup>(٢)</sup> .

- ابن أبي طاهر الكاتب ، المعروف بابن طيفور المتوفى ٢٨٠هـ<sup>(٣)</sup> . وقد روى له في كتابنا هذا في موضعين ، وهو من أصدقائه<sup>(٤)</sup> ، ولعله من أكثر شيوخه تأثيراً فيه ، حتى إنّه « كان يتعاطى » طريقته<sup>(٥)</sup> ، وقد تحرّف في تفضيل الكلاب على : ابن طاهر الكاتب<sup>(٦)</sup> .

- أبو سليمان البلخي النابلسي ، إدريس بن يزيد ، المتوفى بعد سنة ٢٨٠هـ<sup>(٧)</sup> . وهناك شيوخ لم يذكرهم مترجموه ، وإنما اكتفوا أن يشيروا إليهم بما اعتادوا أن يختتموا به جريدة أسماء شيوخه المشهورين ، وشيوخ سواء ، من نحو قولهم : « وغيرهم » أو « وسواهم » .

وأريد الآن أن أسرد ما استطعتُ الاهتداء إليه من أسماء هؤلاء ، سواء أكانوا من المشهورين أم من المغمورين ، فأقول : من هؤلاء الذين روى عنهم : - أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد المتوفى سنة : ٢٨٦هـ ، وقد روى عنه في كتابه « تفضيل الكلاب » وسماه : أبا العباس المبرّد ، مرّةً ، وأبا العباس الأزدي مرّةً أخرى<sup>(٨)</sup> ، ومحمد بن يزيد النحوي مرّةً ثالثة<sup>(٩)</sup> .

(١) السابق ٢٢٨١٥ .

(٢) تاريخ بغداد ١٢ : ١٩٥٠ ، وله رواية عنه في الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١١٦٠ .

(٣) تاريخ الإسلام (وفيات ٢٧١-٢٨٠) ٢٥٦٠ .

(٤) ينظر خراجتماعه هو والناسي ، بن محمد في دار ابن المرزبان . ودعوتوه مخفية لهما في المنتظم ٦ : ٥٨٠ .

(٥) الفهرست ٦٥١-٦٥٥ .

(٦) تفضيل الكلاب : ٥٢٠ ، وورد صحيحاً في ٥٨٠ ، ٦٨٠ ، وكناه بكنته «أبي الفل» .

(٧) ينظر تاريخ الإسلام (وفيات ٢٨١-٢٩٠) ١١٤٠ .

(٨) تفضيل الكلاب ٤٦١ : ٦٥٠ . وروى خبراً في نزعة الأنبياء : ٢٢٢ عن المناصرة التي بين المبرّد وثعلب .

(٩) ينظر الأغاني : ٣١٥٥ .

- القاسم بن الحسن المتوفى سنة ٢٧٢ هـ<sup>(١)</sup> .

- أبو محمد جعفر بن الفضل العسكري<sup>(٢)</sup> .

- أحمد بن حرب<sup>(٣)</sup> ولعله أحمد بن حرب بن مسمع بن مالك ، أبو

جعفر المعدل ، المتوفى سنة : ٢٧٥ هـ .

- إسحاق بن محمد<sup>(٤)</sup> .

- محمد بن إسحاق<sup>(٥)</sup> . وذهب المرحوم الأستاذ عبود الشالحي إلى أنه :

محمد بن إسحاق البغوي ، وليس هناك قرينة فيما أحال عليه - أعني تاريخ بغداد - تدل على أنه المعنى ، دون سواء .

- سليمان بن أيوب المديني<sup>(٦)</sup> .

- أبو بكر العامري<sup>(٧)</sup> .

- محمد بن موسى<sup>(٨)</sup> .

---

(١) ينظر نشرار المحاضرة ٩٠ : ٥ ، وقد ألفت في ممرته من حاشية محققه الأستاذ عبود الشالحي . وقد روى عنه في كتابنا مرتين ، وينظر مزارع المشاق ٢٢٠ : ١٥٠ .

(٢) النشرار ٥٠ : ٩٢٠ .  
(٣) السابق ١٠١ : ٥ ، ومزارع المشاق ١٢٩ : ١ وقد تصحف اسم أبيه فيه على : جرب ، وورد صحيحاً في ١ : ٢٢٢ .

(٤) السابق ١١٠ : ٥ ، قال المحقق : إنه إسحاق بن محمد بن أحمد بن أبان النخعي ، وهذا النخعي من غلاة الشيعة ، كان تلميذاً للمازني المتوفى سنة ٢٤٩ هـ على أحد الأقوال . ينظر الوافي بالوفيات ٨ : ٤٢٢-٤٢٣ . وينظر مزارع المشاق ٨١ : ١ إذ يروي إسحاق فيه عن ابن الأعرابي المتوفى - على أحد الأقوال - سنة ٢٣١ هـ ، ويروي عن محمد بن سلام في ٢ : ١٢٣ ، وسماه السراج مرة أخرى في ١ : ٢٥٠ .  
إسحاق بن محمد الكوفي ، وإسحاق بن محمد بن أبان في ٢ : ١٧ مرة ثالثة ، وإسحاق بن محمد مرة رابعة في ٢ : ٧٥٠ .

(٥) السابق ١١٢ : ٥ ، وتنتظر روايته عنه في مزارع المشاق ٩٠ : ٢ .

(٦) السابق ١١٨ : ٥ .

(٧) السابق ١٣٧ : ٥ و١٥٨ ومزارع المشاق ١٩ : ٥١ وقد روى عنه في هذا الكتاب في أكثر من موضع .

(٨) النشرار ٥ : ١٦٢٠ .

- أحمد بن حبيب<sup>(١)</sup> ، وقد روى عنه في كتابنا هذا ، فكناه بأبي الفضل .  
ثم سماء . ولا أعرف من هو ، ولكنني أشك في أن يكون هو أحمد بن حبيب  
بن حماد ، أو أحمد بن حبيب النهرواني - كما أوحى المرحوم الأستاذ عبود  
الشالجي في إحالته على تاريخ بغداد - لأن كنية الأول فيه : أبو جعفر ، وكنية  
الثاني : أبو بكر ، على حين أن كنية صاحبنا المعني هي : أبو الفضل .

- عبد الله بن محمد<sup>(٢)</sup> ، وسماه في كتابنا هذا : عبد الله بن محمد  
القنطري مرة ، وكناه بأبي بكر مرة أخرى .

- محمد بن عبد الله بن أبي مالك الخزاعي<sup>(٣)</sup> .

- حماد بن إسحاق الموصلي<sup>(٤)</sup> . وقد كان يروي عن أبيه كتابه :  
« الأغاني »<sup>(٥)</sup> .

- محمد بن إسحاق<sup>(٦)</sup> . وليس هنالك ما يقطع بأنه الصيرفي الشاهد  
المتوفى سنة : ٢١٦ هـ .

- محمد بن عبد الرحمان الصيرفي<sup>(٧)</sup> المتوفى سنة : ٢٦٥ هـ .

- أبو عبد الله التميمي<sup>(٨)</sup> ، ولعله هو الذي روى عنه مرة في كتابنا هذا  
باسم : عبد الرحمان بن محمد التميمي .

(١) السابق ٥ : ١٨٣ .

(٢) السابق ٥ : ٢٤٩ ، وقد روى عنه في كتابنا هذا في أكثر من موضع .

(٣) السابق ٥ : ٢٨١ . وتظهر روايته عنه في مصارع العشاق ١ : ٢٤٠ . وهو فيه : ... بن أبي مالك بن الهيثم  
الخزاعي .

(٤) انساب ٥ : ٢٨٧ ، ٧ : ١٣٤ ، ولم يذكر نسبه . وإنما ذهب إليها محققه . وله رواية عنه في مصارع  
العشاق ١ : ٢٣٤ .

(٥) ينظر تاريخ بغداد ٨ : ١٥٩ .

(٦) النشوار ٧ : ٢١٠ ، وقال : لمحقق : إنه نصيرفي الشاهد .

(٧) انساب ٧ : ٦٦ .

(٨) انساب ٦ : ٢٣٨ ، ٧ : ٢٥٣ ، ومصارع العشاق ١ : ٢٥٣ ، وقد روى عنه في كتابنا هذا في أكثر من موضع .

- محمد بن عبد الله بن الفضل<sup>(١)</sup> .
- أبو الفضل قاسم بن سليمان الإيادي<sup>(٢)</sup> .
- عبد الرحمان بن سليمان<sup>(٣)</sup> .
- عبد الرحمان بن عبد الله السرخسي<sup>(٤)</sup> .
- محمد بن الفضل<sup>(٥)</sup> .
- عبيد الله بن سعد الزهري<sup>(٦)</sup> .
- أبو علي الحسن بن عليل الغنزي ، وقد روى عنه مكاتبه ، ثم لقيه<sup>(٧)</sup> .
- زكريا بن يحيى الكوفي<sup>(٨)</sup> . وهو من شيوخه - على ما يبدو - في الحديث .
- زكريا بن موسى<sup>(٩)</sup> .
- أحمد بن شذاد<sup>(١٠)</sup> .
- أبو العباس أحمد بن يحيى<sup>(١١)</sup> الإمام ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ .
- عبد الجبار بن عبد الأعلى<sup>(١٢)</sup> .

(١) السابق ٢٢٢ : ٦ ، ومعارع المشاق ١ : ٢٦٦ .

(٢) السابق ٢٢٩ : ٦ ، وتنظر روايته عنه في معارع المشاق ٢ : ٥٧١ ، وروى عنه مرة واحدة في كتابنا هذا .  
وسماه : القاسم .

(٣) النشوار ٢٤٠ : ٦ ، وتفصيل الكلاب ١٠٩٠ ، وتنظر روايته عنه في معارع المشاق ٢ : ٢٧١ .

(٤) تنظر روايته عنه في معارع المشاق ١ : ٥٢٠ .

(٥) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ٦٢٠ .

(٦) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ٦٩٠ .

(٧) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ٩٢٠ .

(٨) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ١٠٢٠ .

(٩) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ١٢٥٠ ، ٢ : ١٨١٠ .

(١٠) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ١٢٣٠ .

(١١) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ١٢٥٠ .

(١٢) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ١٤٦٠ .

- عبد الله بن المهاجر<sup>(١)</sup> .

- أبو صالح الأزدي<sup>(٢)</sup> .

- أبو الفضل المروزي<sup>(٣)</sup> .

- أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحيم<sup>(٤)</sup> .

- عبد الله بن شبيب<sup>(٥)</sup> ، أبو سعيد الرّيمي ، ولم يذكر تاريخ وفاته ،

ويبدو أنه من أقران الزبير بن بكار المتوفى : ٢٥٦هـ ، فقد روى عنه الزبير ، وروى هو عن الزبير<sup>(٦)</sup> .

- سعيد بن عمر البيروزي<sup>(٧)</sup> .

- أبو عليّ البلديّ الشاعر<sup>(٨)</sup> .

- جعفر بن عليّ الشكري<sup>(٩)</sup> .

- أبو الفضل الكاتب<sup>(١٠)</sup> .

- أبو عبد الله السدوسي<sup>(١١)</sup> .

- أبو هفان المتوفى سنة : ٢٥٠هـ<sup>(١٢)</sup> .

---

(١) تنظر روايته عنه في مصارع العشاق ١ ٥٠٢ - ٢٠٥١ .

(٢) تنظر روايته عنه في المصدر نفسه ، و ٢٩٦٠ ٢٠٥١ .

(٣) تنظر روايته عنه في السابق ١ ٢١٣٠ .

(٤) تنظر روايته عنه في السابق ١ ٢٤٤١ .

(٥) النشوار ٦ ٢٤٤١ . وقال محققه : إنه الرّيمي .

(٦) ترجمته في تاريخ بغداد ٩ ١٥٦١-١٧٤١ .

(٧) النشوار ٦ ٢٤٢٠ . وتنظر روايته عنه في مصارع العشاق ١ ٢٤٧٠ وفيه البيروزي .

(٨) السابق ٦ ٢٤٢٠ . وتنظر روايته عنه في مصارع العشاق ٢ ٩٠٠ .

(٩) السابق ٦ ٢٤٤١ . وتنظر روايته عنه في مصارع العشاق ٢ ٥١٠ .

(١٠) السابق ٦ ٢٤٨٠ . ومصارع العشاق ٢ ٢٨٠ . ولعله ابن طيفور . أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر

(١١) تفضيل الكلاب : ٤٧٠ .

(١٢) السابق ٤٩٠ .

- زيد بن علي<sup>(١)</sup> .

- القاسم بن محمد الرصدي<sup>(٢)</sup> .

- الحسن بن عبد الوهاب<sup>(٣)</sup> .

- عبد الواحد بن محمد النجاري<sup>(٤)</sup> .

- أحمد بن منصور<sup>(٥)</sup> .

- عبد الله بن محمد الكاتب<sup>(٦)</sup> .

- أبو العلاء بن يوسف القاضي<sup>(٧)</sup> .

- علي بن محمد<sup>(٨)</sup> . وقد روى عنه في كتابنا هذا في موضع واحد .

- عبد الرحمان بن محمد الحنظلي ، وقد روى عنه في كتابنا هذا ثلاث

مرات .

- أبو العباس المروزي ، وقد روى عنه في أكثر من موضع في كتابنا هذا ،

وفي مصارع المشاق<sup>(٩)</sup> .

- محمد بن عبد الله الأهوازي<sup>(١٠)</sup> .

- موسى بن الحسن النّسائي ، وقد روى عنه مرة واحدة في كتابنا هذا .

---

(١) السابق ٥١٠ .

(٢) السابق ٥٨١ .

(٣) السابق ٦٠٠ .

(٤) تنظر روايته عنه في مصارع المشاق ١ : ٢٦٥٠ ، ولست على ثقة من نسبته .

(٥) السابق ٦٨٠ .

(٦) السابق ٩١٠ ، ولعله عبد الله بن محمد الطالقاني المذكورة روايته عنه في مصارع المشاق ٢ : ٦٢٠ : ١٠٤٠ .

(٧) السابق ٩٤١ .

(٨) السابق ٩٨٠ .

(٩) ١ : ٣٤٠ .

(١٠) تنظر روايته عنه في مصارع المشاق ١ : ١٤١٠ . ويبدو أنه غير محمد بن عبد الله بن الفضل .



- عمر بن عبد الوهاب ، وقد روى عنه مرة واحدة أيضاً في كتابنا هذا .
- عبد الله بن نصر ، وقد روى عنه في كتابنا هذا في أكثر من موضع ، ونسبه مرة ، فقال : الرياشي ، وورد على عبد الله بن نصر المروزي<sup>(١)</sup> .
- عبد الله بن عبيد القرشي ، وقد روى عنه مرة واحدة في كتابنا هذا<sup>(٢)</sup> .
- محمد بن إسحاق بن عبد الرحمان المدائني ، وقد روى عنه أكثر من مرة في كتابنا هذا .
- محمد بن الحنظلي ، وقد روى عنه مرة واحدة ، ولا أعرف إن كان هو عبد الرحمان بن محمد السالف الذكر ، وتحرف على يد الناسخ أم أنه آخر .
- محمد بن عمران بن زياد الضبي ، وقد روى عنه مرة واحدة في هذا الكتاب .
- محمد بن بكر ، وقد روى عنه مرة واحدة في هذا الكتاب .
- محمد بن عبد الله بن عمر ، وروى عنه في كتابنا هذا مرة واحدة .
- عبيد الله بن عبد الله الخراساني ، وقد روى عنه مرة واحدة .
- الحسن بن صالح البرتي ، وقد روى عنه مرة واحدة في كتابنا<sup>(٣)</sup> .
- محمد بن صالح الكوفي ، ولم أعرفه ، وقد روى عنه مرة واحدة .
- عبد الله بن جعفر ، وقد روى عنه مرة واحدة .
- سلمة بن يزيد ، وقد روى عنه مرة واحدة .
- عبد الجبار بن محمد الطوسي ، وقد روى عنه مرة واحدة .

(١) ينظر مصارع المشاق ١٨٠١ .

(٢) وتنظر روايته عنه في مصارع المشاق ١٦٠١ .

(٣) وتنظر روايته عنه في السابق ١٢٠١ . وقد كناه بأبي علي .

- أبو بكر الكوفي ، وقد روى عنه مرة واحدة .
- محمد بن علي ، وقد روى عنه مرتين<sup>(١)</sup> .
- سعيد بن عثمان ، وقد روى عنه مرة واحدة .
- أبو النضر ، ولعله أحمد بن إبراهيم بن الحارث العقيلي<sup>(٢)</sup> ، وقد روى عنه في كتابنا هذا مرة واحدة .
- الواسطي ، هكذا سماه ، ولعله حماد بن محمد بن حماد ، أبو سعيد الأعرور الواسطي ، إذ هو من معاصري صاحبنا ، فقد كان من شيوخ محمد بن مخلد الدوري المتوفى سنة : ٣٣١هـ<sup>(٣)</sup> . وروى عنه مرة واحدة .
- عبد الرحمان القنطري ، وقد روى عنه مرة واحدة .
- أبو محمد الطوسي ، وقد روى عنه مرتين .
- محمد بن عمر ، وقد روى عنه مرة واحدة في كتابنا هذا<sup>(٤)</sup> .
- أبو يعقوب النخعي ، وقد روى عنه مرة واحدة في كتابنا هذا .
- علي بن الفضل ، وقد روى عنه مرتين .
- عبد المؤمن بن عبد الله ، وقد روى عنه مرة واحدة .
- أبو محمد الأمين ، وقد روى عنه مرة واحدة .
- عمر بن عبد الحكيم ، وقد روى عنه مرة واحدة .
- أبو محمد عبد الله بن عبيد الله ، وقد روى عنه مرة واحدة .

(١) وتنظر روايته عنه في السابق ٢٧٠ ٢ .

(٢) ينظر تاريخ بغداد ١٤١ ٤ ، ومصارع المشاق ١٠٠ ٢ .

(٣) ينظر السابق ١٦٠ ٨ ، وفي وفاة الدوري ينظر الأنساب ٥ ٣٥٨١ .

(٤) وله عنه رواية في مصارع المشاق ١ ٢٩٠١ .

- أبو العباس محمد بن نصر ، وقد روى عنه مرة واحدة .
- أبو القاسم عبد الرحمان بن علي ، وقد روى عنه مرتين .
- إبراهيم بن محمد الطائفي<sup>(١)</sup> .
- أبو الفضل أحمد بن ملاعب<sup>(٢)</sup> .
- صالح بن يوسف المحاربي<sup>(٣)</sup> .
- يحيى بن جعفر الواسطي<sup>(٤)</sup> .
- أبو عبد الله محمد بن يوسف الكوفي<sup>(٥)</sup> .
- أبو العباس فضل بن محمد اليزيدي<sup>(٦)</sup> المتوفى سنة ٢٧٨ هـ .
- محمد بن معاذ<sup>(٧)</sup> .
- الحسن بن مكرم بن حسان<sup>(٨)</sup> .
- هارون بن محمد<sup>(٩)</sup> .
- عبد الله بن مسلم المروزي<sup>(١٠)</sup> .
- أبو العباس محمد بن يعقوب<sup>(١١)</sup> .

(١) الأغاني ٢٦١٩٠ . ومعارع العشاق ١١٠٠١ .

(٢) تنظر روايته عنه في معارع العشاق ٢٧٨١١ .

(٣) تنظر روايته عنه في السابق ٢٨٠٠١ .

(٤) تنظر روايته عنه في السابق ٣١٢٠١ .

(٥) تنظر روايته عنه في السابق ٣١١٠١ .

(٦) تنظر روايته عنه في السابق ٣١٧٠١ .

(٧) تنظر روايته عنه في السابق ٧٠٢ .

(٨) تنظر روايته عنه في السابق ٨٠٢ .

(٩) تنظر روايته عنه في السابق ١٢٠٢ .

(١٠) تنظر روايته عنه في السابق ١٣٠٢ .

(١١) تنظر روايته عنه في السابق ١٧٠٢ .

- عبد الملك بن محمد الرقاشي<sup>(١)</sup> ، وهو المعروف بأبي قلابة المتوفى ٢٧٦ هـ .

- عمر بن شبة<sup>(٢)</sup> .

- أحمد بن الهيثم القرشي<sup>(٣)</sup> .

- القحذمي<sup>(٤)</sup> . ولا أعرف عنه أكثر من هذا .

- محمد بن سلمة الواسطي<sup>(٥)</sup> .

- أبو حفص عمر بن علي<sup>(٦)</sup> .

- عبد الله بن أبي عبد الله القرشي<sup>(٧)</sup> .

- محمد بن هارون المقرئ<sup>(٨)</sup> .

- أبو العلاء القيسي<sup>(٩)</sup> .

- الحسن بن صالح الأسدي<sup>(١٠)</sup> .

- أبو جعفر أحمد بن الحارث<sup>(١١)</sup> .

- العمري<sup>(١٢)</sup> . ولم يُذكر عنه أكثر من هذا .

---

(١) تنظر روايته عنه في السابق ٢٢١ ٢ .

(٢) تنظر روايته عنه في السابق ٦٥١ ٢ .

(٣) تنظر روايته عنه في السابق ٦٦١ ٢ .

(٤) روى عنه شيئا من شعر مجنون ليلى في السابق ٧٦١ ٢ .

(٥) تنظر روايته عنه في المصدر السابق ٩٢١ ٢ .

(٦) تنظر روايته عنه في مصارع المشاق ٩٥١ ٢ .

(٧) تنظر روايته عنه في المصدر السابق ١٠٧١ ٢ .

(٨) تنظر روايته عنه في السابق ١٠٨١ ٢ .

(٩) تنظر روايته عنه في السابق ١١٥١ ٢ .

(١٠) روى شيئا من شعر أبي الغضائفة عنه في السابق ١١٩١ ٢ .

(١١) تنظر روايته عنه في السابق ١٢٩١ ٢ .

(١٢) تنظر روايته عنه في السابق ١١٣١ ٢ .

- أبو عبد الله أحمد بن أبي محمد القرشي<sup>(١)</sup> .
- أبو بكر القرشي<sup>(٢)</sup> . ولم يذكر عنه شيء أكثر من هذا .
- محمد بن العباس المكنَّب<sup>(٣)</sup> .
- أبو موسى عيسى بن جعفر الكاتب<sup>(٤)</sup> .
- علي بن صالح المعري<sup>(٥)</sup> .
- حسين بن الضحاک الشكري<sup>(٦)</sup> .
- إسحاق بن منصور<sup>(٧)</sup> .
- صالح بن يعقوب المديني<sup>(٨)</sup> .
- العباس بن الفضل الأسدي<sup>(٩)</sup> .
- أبو محمد التميمي<sup>(١٠)</sup> ، وأظنه غير أبي عبد الله السالف الذكر .

هذا ما تيسر لي من أسماء شيوخه ، وكثير منهم لا نعرف - اليوم - عنه شيئاً ، وكما روى عن هؤلاء الشيوخ الأخبار ، والأدب ، كان يروي عن بعض الشعراء من معاصريه أشعارهم ؛ فقد كان يروي عن البحري شيئاً من شعره<sup>(١١)</sup> ،

(١) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٠٦٠ .

(٢) تنظر روايته في السابق ٢ : ٢٥٤١ ، ٢٥٥١ .

(٣) تنظر روايته عنه عن عبد الرحمن بن أخي الأصمعي في السابق ٢ : ٢٦٢٠ .

(٤) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٧١٠ .

(٥) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٧٤١ .

(٦) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٧٧٠ .

(٧) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٨١٠ .

(٨) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٨٢٠ .

(٩) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٨٤٠ .

(١٠) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٩٤٠ .

(١١) ينظر وفيات الأعيان ٦ : ٢١٠ .

ويروي شيئاً آخر من شعر أبي بكر الطاهري<sup>(١)</sup> . وليس هذا الاهتمام بغريب عليه ؛ فقد كان هو نفسه يقول الشعر حين تدعوه إليه مناسبة<sup>(٢)</sup> .

وإذ سمع من كل هؤلاء وروى عنهم استوى له أن يكون أخبارياً<sup>(٣)</sup> صدوقاً ثبتاً<sup>(٤)</sup> ، وأن يوصف بأنه : « كان إماماً عالماً »<sup>(٥)</sup> ، و« فاضلاً بليغاً مؤرخاً عالماً بمجاري اللغة ، تصدّر عنه الكتاب الكبار ، وكان أحد التراجمة »<sup>(٦)</sup> .

ولكن هذا الفضل كله لم يؤهله أن يتصل بذوي الجاه في عصره ، كأن يكون على صلة بخليفة أو وزير أو نحوهما ؛ إذ لم يذكر مترجموه شيئاً يمكن أن يستشف منه ذلك ، وعلى أننا لانعرف يقيناً مورد رزقه ، إلا أننا لا نستطيع أن نصف حاله بالضيق ؛ فقد رأينا يجتمع عنده صديقاء ؛ ابن أبي طاهر الكاتب ، والناسي الأكبر فيدعو لهم مغنيّة تغنيهم<sup>(٧)</sup> . ولعلّ مثل هذه المجالس التي يكون فيها السماع قد أسهمت في أن يصفه الدار قطني بأنه « أخباريٌّ لئِنْ »<sup>(٨)</sup> .

ولا أستبعد أن يكون قد امتهن القضاء ؛ فقد رأينا تلميذه ابن حيويه ، والزبيبي يرويان عن سمياء ؛ أبا بكر محمد بن خلف القاضي ؛ إذ يغلب على ظني<sup>(٩)</sup> أنهما يعنيان به صاحبنا .

(١) ينظر الوافي بالوفيات ٢٠٠١٦ .

(٢) تنظر قصيدته في تاريخ بغداد ٢٣٨١٥ . ونقل الصفدي منها ثلاثة أبيات في الوافي ٢ ١١١ . وتنظر مطلقته في الحارث بن أبي أسامة في تاريخ الإسلام (وفيات ٢٨١-٢٩٠ هـ) ١٤٧٠ .

(٣) تاريخ بغداد ٢٣٧٠٥ .

(٤) المنتظم ١٦٥١٦ .

(٥) النجوم الزاهرة ٢٠٣١٣ .

(٦) معجم الأدباء ٥٢١١٩ . ووردت جملة « وتصدّر عنه الكتاب الكبار » في الوافي ١٥٠٥ « تصدر عنه الكتب الطوال » وفي بقية الوعاة ٢٤١٠١ « تصدر عنه الكتب الكبار » .

(٧) ينظر المنتظم ٥٨١٦ .

(٨) طبقات المفسرين ١٤٦١٢ .

(٩) قلت ؛ يغلب على الظن ؛ لأنني خشيت أن يكون الذي روي عنه هو القاضي وكيع ؛ فهو وابن المرزبان يتطابقان في الاسم .

وإذا لم يكن فضله قد أمله أن يكون من أهل النفوذ الباذخ ، فإنه أقله أن ينتصب للتدريس - كما هي طبيعة الحال - فيكون له تلاميذٌ عرضٌ مترجموه إلى بعضهم ، وسكتوا عن بعض . فمن هؤلاء الذين عرضوا إليهم من تلاميذه :

- أبو بكر بن الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨ هـ<sup>(١)</sup> .

- الحافظ أبو أحمد بن عدي<sup>(٢)</sup> ، وهو عبد الله بن عدي الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٥ هـ .

- أبو الفضل عيسى بن موسى بن أبي محمد بن المتوكل على الله الهاشمي العباسي المتوفى سنة ٣٦٣ هـ<sup>(٣)</sup> .

- أبو جعفر بن بريه الهاشمي<sup>(٤)</sup> .

- أبو عمرو بن حيويه ، محمد بن العباس بن محمد بن زكريا بن يحيى الخزاز ، المتوفى في ربيع الآخر من سنة ٣٨٢ هـ . وقد اعتمدت نشرتا لويس شيخو ، وإبراهيم يوسف لكتاب « تفضيل الكلاب » روايته عنه إجازة<sup>(٥)</sup> .

- ابن البختري ، أحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن البختري ، أبو العباس الداودي<sup>(٦)</sup> .

ومن تلاميذه من لم يذكرهم أحدٌ من مترجميه ، ولكن رواياتهم عنه ماثلة في المصادر ، فمن هؤلاء :

(١) تاريخ بغداد ٥ : ٢٢٧ ، والمنظوم ٦ : ١٦٥ ، والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٠٢ ، وتاريخ الإسلام (وفيات ٢٠١-٢٢٠) : ٢٦٠ .

(٢) معجم البلدان ٥ : ٦٦٠ .

(٣) تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٨ ، وتاريخ الإسلام (وفيات ٢٠١-٢٢٠) : ٢٦٠ ، و(وفيات ٢٥١-٢٨٠) : ٣١٠٠ .

(٤) تاريخ بغداد ٥ : ٢٢٨ .

(٥) ينظر تاريخ الإسلام (وفيات ٢٨١-٤٠٠ هـ) : ٤٥٠-٥٥٠ ، وتاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٢٩١-٢٤٠٠ ، ومقدمة

نشرة الدكتور عصام شبارو للكتاب

(٦) الوافي بالوفيات ٧ : ٨١ .

- الحسن بن سعيد الأدمي ، وهو الذي روى هذا الكتاب .
- أبو السائب القاضي عتبة بن عبيد<sup>(١)</sup> .
- أبو الفرج الأصبهاني المتداول تاريخ وفاته على أنه في سنة : ٢٥٦ هـ ، وقد روى عنه في أكثر من موضع في كتبه .
- أبو الحسين عبد الله بن إبراهيم الزبيبي<sup>(٢)</sup> .

### آثاره،

وكما كان له تلاميذ يروون عنه علمه بالأخبار ، والأشعار ، فقد كان له أيضاً مصنفات منها ما هو مترجمٌ من الفارسية إلى العربية ، فقد ترجم أكثر من خمسين أثراً<sup>(٣)</sup> ، لم يصل إلينا منها شيء .

أما آثاره الأخرى فهي :

- تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب . وقد نشره لويس شيخو في المجلد السابع من مجلة المشرق سنة ١٩١٢ م ، ونشره أيضاً إبراهيم يوسف في القاهرة سنة ١٣٤١ هـ ، ثم نشره الدكتور عصام محمد شبارو في دار التضامن ببيروت عام ١٩٩٢ م .

- ذم الثقلاء ، وهو هذا الكتاب ، وسأفرده بحديث خاص به .

- وصف الفارس والفرس<sup>(٤)</sup> .

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١١٦ .

(٢) ينظر على سبيل المثال مصارع العشاق ١ : ٦٩ ، ٧٢ ، ١٦٠ . وورد في ٧١ : أبو الحسين بن بيان الزبيبي . وهو هو ، إذ أنه عبد الله بن إبراهيم بن بيان . ينظر المصارع ١ : ٣٠١ ، ١٣٤ . وسماء في ٢ : ٢٤٤١ عبد الله بن إبراهيم البصري .

(٣) ينظر معجم الأدباء ١٩ : ٥٢ .

(٤) معجم الأدباء ١٢ : ٥٢١ ، هدية العارفين ٢ : ٢٦٠ .



- وصف السيف<sup>(١)</sup> .
- وصف القلم<sup>(٢)</sup> .
- الحاوي في علوم القرآن ، وهو في سبعة وعشرين جزءاً<sup>(٣)</sup> .
- كتاب الحماسة<sup>(٤)</sup> .
- أخبار عبد الله بن جعفر بن أبي طالب<sup>(٥)</sup> .
- كتاب الشعر و الشعراء<sup>(٦)</sup> .
- ألقاب الشعراء<sup>(٧)</sup> .
- أخبار عبد الله بن قيس الرقيات ، ومختار شعره<sup>(٨)</sup> .
- أخبار العرجي<sup>(٩)</sup> .
- كتاب السودان وفضلهم على البيضان<sup>(١٠)</sup> .

(١) نفساها ، على أنه وما يليه في هدية العارفين كتاب واحد هو ، وصف السيف والقلم .

(٢) معجم الأدياء . ١٢ ، ٥٢٠ .

(٣) الفهرست ٢٩٦ ، ٦٥٥ ، ومعجم الأدياء ١٢ ، ٥٢٠ ، وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦٠ . وإيضاح المكنون ٢ ، ٢٨٧ . وهدية العارفين ٢ ، ٢٦١ . وينظر الوافي بالوفيات ٢ ، ٤٥٠ .

(٤) الفهرست ٢٩٦ ، ٦٥٦ ، معجم الأدياء ١٩ ، ٥٢٠ . والوافي بالوفيات ٣ ، ٤٥٠ ، وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦٠ . وهدية العارفين ٢ ، ٢٦١ .

(٥) الفهرست ٢٩٦ ، ٦٥٦ ، معجم الأدياء ١٩ ، ٥٢٠ . والوافي ٢ ، ٤٥٠ . وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦٠ . وإيضاح المكنون ١ ، ٢٢٠ . وهدية العارفين ٢ ، ٢٦١ .

(٦) الفهرست ٦٥٦ . وهدية العارفين ٢ ، ٢٦١ . وسماه في طبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦٠ كتاب الشعراء .

(٧) الفهرست ٦٥٦ . والوافي ٣ ، ٤٥٠ . وإيضاح المكنون ١ ، ١٢١٠ . وهدية العارفين ٢ ، ٢٦١ .

(٨) الفهرست ٦٥٥ . وفي إيضاح المكنون ١ ، ٢٩١ أخبار أبي كذا قبيس الرقيات ومختار شعره ، وفي الحاشية لعله ابن قيس . وفي الوافي ٣ ، ٤٥٠ وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦٠ . أخبار عبد الله بن قيس الرقيات .

(٩) الفهرست ٦٥٦ . والوافي ٣ ، ٤٥٠ . وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦٠ . وهدية العارفين ٢ ، ٢٦١ .

(١٠) الفهرست ٦٥٦ . والوافي ٣ ، ٤٥٠ . وهدية العارفين ٢ ، ٢٦١ وهو في طبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦٠ . «تفصيل السودان على البيضان» .

- كتاب الشراب ويحتوي على عدّة كتب<sup>(١)</sup> .

- كتاب المّثمين<sup>(٢)</sup> .

- كتاب المعصومين<sup>(٣)</sup> .

- كتاب المتباعدين<sup>(٤)</sup> .

- كتاب الروض والزّهر<sup>(٥)</sup> .

- كتاب الجلساء والندماء<sup>(٦)</sup> .

- ذمّ الحجاب والعتب على المحتجب<sup>(٧)</sup> .

- كتاب الهدايا<sup>(٨)</sup> .

- كتاب مَن غدرَ وخان<sup>(٩)</sup> .

- كتاب الشتاء والصيف<sup>(١٠)</sup> .

---

(١) الفهرست ٦٥٥٠-٦٥٦٠ ، وينظر الوافي ١٥٠٢ ، وطبقات المفسرين ١٤٧٠٢ .

(٢) الفهرست ٦٥٥٠ ، وفي إيضاح المكنون ٢٢٨٠٢ ، وهدية المارفين ٢٦٠٢ كتاب المّثمين المعصومين .

وفي الوافي ١٥٠٢ ، وطبقات المفسرين ١٤٧٠٢ كتاب المّثمين المعصومين المتباعدين .

(٣) الفهرست ٦٥٥٠ .

(٤) نفسه ، وفي الإيضاح ٢٢١٠٢ ، والهدية ٢٦٠٢ كتاب المّساعدين ، وأحبه تصحيحاً .

(٥) الفهرست ٦٥٦٠ ، وهو في طبقات المفسرين ١٤٧٠٢ الروضة ، وفي الوافي ١٥٠٢ ، وهدية المارفين ٢٠٢ .

٢٦ ، وإيضاح المكنون ٢٠٠٢ الروض .

(٦) الفهرست ٦٥٦٠ ، والوافي ١٥٠٢ ، وطبقات المفسرين ١٤٧٠٢ ، وإيضاح المكنون ٢٨٦٠٢ ، وهدية

المارفين ٢٦٠٢ .

(٧) الفهرست ٦٥٦٠ ، وإيضاح المكنون ٥١٢٠١ ، وهدية المارفين ٢٦٠٢ ، وهو في الوافي ١٥٠٢ ذمّ

الحجاب .

(٨) الفهرست ٦٥٦٠ ، والوافي ١٥٠٢ ، وطبقات المفسرين ١٤٧٠٢ ، وإيضاح المكنون ٢٥٠٠٢ ، وفي

تاريخ الأدب العربي ٢٤٠٠٢ أن له كتاباً اسمه الهداية ، وقال : إنّ نسخته الخطية في القاهرة ، وإنّ نسخة

من متخذه في لندن - بريل .

(٩) الفهرست ٦٥٦٠ ، والوافي ١٥٠٢ ، وطبقات المفسرين ٢٤٧٠٢ .

(١٠) الفهرست ٦٥٦٠ ، والوافي ١٥٠٢ ، وإيضاح المكنون ٢٠٥٠٢ ، وهدية المارفين ٢٦٠٢ .

- كتاب النساء والغزل<sup>(١)</sup> .

- كتاب في أشعار الحارث بن خالد المخزومي في عائشة بنت طلحة<sup>(٢)</sup> .

- كتاب الذهول والنحول<sup>(٣)</sup> .

هذا ما بلفنا من أسماء كتبه ، ولم يبلفنا اليوم منها إلا شذرات رواها أبو الفرج الأصبهاني في كتبه ، وأخرى رواها السراج عن شيوخه في مصارع العشاق ، وروى شذرات منها آخرون دون أن ينص أحد منهم - في الغالب - على اسم كتاب بعينه . وبلفنا كتابان له هما : تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب ، وذم الثقلاء ، وهو الكتاب الذي نحققه . ويبدو أن سوى هذين الكتابين كان معروفاً في القرن الثامن للهجرة ، فقد وقعت قطعة من مؤلفاته للذهبي المتوفى سنة : ٧٤٨هـ<sup>(٤)</sup> .

### وفاته،

تجمع المصادر على أن وفاته كانت في سنة ٣٠٩هـ . وإذا نظرنا إلى أن من شيوخه محمد بن أبي السري الأزدي - كما سبق أن رأينا - وأن ابن أبي السري هذا من طبقة سمى العقلائي لم نجد حرجاً أن نتابع قول من قال : إنه توفي وهو في عشر الثمانين<sup>(٥)</sup> .

---

(١) الفهرست ٦٥٦ ، والوافي ٤٥٠ ، وفي إفصاح المكنون ٢٤٢ ، وهديّة المارفين ٢٠ ، ٢٦٠ النساء والغزل .

(٢) ينظر تاريخ الأدب العربي ٢ ١٤٠٠ .

(٣) نفسه .

(٤) ينظر تاريخ الإسلام (وفيات ٣٠١-٢١٠) ٢٦٠٠ .

(٥) ينظر معجم المؤلفين ٩ ٢٨٥٠ .

تجمع المصادر على أن هذا الكتاب له لا ينازعه في نسبه إليه منازع ،  
وقضلاً عن هذا الإجماع فإن فيه من القرائن ما يدلُّ دلالة قاطعة على أنه من  
تأليفه ، فمن هذه القرائن روايته فيه عن شيوخه ، ابن أبي الدنيا ، وأحمد بن  
أبي طاهر ، وأحمد بن زهير المعروف بابن أبي خيثمة ، وعبد الله بن أبي سعد  
الوراق . ومنها أيضاً طبيعته القائمة على الأخبار ، مما ينسجم وقول مترجميه  
عن مصنفاته ، إنها يغلب عليها الحكايات والأشعار .

وعليه لا أجدُ بي حاجة أن أطيل في موضوع نسبة الكتاب إليه ؛ لأنها -  
كما قلتُ - ثابتة لا ينازعُ فيها أحدٌ .

### منهجه

الكتاب - كما هو بيّن لكل ناظرٍ فيه - كتاب أخبارٍ رويت عن أعلام في  
ثقافتنا العربية أغلبهم من أهل الحديث الشريف كانوا يستقبلون تلاميذهم مرة ،  
وزملاءهم مرة ثانية ، ونقرأ من الناس سواهما مرة ثالثة ، ولكنه لا يتعرّض إلى  
أخبار هؤلاء الثقلاء ، ونواديرهم في الثقل . وكان ما عقده ابن قتيبة المتوفى :  
٢٧٦هـ على أخبارهم في كتابه « عيون الأخبار » قد أصبح منهجاً يتبعه ابنُ  
المرزبان ، ومن جاء بعده ، كابن عبد ربّه في « العقد الفريد » ، والقرطبي في  
« بهجة المجالس » ، والبيهقي في « المحاسن والمساوي » ، والزمخشري في  
« ربيع الأبرار » وسواهم ، ولعلّ روح التقليد وحدها هي المسؤول عن هذا  
المنهج .

وملاحظ آخر هو أن طائفة من أخبار الكتاب لا تكادُ تدخل في بابة الثقلاء ،  
ويمكنني أن أسوق على ذلك جملة أمثلة منها ما صدر به ابنُ المرزبان كتابه من  
كتاب ابن أبي الدنيا إلى الخليفة المعتضد يذكره بحقه عليه وهو يؤدّب ابنه علي

المكتفي ؛ إذ لم أر فيه شيئاً يمكن أن ينسب إلى الثقل . ومنها مارواه من خبر جرير بن عطية الخَطَفَى يستعير راحلةً من الفرزدق يحجُّ عليها ، ومنها الخبران اللذان رواهما عن الحجاج بن يوسف الثقفي ، وخبر هريرة صاحبة الأعشى بعد أن أسئت ، وخبر الرجل الذي ليم على أن سمى ابنه محمداً .

فهذه الأخبار جميعاً من أنباء التباعد بين الناس ؛ بسبب اختلاف المنازع السياسية كما هي الحال في بغض الحجاج بن يوسف الخوارج ، وبسبب المنافرة في الشعر كما هو حال جرير والفرزدق ، وبأسباب أخرى قد تكون أسباباً شخصيةً بحثة كما في علاقة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعلاقة ابن أبي الدنيا بتلميذه عليّ المكتفي ، وبداعٍ من الأمر بالمعروف كما في خبر من أنكر على صاحبه الفاسق أن يسمي ابنه : محمداً . أما خبر هريرة فلا يكاد يجدُّ له طريقاً يدخلُ منه إلى مثل هذا الكتاب .

أقول هذا لأننا نفترض أن يُبغِضَ الثقل - أو يُشفقَ عليه من نفسه - بداعٍ من ثقل ظله ، ووخامة شخصه ، وتناييه بنفسه جهلاً بمقدارها ؛ بل لعلَّك تُبغِضُ الثقل وأنت لا تعرفه ، وتهربُ منه مخافة أن يقصدك وأنت عنه بمعزل ، فإذا سئلت عما يدعوك إلى ذلك لم تجد ما تُقنع به من سالكٍ فأنكر عليك إلا أنك لا تُطيعه ، ولا تحتملُ رؤيته ، تقول هذا وأنت تعلم أنه إن حاجك قطعك ، وإن خاصمك غلبك . وهذا هو الذي يحفزني أن ألاحظ على بعض أخباره ما لاحظتُ .

وشيء آخر في الكتاب - وهو شيء قليل - لم أشأ السكوت عنه ، هو ما بدا لي في بعض رواياته من غرابةٍ تخالف ما درجت عليه أخبارُ سواه ، من ذلك ما رواه عن استئصال الإمام عليّ صاحبه ، وصفه مالك الأشر .

لا أقول ما قلتُ أتقصُّ من قدر الكتاب ، وإنما هي خطراتُ عرضت لي - وأنا منشغلٌ بتحقيقه - رأيتُ أن أعرضها على القارئ يرى فيها رأيه . أمّا ما سوى هذا فحسبي أنني قلتُ .

# برية بن أبي اليسر الرياضي

وكتابه: «تلقيح العقول»

لم يذكر مصدر من المصادر المطبوعة صاحبنا برية هذا ، ولم يترجم له أحد ، ولم يقف عنده أو عند كتابه مرجع من المراجع التي ألفت في الأدب المغربي ؛ فكل ما نعرفه عنه أنه ابن إبراهيم بن محمد الشيباني ، المعروف بأبي اليسر الرياضي .

وحياة أبي اليسر هذا نفسها - كما ترسمها المصادر - أقرب إلى الغموض منها إلى شيء آخر ، فكل ما لدينا منها ما ذكره ابن الأثير<sup>(١)</sup> ، فنقله عنه المقرئ نقلاً يكاد يكون بالفاظه<sup>(٢)</sup> .

وهذا الذي ذكره ابن الأثير هو أقرب إلى الاضطراب منه إلى شيء آخر ، ومن آيات هذا الاضطراب أن يقول ابن الأثير عنه : «لقي من الشعراء إبا تمام والبحرئ ، ودعبلاً وابن الجهم» ويقول بعد ثلاثة عشر سطرًا معدودة عدداً : «إنه «توفي بالقيروان سنة ثمان وتسعين ومائتين... وهو ابن خمس وسبعين سنة» وكأن ابن الأثير يذهل عن أن يحسب عمر أبي اليسر يوم التقى أباتمام ؛ فإذا كان قد توفي ٢٩٨ هـ وله من العمر خمس وسبعون سنة ، فإن ذلك

(١) ينظر التكملة : ١٧٢ .

(٢) ينظر فتح الطيب ٢ : ١٣٤-١٣٥ .

يعني أنه ولد سنة ٢٢٢ هـ ، وأنه كان يبلغ من العمر الثامنة يوم توفي أبو تمام ، فكيف تهياً له أن يلتقيه وأن يروي ديوانه عنه بحيث يحمل ابن الأبار هذه الرواية عنه ، فيقول : إنه يروي ديوان أبي تمام « عن ابن زرقون ، عن الخولاني ، عن أبي القاسم حاتم بن محمد ، عن أبي غالب تمام بن غالب بن عمر اللغوي ، عن أبي سعيد عثمان بن سعيد الصيقل ، عن أبي اليسر ، عن أبي تمام » ؟

أسوق كل هذا أريد أن أقول : إنه لا يكادُ يصحُّ عندي مما ورد في ترجمة أبيه إلا أنه من أهل بغداد ، هاجر منها في سنة لانعرفها فاستقرت به الحال في إفريقية (تونس اليوم) كاتباً لأمرها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ، ثم لابنه أبي العباس عبد الله ، ثم صاحب بيت الحكمة لزيادة الله بن عبد الله آخر ملوك الأغلبة .

ويغلبُ على الظنُّ أنَّ أبا اليسر كان شيعي المذهب ، وأنه نجح في أن يخفي تشيعه عن مخدوميه الأغلبة ؛ فقد رأيناه يرافق الداعي الفاطمي عند توجهه إلى سجلماسة ، ثم يرافقه وهو يتوجه إلى تاهرت يقضي على دولة الرُستُميين فيها ؛ دولة الخوارج الإباضيين ، وكنا رأيناه أيضاً يكتب لعبد الله الشيعي في رقادة أيضاً<sup>(١)</sup> .

ولابدَّ أن يكون ابنه بريء قد ورث عنه هذا التشيع لآل بيت النبوة .

لا نعرف متى وُلِدَ بريء ، ولكننا نستطيع أن نُخَمِّن أنَّه قد بلغ العشرين من عمره ، قبل وفاة أبيه ، فقد رأيناه يروي عنه في كتابه هذا شيئاً من شعره ، ورأيناه يلزمه في مرضه ، فينقل أحاديثه وأحاديث عواده . فإذا صحَّ هذا ولاشيء ، يمنع من صحته ، كان معنى ذلك أنه وُلِدَ في العقد الثامن من القرن

(١) ينظر البيان المغرب ١ : ٢٠٩ . واسمه فيه : عبيد الله ، على عادة المصادر الشيعية في تحفيوه .

الثالث ، أما مكان هذا الميلاد فيغلب على الظن أنه كان بالقيروان ، فقد رأينا أن أباه كان من أهلها ، فإن لم يكن ابنه برية قد ولد بها فلاشك أنه قد نشأ بها وأنها قد شهدت طفولته .

ولم يكن أبو اليسر - كما رأينا - من عامة الناس ، وإنما كان « أديباً شاعراً مرسلأ حسن التأليف » له من الكتب : « لقيط المرجان » قيل عنه : إنه أكبر من « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، وكتاب : « سراج الهدى » في القرآن ومشكله وإعرابه ومعانيه ، و« المرصعة » و« المدبجة » و« قطب الأدب » وسوى ذلك من الكتب . حتى قيل : « إنه هو الذي أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين ، وأشعارهم ، وطرانقهم » وإنه « كان عالماً »<sup>(١)</sup> . وأب مثل هذا لابد أن يكون غني بتأديب ابنه ، ويتلقينه مبادئ العلوم ، مما يبيح لنا أن نتخيل أن صاحبنا أخذ أول ما أخذ عن أبيه .

على أننا لانعرف - بعد هذا - أحداً من أساتذته في القيروان ، ولم يد لنا هو في كتابه على أحد منهم .

ويبدو أنه شد الرحال - ولعل ذلك كان بعد وفاة أبيه - إلى العراق موطن أبيه وموطن أهل العلم يطلب فيه العلم ، وكان ذلك قبل سنة ٣٠٠هـ<sup>(٢)</sup> ، وإنما نصت على هذه السنة : لأنني رأيته يروي في موضعين من كتابه عن أبي أحمد المنجم المتوفى - كما هو معروف - في تلك السنة .

وقد كان طريقه إليه يمر بمصر ، وقد توقف فيها - على ما يبدو - ولقي

(١) نساهما ، ولا أكاذ أشك في صحة ما ذهب إليه أستاذي المغفور له العلامة علي جواد الطاهر في كتابه « كتب محققة وفوائد » ١٢٢١-١٢٩ من أنه هو كاتب الرسالة العذراء . فقد ورد على نسخها المخطوطة أنها مما كتب به إبراهيم بن محمد الشيباني لابن المدبر ، وكذلك قال ابن عبد ربه في نقله عنها . ينظر المقد الفريد ١٥٩١ ، ١٧١١-١٧٢ وفي صفحات أخرى .

(٢) لا عبرة بما أوحى به برية في مقدمة كتابه من أنه زار العراق أثناء خلافة المنصور الفاطمي (٣٢٤ - ٣٤١هـ) : لأن معظم شيوخه المذكورين في الكتاب توفوا قبل خلافة . فلهذا لم يحسن التعبير عن تاريخ سفره .



فيها جملة من أدبانها ، فروى عنهم في كتابه هذا ، من مثل : سيبويه المصري ،  
 وأبي سهل الحاسب ؛ فقد قال : « حدثنا أبو سهل الحاسب ، ونحن معه في  
 بعض حوانيت الفسطاط ، فقال... »<sup>(١)</sup> ، ولكن قلّة شيوخه فيها لاتدلّنا على أنّه  
 أطال الإقامة فيها ؛ فلم تكن مصر يومذاك من الحواضر التي تُقصد لطلب العلم .  
 وتوجّه صاحبنا إلى العراق ، فأقام في بغداد وفي البصرة ، فأخذ فيهما  
 عن :

- أبي أحمد المنجّم المتوفى ٣٠٠ هـ .

- وأبي محمد الأبحريّ (ولم أعرف من هو) ، وهو يروي عن أبي العيّن .

- وأبي الطيّب الكاتب (ولم أعرف من هو أيضاً) .

- وابن الوزير ، وكان من رواة شعر ابن الروميّ ، وقد وصفه أبو العيّن  
 بأنّه « كيش الزنادقة »<sup>(٢)</sup> .

- وأبي الحسن الأهوازي (ولم أعرفه) .

- وأبي بكر بن الأنباريّ المتوفى ٣٢٨ هـ .

- وأبي سهل الأهوازيّ (ولم أعرفه) .

- وأبي أحمد بن إسماعيل العلويّ ، وهو من رواة شعر علي بن محمد  
 الحِماني العلويّ المتوفى سنة ٣٠١ هـ على وجه التقريب (ولا أعرف عنه أكثر من  
 ذلك) .

- وأحمد بن سليمان السريّ ، وهو من رواة شعر الحماني أيضاً (ولا أعرف  
 عنه أكثر من ذلك) .

(١) تلخيص القول ٤١ و .

(٢) زهر الآداب ٦٥٧ .

- وأبي الباساني ، وهو من رواة شعر الحماني أيضاً ، وشعر أحمد بن أبي طاهر المتوفى سنة ٢٨٠ هـ (ولا أعرف عنه أكثر من ذلك) .

- والناقد الشاعر (ولم أعرفه) .

- وأبي عبد الله الكرمانى الوراق المتوفى سنة : ٣٢٩ هـ ، تلميذ ثعلب ، وقد التقى به في البصرة .

- وابن سعيد الكاتب (ولم أعرفه) .

- وأبي إبراهيم الأبهدي (ولم أعرفه) .

وكما أخذ من أفواه الرواة والعلماء عكف على ما وقع بيده من مؤلفات العلماء يفيد مما بها ، فمن المؤلفات التي اطلع عليها وهو في العراق :  
- أخبار بني المهلب .

- وأخبار أبي العتاهية .

- والبيان والتبيين للجاحظ .

- وبعض كتب أبي بكر الصولي ، ولم يُسمَّه .

- وكليلة ودمنة ، وقد نقل منه نصوصاً لم أجد بعضها في مطبوعته اليوم .

- وكتاب الآداب لابن المعتز ، وقد نقل منه نصوصاً لم أعر على بعضها في مطبوعته .

ويمكن أن تدلنا هذه الكتب التي ذكرها على ميله إلى الأدب الرطب الذي لا تُكلفه قراءته مشقة ، ولا عنتاً على أن ذكره إياها لا يعني أنه اقتصر عليها ، وإن كنا لانعلم على وجه اليقين ما أضافه إليها في قراءته .

ويبدو أن إقامته في بغداد قد امتدت إلى أيام الخليفة الراضي الذي تولى الخلافة من سنة ٣٢٢ هـ حتى سنة ٣٢٩ ؛ فقد روى حديث أبي عبد الله الكرمانى

عن أبي بكر الصولي أنه قال : « كنا بين يدي الراضي - وأنا أذكر فضائل المكتفي - فلم يعجبهُ ذلك... » .

وأكاد أظنُّ أنه عاد إلى موطنه قبل سنة ٢٢٩ ، يدفعني إلى هذا الظنُّ أنه توقّف في رواية ما تمثّل به خلفاء بني العباس عند الخليفة المكتفي الذي كانت سنة ٢٩٥هـ آخر سنة من سنوات خلافته ، ولعلّه أهمل ذكرَ الخليفين : المقتدر والقاهر ؛ لهوان شأنهما عنده وعند الناس ، فقد كانت شغب أم المقتدر هي الخليفة الحقيقي في عهد ابنها : المقتدر ، وكان القاهر على ذوقِ الخمر أقدر منه على ذوقِ مرارة الخلافة وحلاوتها . فإذا استقام تصوّرنا سبب إهماله أخبار ذينك الخيفتين قلنا : إنه غادر بغداد ، والراضي ما يزال خليفة ، لم تجرؤ الألسنُ بعدُ على لوكِ سيرته ، والخاصُّ من أخباره ، مما يتيحُ له تدوين شيء منهما ، كما فعل في أخبار سواء من آباه .

وعاد إلى موطنه - كما أرجحُ - أثناء خلافة القائم الفاطمي (٢٢٢ - ٢٣٤هـ) ، ولكننا لا نعرف ما إذا كان اتّصل به أم لا ؟ على أنّا نعرفُ أنه اتّصل بابنه الخليفة المنصور (٢٣٤ - ٢٤١هـ) وأهداه كتابه : « الأمثال السائرة والأبيات النادرة » فقد تحدّث هو عن هذا الإهداء في مقدّمة كتابه الذي أقدمُ له . ولا يبعد أن يكون المنصورُ قد نظر إليه بعين الرعاية ؛ فمن المعقول أن يكون قد حفظ له حرمة أبيه الذي رافق الداعي إلى سجداسة - كما رأينا - ثم رافقه وهو يقضي على حاضرة دولة الرُستميّين في تاهرت ، والذي استكتبه عبْدُ الله الشيعي في رقادة .

وإذ تُوقّي المنصورُ ، وتولّى ابنه المعزُ الخلافة سنة ٢٤١هـ اتّصل به ، فألّف له كتابه هذا : « تلقيح العقول » . ويبدو أنه أهداه الكتاب ، والمعزُ في صبرة القيروان لم يغادر بعد إلى مصر في سنة ٢٥٨هـ ، ولم يبتنِ القاهرة المعزّية ، يدنّا على ذلك حديثه عن المعزُ في مقدّمة الكتاب ، ووصفه إيّاه بالحدّانة في

قوله عنه : « الواسع الحِلْم الذي لم تستهزئه فيه الحداثة... » إذ كان عمر المعز<sup>(١)</sup> يوم ولي الخلافة - في إفريقية - لا يتجاوز الرابعة والعشرين ، على حين قد تجاوز الأربعين يوم نقل ملكه إلى مصر .

والكتابُ حصيلةُ ثقافته العراقية ؛ فقد قال عنه : « فلما سافر عبدُ أمير المؤمنين إلى العراق ، ورأى أدباءه ، وكُتّابه لا يتكلمون في معنى من المعاني حتى يُقدِّموا قبل كلامهم مثلاً مشهوراً ، وبيتاً مذكوراً ينبيء عما يريد (ون) الكلام فيه ، واستحسن ذلك منهم جعلَ كلَّما سمعَ مثلاً سائراً ، وبيتاً نادراً ، كتبه ووعاه ؛ ليكون له ذخيرةٌ إلى تأليف كتابٍ جامع فيه . وكانت نفسه تُنازعه إلى ذلك في الغربة ؛ فحال بينه وبين ذلك تقسُّم قلبه في البلدان ، واشتغاله بالتروُّح إلى الأوطان » .

« فلما استقرَّ بعبد أمير المؤمنين القرارُ ، وقعد عن الأسفار ، واستوطنت به الدار ، استنهضَ نفسه إلى تأليفه ، فوجدَ فيها قوَّةً تنهضه إلى ذلك... »<sup>(٢)</sup> .

وأدركتُ صاحبنا الشيخوخةَ ، والمعزُّ في المغرب ؛ فقد رأيتُه يشكو من آثارها في كتابه بقوله : « كنتُ أسمعُ بكاءً من بكى على الشباب ، ونوحَ من ناحَ عليه فأتوقَّمُ أنَّ ذاك للخلاعةِ والمُجاعةِ ، حتى ابْتُلِيتُ بفقدِهِ فوقفتُ على أخبارِ القوم... »<sup>(٣)</sup> .

ويبدو أنَّه توفِّي في هذه المرحلة من عمره في سنةٍ لا نعرفها ولا تعرفها مصادرُ الأدب<sup>(٤)</sup> .

(١) ولد المعزُّ ، معذُ بنُ إسماعيل المنصور يوم الإثنين الحادي عشر من رمضان سنة ٢١٧ . ينظر السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي ١٠٣١ .

(٢) تلقيح العقول ٢٠ ط .

(٣) السابق ٤٤١ ط .

(٤) جمل كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٢ : ١٧٧ وفاته سنة ٢٤١ هـ . ولا أعرف مصدره في ذلك .

## نسبة الكتاب

قلتُ إنَّه لم يذكر أحدٌ صاحبنا بريَّة ، فأحرى أن تتصوَّر أنَّه لم يذكر أحدٌ كتابه أيضاً ؛ ولكنَّ هذا التصوَّر ليس في محلِّه تماماً ؛ فقد انفرد ابنُ ظافر الأزديُّ بنقولٍ عن كتابنا هذا في كتابه « بدائع البداهة » نصَّ فيها أنَّه ينقلُ - كما قلتُ - عن هذا الكتاب<sup>(١)</sup> . على أنَّ هذا النقل أثار لنا مشكلتين ، أولهما :

أنَّ اسم بريَّة قد وردَ فيه مُصحَّفاً على يزيد ، ولا أعرف إنَّ كان التصحيف قد لحق اسمَ صاحبنا من قلم المؤلفِ ؛ ابن ظافر الأزدي ، أم من قلم المحقِّق ؛ محمد أبو الفضل إبراهيم ، رغم أنَّني أميلُ إلى الاحتمال الثاني ؛ لأنَّ معنى وروده على يزيد عند ابن ظافر الأزدي أنَّ نعيد النظر في صحة ماورد على وجه الورقة الأولى من المخطوط على أنَّه اسمُه ؛ إذ ورد فيه اسمه ؛ بريَّة . ولابدُّ أنَّ تقارب الرسمين هو الذي جعله يتصحَّف على ؛ يزيد ؛ لأنَّ من المستبعد جداً أن يُسمي رجلٌ شيعيُّ مثل أبي اليسر ولداً من أولاده باسم صار علماً على قاتل الحسين بن عليٍّ سبط رسول الله وريحانته عليه صلوات الله وسلامه أعني ؛ يزيد بن معاوية لا يكادُ يتعدَّاهُ إلى غيره ؛ على أنه من المهم أن أقول إنَّ حاجي خليفة<sup>(٢)</sup> وقد ذكرَ الكتاب ، لم يذكر اسمَ مؤلِّفه .

أما المشكلة الثانية فهي ذكره الكتاب على أنَّه في الأمثال ، وكذلك فعل حاجي خليفة ، ويبدو لي أنَّ مقدِّمة المؤلف هي التي أوحَت إليهما بذلك . أقول هذا لأنني لم أر شيئاً من الأمثال التي نعرفها على أنَّها من أمثال العراقيين<sup>(٣)</sup> في هذا الكتاب ، وإنَّما الذي ورد فيه هو أقربُ إلى الحكمة ، والموعظة ، والحثُّ على مكارم الأخلاق ، منه إلى الأمثال .

(١) ينظر - على سبيل المثال - بدائع البداهة ١١٠-١١١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٢) ينظر كشف الظنون ٢ : ٤١٧ .

(٣) جمع أبو بكر الخوارزمي هذه الأمثال في كتابه « الأمثال » الذي صدر في الجزائر بتحقيقنا . ولم نر فيه من الأمثال ما يلتقي بما ورد في هذا الكتاب .

أما حاجي خليفة فإنَّ اهتمامه بتقسيم تدرج تحته أسماء الكتب هو الذي جعله - زيادةً على السبب الذي ذكرناه - يُدرجه تحت كتب الأمثال ؛ فليس هنالك بابٌ أليق به من باب كتب الأمثال .

وذكر الكتاب له من المعاصرين المستشرقان الألمانيان كارل بروكلمان<sup>(١)</sup> ورودلف زلهاييم<sup>(٢)</sup> ، ولم يطلع زلهاييم على الكتاب ؛ فأثبت عنوانه : « تلقيح العقول في الأمثال والحكم » . ولم تردّ عبارة « في الأمثال والحكم » في عنوان الكتاب ، وإنما نقلها عن آخر .

وإذا فكتاب « تلقيح العقول » هو لبريئة بن أبي اليسر الرياضي غير مدفوع .

### أهمية الكتاب

يغلب على الظنُّ أنَّ هذا الكتاب هو أوَّلُ كتابٍ في الأدب يصلُ إلينا من الحقبة الفاطمية المغربية ؛ فلم أعثر على من ذكر كتاباً في الأدب أسبق منه فقال : إنَّه وصل إلينا . ومن هنا فالكتاب يمكن أن يكون نموذجاً مبكراً للتأليف الأدبيِّ في المغرب العربي .

وليس من قبيل المصادفة أن يكون في الأدب الأندلسيِّ كتابٌ مثل « العقد الفريد » يكاد يعتقد برؤيته على الأدب في المشرق العربي ، وأن يكون في الأدب المغربي هذا الكتاب ؛ فقد كان الأدبُ المشرقيُّ قبلةً الأدبيين في مرحلة من مراحلهما .

وإذا كان العقد الفريد قد تناول الأدب العربي في المشرق حيثما كان من

(١) ينظر تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧٧ .

(٢) ينظر الأمثال العربية القديمة : ٢٨٢ .

أرض الأدب الواسعة ؛ فإنَّ هذا الكتاب قد وقف عند العراق لم يتعدَّه إلى سواه إلا قليلاً .

وإذا كان ابنُ عبد ربِّه قد احتفل بإيراد شعره في ثانيا « العقد الفريد » فإنَّ بريةً قد احتفل أيضاً بإيراد كثيرٍ من شعره في كتابه ، وإيراد قليلٍ من شعر أبيه ؛ مما جعله متفرّداً برواية شعر أبي اليسر ، إذ لم يورد مصدرٌ من المصادر التي ترجمت لأبي اليسر - مما نعرف - شيئاً من شعره رغم إجماعها على أنَّه كان شاعراً .

وزاد الكتابُ على ذلك فتفرّد برواية شيء يسيرٍ من شعر بكر بن حماد التاهرتي ، ونسبَ إليه ماتداولته مصادرُ الأدب على أنَّه لسواه ، وروى أشياء يسيرةً لشعراء مغاربةٍ لانعرف عنهم شيئاً مثل : ابن أخت أبي العتاهية ، ورحمون الفارسي .

وروى من الأدب في العراق ومصر ما لم أعثر عليه في مصدر سواه ؛ فقد روى من شعر الجاحظ - وأنا أمثل ولا أستقصي - ما ليس في مصدر من المصادر التي نعرف ، وكذلك فعل وهو يروي من شعر أحمد بن أبي طاهر ، ومحمد بن حازم الباهلي ، وروى للناقد الشاعر شيئاً من شعره ، ولم نكن نعرف الناقد الشاعر فضلاً عن أن نعرف شعره ، وقدّم لنا أديبين لم نجد لهما ذكراً في مصادر الأدب هما : أبو الطيب الكاتب ، وأبو سهل الحاسب وروى عن آخرين مجهولين سوى هؤلاء . مما هو واضحٌ في حواشي التحقيق .

ولعلَّ من وجوه طرافة هذا الكتاب أنَّه تحدّث لنا عن جوانب إنسانيةٍ تدلُّ على خبرةٍ عميقة بالحياة لم نكن نعرّفها عليها لدى نفرٍ من علمائنا الأوائل ، مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وابن الأعرابي ، وابن الأنباري ، وأبي عمرو بن العلاء . أما ابنُ الأنباري فقد بدا في هذا الكتاب أقرب إلى الحكيم منه إلى النحويِّ اللغويِّ الذي نعرف .

على أَنَّ أَمَّهُ ما يلفتُ النظر - من وجهة نظري - في هذا الكتاب هو صورة الخلفاء الفاطميين في الحقبة المغربية من خلافتهم ، فقد دأب الدارسون على دمج مرحلتَي خلافتهم المغربية والمصرية ، والحديث عنهم - في المرحلتين معاً - على أنهم إن لم يكونوا آلهة في عيون أنفسهم وعيون أتباعهم فأنصافُ آلهة ، حتَّى يُخَيَّلَ لمن يصفي إلى أحكام هؤلاء الدارسين أَنَّ أولئك الخلفاء قد مرقوا عن الإسلام مروق السهم من قوسه ، وحسبك من هذا أن تجد من يزعم : أَنَّ « الإمام عند الإسماعيلية هو الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ المنتقمُ الجبارُ »<sup>(١)</sup> فراح يُعلِّلُ سخفَ مطلع قصيدة ابن هاني. الأندلسيَّ يمدحُ المعزَّ الفاطمي القائل :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ      ها حكمُ فأنتَ الواحدُ القهارُ  
بأنه من عقائد الفاطميين في أنفسهم . ولا أعرف لماذا لم يعلِّلَ الباحثون قياً على استنتاجهم عقائد الفاطميين من شعر ابن هاني. قولُ يزيد بن مفرغ الحميري في خالد بن... أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ، وسعيد بن عثمان بن عفان :

والبهاليلُ خالدُ وسعيدُ      شمسُ دَجَنُ ، ووَضَحُ كالهلالِ  
في الأرومات والدُّرَا من بني العيصِ ، قرومُ إذا تُعدُّ المعالي  
كنتُ منهم ماحرِّموا حراماً      لم يُراموا ، وحلَّهم من حلالي<sup>(٢)</sup>

أقول : لا أعرفُ لماذا لم يعلِّلوا قولَ ابن مفرغ بأنَّ التحريم والتحليل في أبياته من عقائد ولاةِ الأمويين في أنفسهم بأنهم أنبياء مرسلون ، يحلِّلون ويحرِّمون ؟ ولكن ذلك ليس بصحيح في الحالين ؛ لأنَّ تلك أساليب الشعراء ، وذلك هو ما درج عليه الشعر العربي .

ويهمني الآن أن أقول : إننا لا نجدُ ظلاً لاعتقاد الفاطميين المزعوم في

(١) ينظر الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ١٠٧٠ للأستاذ محمد الطمار .

(٢) ديوانه ١٩١٠-١٩٢٠ .



أنفسهم بأنهم آلهة أو أنصاف آلهة في حقبة خلافتهم المغربية كما يدلنا عليه هذا الكتاب ، فقد رأينا المعزَّ الفاطميَّ في مقدِّمة الكتاب لايزيد عن كونه أمير المؤمنين يُدعى له كما يُدعى لأيِّ خليفةٍ آخرٍ سواء أكان عادلاً أم جائراً ، ويُسبِّح عليه من الصفات ما يُسبِّح على نظرائه سواء أكانوا من أهل السنَّة أم من الخوارج ؛ فهو « معزُّ الدين أمير المؤمنين ، الإمام من الأئمة المهديين ، والخلفاء الراشدين ، مولانا أطال الله بقاءه ، فجعله أحمد رحمةً للعالمين ، وبركةً في الغابرين ، يهدي به من الظلمات ، ويستنقذ به من الهلكات... »<sup>(١)</sup> ولم يدع لأبيه المنصور بأكثر من « قدَّس الله روحه ، ونور ضريحه »<sup>(٢)</sup> كما يُدعى لأيِّ إمام من أئمة الجمعة . فأين هي الألوهية ؟

هذه واحدة ، فأما الثانية فهي أنِّي لم أر في طول الكتاب وعرضه شيئاً من التجريح بصحابة رسول الله عليه صلواتُ الله وسلامه ، وإنما رأيتُ الترضيَّ عنهم ، سواء أكانوا ممن اختلف مع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أم ممن والاه ، وليس قليل الدلالة أن يفتتح كتابه وهو يُصَلِّي على « محمَّد وعلى آله الأبرار ، وأصحابه الأخيار »<sup>(٣)</sup> . ولم أر أيضاً شيئاً من التقديس يُضفى على شخصية الإمام أو على أبنائه من أئمة الشيعة ، فلم يزد لدى ذكرهم على الترضي عنهم .

ولا أريد أن أخوض في عقائد الفاطميين بمقدار ما أريد أن أدعو المتخصِّصين أن ينبذوا عقائدهم المذهبية الضيقة التي ورثوها عن الأميات من المعانز ، وأن ينظروا إلى الحقائق العلمية كما وقعت<sup>(٤)</sup> لا كما يتخيَّلها الهاجسُ

(١) تلقيح القول ١٠ ط .

(٢) السابق ٢٠ ط .

(٣) السابق ١٠ ط .

(٤) من أئلاف للنظر أن تسمى النقود الفاطمية عبيد الله المهدي عبيد الله ، وأن تصرَّ كتب التأريخ أن تسميَّ عبيد الله تحقيراً لشأنه . فيتأبها على ذلك الباحثون العلميون المعاصرون! ينظر بحث المسكوكات الفاطمية في مجلة معهد الآثار في جامعة الجزائر ، ١٩٩٢ .

الطائفي ، فيدرسوا أسباب تحوّل عقاندهم - وهم في مصر - عما كانت عليه وهم في المغرب .

ويمقدار ما يدعونا هذا الكتاب إلى إعادة النظر في عقائد الفاطميين ، يدعونا إلى إعادة النظر في موقفهم من الخلافة العباسية ، فقد بدت هذه العلاقة طبيعياً إلى الحدّ الذي كان فيه « الباب الخامس والخمسون بعد المائة فيما تمثّل به الخلفاء من بني العباس » ، فلم يُذكر فيه ما يمكن أن ينتقص من أقدارهم ، أو يسيء إلى ما انطبع في الأذهان من احترامهم ، أو ما يراد من ذكره أن يزحزحهم عن إمرة المؤمنين . فهل يكون كلّ ذلك قد جاء مصادفةً ليست بذات معنى ؟!

وعلى أيّة حال ، تلك مسألة لم أשא أن أسكت عنها ، لأنني أريد أن يُنظر إلى تراثنا على أنّه إرث أمّة لا إرث طائفة واحدة تنظر إليه على هواها ، وكأنّها وحدها تمتلك الحقيقة التاريخية ، والدينية .

ومن أهميّة الكتاب ما يشيره من مشكلات اصطلاحية . فمن هذه المشكلات استعمال المؤلف لمصطلح « التمثّل » ، فالذي نعرفه أنّ التمثّل يعني الاستشهاد بقول آخر ، سواء أكان هذا القول مثلاً أم بيت شعر أو ما هو بسبيلهما ، وبهذا المعنى كان الشعالي قد ألف كتابه : « التمثّل والمحاضرة »<sup>(١)</sup> ، ولكننا نجد المؤلف يستعمل هذا المصطلح للقول يتمثّل به قائله ، ولليّيت يتمثّل به ناظمه تارة ، ويستعمله كما استعمله الشعاليّ وسواه تارة أخرى ، أي أن يتمثّل الرجل بقول سواء . ويمكنني أن أسوق على ذلك مثلاً

---

(١) هكذا ورد اسم الكتاب في نسخته المخطوطة المحفوظة بمكتبة جامعة ليدن ، وهي نسخة قديمة مقرونة جليّة في نسخها وقدمها ، ولكنّ محقّق الكتاب الدكتور عبد الفّاح محمد الحلّو لم يطلع عليها ، واكتفى في تحقيق الكتاب بالنسخ المحفوظة في مصر - وهي نسخ متأخرة ناقصة - فأثبت عنوانه « التمثيل والمحاضرة » مما دعاني أن أكلف الأستاذة زهية سعد بإعادة تحقيقه رسالة لنيل دكتوراه الدولة . وقد سجلت هذه الرسالة بجامعة الجزائر .

بقوله وهو يتحدث عن الخليفة العباسي المهدي : «ومما تمثّل به [وقد] كتب إلى الخيزران وهي بمكة :

نحنُ في أفضل السُرور ، ولكن ليس إلّا بكم يتمُّ السُرورُ  
عيبُ ما نحنُ فيه يا أهلَ ودي أنكم غُيِّبُ ونحنُ حضورُ  
فأجِدُوا المسيرَ ، بل إن قدرْتُم بحياتي بأن تطيروا فطيروا

فأجابه...»<sup>(١)</sup> والأبيات - كما يدلُّ سياقها على ذلك - للخليفة المهدي نفسه . هذا إلى أنَّ القرطبي قد نسبها إليه<sup>(٢)</sup> . وأسوق مثلاً آخرَ بقوله - وهو يتحدث عن الخليفة العباسي المنصور - : «ومما تمثّل به في موتِ عمرو بن عُبيد :

صلى الإلهُ عليك من متوسِّدٍ قبراً [أ] مررتُ به على مرّان...»  
فالأبياتُ قد أوردها ابنُ خلكان على أنها من شعر المنصور نفسه<sup>(٣)</sup> .

هذان مثالان سقّتهما على ما يتمثّل به المرءُ من شعره هو ، وأسوق الآن مثلاً على ما يتمثّل به من شعر غيره بقوله - وهو يتحدث عن المنصور نفسه - : «ومما تمثّل به ، وهو على المنبر ، لما بلغه خروج محمد بن عبد الله :

مالي أكفكف عن سعدٍ وتشتمني ولو شتمتُ بني سعدٍ لقد سكنوا  
جهلاً علينا وجبناً عن عدوّهم؟! لبستُ الخلتان : الجهلُ والجُبْنُ...»<sup>(٤)</sup>

فالبیتان - كما هو معروف - لقنّب بن ضمرة الغطفاني المعروف بابن أمّ صاحب<sup>(٥)</sup> . فكان من شأن هذا الاستعمال أن يخلق لي مشكلة في صنع فهرس

(١) تلقيح المقول ٥٤٠ ط

(٢) بهجة المجالس ٨١٩٠ ١ .

(٣) ينظر وفيات الأعيان ٢ : ٤٦١٠ ، ونقلها عنه بهاء الدين العاملي في الكشكول ١ : ٢٢٤١ .

(٤) تلقيح المقول ٥٤٠ ط .

(٥) تنظر نسبتها في حماسة أبي تمام : ٤٦١ . وحماسة البحري : ٢٤٨ . واللسان - وزن . ومختارات شعراء ،

نغرب : ٣٠٠ . ولباب الأدب : ٤٠٢ . ومحاضرات الأدباء : ١ : ٣٦٠ .

القوافي ؛ فلم أكن أدري حين لا أجِد البيتَ المُمَثِّلَ به في المصادر منسوباً كيف أنسبه ؟ ومن هنا كنتُ أضْعُ حين أُخْمِنُ أن البيتَ للمتمثِّل به وراء اسم القائل علامة استفهام بين قوسين معقوفتين .

ومشكلة أخرى يثيرها الكتاب هي معنى الإنشاد ، فالمعروف أنَّ المُنشِدَ يُنشدُ - في العادة - شعرَ غيره ، إلا إذا نُصَّ على أنَّه أنشدَ لنفسه ، ولكننا نجدُ بريةً لا يتقيَّدُ دائماً بهذا المعنى في الإنشاد ؛ فقد تراه يجمع المعنيين معاً في صفحة واحدة كمثل قوله : « ... وأنشدني أبو أحمد المنجم في هذا المعنى ؛

ويعرضُ لي حقٌ ولا أستطيعُ ولا يقبلُ العافون أهلاً ومرحباً وأنشدني [ابنُ] الوزير ببغداد ، قال : أنشدني ابنُ الرومي لنفسه ؛

أبا بكر لك المجدُّ المُعلَى وخدُ عدوكُ التربُّ الذليلُ...»<sup>(١)</sup>  
فلا تعرف إن كان ما أنشده أبو أحمد المنجم له أم رواه ؟ أقول هذا ؛ لأنني رأيته يقول : « وأنشدني أبو سهل الحاسب ؛

تفاضاك دهرُك ما أسلفا فكدر عيشك بعد الصفا  
فلا تُنكرن ؛ فإنَّ الزمانَ جديرٌ بتشتيتِ ما ألقا»<sup>(٢)</sup>  
فوجدتُ أنَّ البيتين من شعر محمد بن أبي محمد اليزيدي<sup>(٣)</sup> .

### طبيعة الكتاب ومنهجه ،

الكتاب الذي أتحدثُ عنه مما اصطلحت على تسميته المكتبة العربية بكتب المحاسن والأضداد وقد أُلِّف في هذا الفنَ نفرٌ من علمائنا ، ولعلَّ من أقدم هذه

(١) اتلحج ١٥٠ و .

(٢) السابق ١٢١ ط - ١٢ و .

(٣) ينظر معجم الشعراء : ٣٥٥ . وفيه زيادة بيت ثالث .

المؤلفات كتاب « المحاسن » الذي ألفه أبو الحسن المدائني المتوفى ٢١٥ هـ ، ذكر فيه « ما يحتاج إليه من الآداب في معاشره الملوك »<sup>(١)</sup> ، وكتاب « المحاسن والأضداد » المنسوب إلى الجاحظ ، وهو مطبوع ، وكتاب « الآداب » لابن المعتز ، وهو مطبوع أيضاً ، وسواها كثير ، ليس من وكدي أن أستعرضها ، وإنما أردت أن أشير إلى أن كتابنا لم يكن من الكتب الرائدة في هذا الفن .

وقد ألف بريئة كتابه في مائة وسبعة وخمسين باباً ، ولم يكن هذا العدد الكثير من الأبواب دليل ثراء بمقدار ما كان دليلاً على اضطراب منهج الكتاب شيئاً ما ، ويمكننا أن نلمح هذا الاضطراب في تقسيم الأبواب ؛ فقد عقد الباب الرابع على « ... ما يُمَثَّلُ به فيمن استغنى بأدبه عن حسبه ونسبه » ثم عاد فعقد الباب السادس على « ... ما يُمَثَّلُ به فيمن شرفَ حسبَه أدبه » ؛ مما يجعلك تتساءل عن الفرق الجوهرية بين البابين . ووقف الباب الثالث والعشرين على « ... ما يُمَثَّلُ به في الذي يُصَغَّرُ معروفه » ثم تحدث في الباب الذي يليه مباشرة عن « أظهر معروفه ولا يُظهرُ قوله » فبدأ البابين وكأنهما شيء واحد . وأناط الباب الرابع والثلاثين بما « يُمَثَّلُ به في حسن المحضر » ثم أردفه بالحديث في الباب الذي بعده عما « يُمَثَّلُ به في حسن الثناء والمحضر » . وهكذا فعل في أبواب عديدة أتركها للقارئ الكريم يكشفها بنفسه .

وبفعل هذا التكرار جاءت طائفة من الأبواب قصيرة في محتواها ، فلم يتعد الباب الرابع والخمسون بيتين من الشعر ، وثلاثة أسطر ، ولم يتجاوز الباب السادس والخمسون بيتاً واحداً وأربعة أسطر ، وقل مثل ذلك في الباب السابع والخمسين ، والثامن والخمسين ، والثالث والستين ، وأبواب أخرى لا أريد أن أحصيها ؛ لأنني أمثل ولا أستقصي .

وبعد ، فحسبُ هذا الكتاب أن يكون قد أثار كل تلك المشاكل التي تحدثت عنها ، ولا أزيد .

(١) الفهرست : ٢٦٧ .

# ملحق

(المستثنى بآلاً)

الطاهر أحمد مكي سارقاً



## المُسْتَشَرُ جِالاً

الطاهر أحمد مكي سارقاً

لم يسبق لي أن قرأتُ شيئاً للدكتور مكي سوى ترجمته ملحمة «السيد» لا لشيء إلا لأنَّ كتبه الأخرى لم تكن من صميم اهتماماتي ؛ فما أنا من المعنيين بأمريه القيس - والدكتور مكي ؛ «امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية» - ولا أنا من المعنيين أيضاً بالأدب المقارن ؛ والدكتور كتابان فيه أحدهما ؛ «الأدب المقارن ، أصوله وتطوره ومناهجه» وثانيهما ؛ «في الأدب المقارن ، دراسات نظرية وتطبيقية» . ولكن عدم قراءتي كتبه لا يعني أنني لا أعرف له علو كعبه في الأدب ، ورسوخ قدمه في دراسته ؛ فهو علمٌ من أعلام أدباء مصر المعاصرين .

وإذا فأنا لم أقرأ له إلا ملحمة «السيد» ، ولم أحفظ له من خلال هذه القراءة إلا الإعجاب ، والإعجاب وحده ، بدقته مرّة ، وبصبره مرّة أخرى ، وبعلمه قبل هذه وتلك .

وكُلِّفْتُ ذات يوم أن أكتب عن أبي الفرج الأصبهاني وعن كتابه العظيم ؛ «الأغاني» ؛ فطفقت أسأل المصادر عما تعرفه من حياته ، والمراجع عما تراه في شأن كتابه ، فكان من لطف الزميل الصديق الدكتور أبي العيد دودو أن دلّني على كتاب الدكتور طاهر أحمد مكي ؛ «دراسات في مصادر الأدب ، الجزء



الأول ، الطبعة الأولى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ » وعلى فصل لم يُسمَّه مؤلفه فصلاً عنوانه : « الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني » . ولم يكتفِ كرمه الجُمُّ ولطفه المعهود بما دلّني عليه ، وإنما أعارني الكتاب أنظر فيه عسى أن أنتفع منه بشيء .

ولم ينفعني الكتاب بشيء ، إلا أنه هدمَ صورةَ الدكتور طاهر أحمد مكّي في ذهني ، وذلك نفعٌ لم أكن أريد أن أصل إليه ، ولم يكن الدكتور دودو يريدُ - عافاه الله - أن يصلَ إليه أو يوصلني إليه ، ولكن كان الأمر كما قال محمد بن كُناسة :

وسمّيته يحيى ليحيا ، ولم أكن لأعلم أن الفأل فيه يفيلُ ونظرتُ في الفصل فلاحظتُ عليه أمرين :

أولهما أنّه نقلَ عن المصادر التي أرّخت لأبي الفرج كلّ ما وردَ فيها من أغاليط دون أن يتدخّل - ولو مرّةً واحدة - يُحكّم فيها عقله وعلمه لعلهما يهديانه إلى ما يخالف روايات هذه المصادر ، حتّى ودّدتُ لو أنّه أعرَضَ عنها جُملةً وتفصيلاً فلخصّ لنا كتاب الدكتور محمد أحمد خلف الله الممتاز الموسوم : « صاحب الأغاني ، أبو الفرج الأصبهاني الراوية » . ولو فعل ذلك لكان ما قاله أدنى إلى الصواب ، وأقرب إلى العلم ، ولكنّه لم يفعل .

بل لقد ودّدتُ أن لو رجعَ إلى كتاب « الأغاني » نفسه الذي يكتب عنه ، يُعرّفُ القراء - بزعمه - به ، ليعرفَ أنّ أبا الفرج لم يولد بأصبهان ، وإنما في سامراء أو الكوفة ، وأنّه لم يُهدِه إلى سيف الدولة الحمداني ؛ لأنّه لم يرَ حلب في حياته ، وأنّه لم يُتوفَّ سنة ٢٥٦هـ ، وأنّه... وأنّه... مما قال مُتابعاً بعض المصادر ، ولا أقول كلّها . وإلا أفلم يرَ إلى ياقوت الحمويّ يقول عن عام وفاته المذكور : « وفاته هذه فيها نظر ، وتفتقرُ إلى التأمل » فيسأل نفسه عن هذا النظر ما سببه ؟ وذلك التأمل ما دواعيه ؟ ولكنّه لم يفعل - كما قلت - فجاءت

ترجمته لأبي الفرج ترجمة لم يصح فيها شيء ، واحدٌ عندي إلا اسمه وأسماء شيوخه . وهذا حديث لا أريد أن أخوض فيه ؛ لأنه ليس من دأبي الآن .

هذا أمرٌ لاحظته عليه ، فأما الأمر الثاني فهو أنه تحدّث عن « الأغاني » حديثاً كان يَجُولُ بخاطري وأنا أقرؤه أنني قرأته من قبلُ ، وهذا ما أريدُ أن أفيض فيه فأقول ؛

يقول الدكتور مكّي على الصفحة ٢٥٢ من كتابه ؛ « لكن يؤخّذُ على أبي الفرج أنّه وقد تأثّر بأخلاقه الشخصية ، وبمنهجه في التأليف أنه اهتمّ بسرد الجوانب الإنسانية الضعيفة في حياة الشعراء ، وركّز على جانب الخلعة والمجون في تصرفاتهم ، وأهمّل الجادّ الرزين المعتدل منها ؛ مما يوهّم القاري - وقد أوهّم البعض فعلاً - بأن بغداد لم تكن على أيامه غير مدينة نافقة بالمُجان والقيان والسكاري... » .

هذا ما قاله الدكتور مكّي ؛ فأوهّم القاري أنّه من ملاحظاته الشخصية على الكتاب ، ولكنّ هذا القول - لدى الحقّ - ليس له ، وإنّما هو للدكتور زكي مبارك في كتابه ؛ « النثر الفني في القرن الرابع » فقد قال في ١ : ٢٣٤-٢٣٥ ؛ « كان الأصبهانيّ مُسرّفاً أشنع الإسراف في اللذات والشّهوات ، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخُلقي أثرٌ ظاهرٌ في كتابه ؛ فإنّ كتاب الأغاني أحفلُ كتابٍ بأخبار الخلعة والمجون ، وهو حين يَعرِضُ للشعراء يهتمّ بسرد الجوانب الضعيفة في أخلاقهم الشخصية ، ويهمّل في الجوانب الجديّة إهمالاً ظاهراً يدلّ على أنه قليل العناية بتدوين أخبار الجِدِّ ، والرزانة والتجمل والاعتدال ، وهذه الناحية أفسدت كثيراً من آراء المؤلّفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جرجي زيدان... وما كتبه الدكتور طه حسين... تكفي للإقناع بأنّ الاعتماد على كتاب الأغاني قد جرّ هذين الباحثين إلى الخطّ من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية ، وخملهما على الحكم بأن ذلك العصر عصرُ شكٍّ ، وفسقٍ ، ومجون... » .

والقاري، المُنصفُ يُدرك أن الدكتور مكي - وقد وضع أمامه كتاب الدكتور زكي مُبارك - كان يُحاول محاولة الطالب ، أيُّ طالب ، حين يفتش على ورقة زميله ، فيضع في حسابه ألا يكتشف السرقة أستاذهما ، فيُبدل كلمة هنا ، وأخرى هنالك ، وينسى أنَّ جوهر الموضوع يبقى هو هو . هذا إلى أنَّ الطالبين معاً يومنان إلى سرقتيهما حين يقعان في الخطأ الواحد نفسه . وهكذا فعل الدكتور مكي ، وقبل أن أُشير إلى ما وقع فيه هو والدكتور مبارك من قبله ، أريد أن أوازن بين قوله وقول الدكتور مبارك فأقول :

لقد قال الدكتور مبارك : « إنَّ الأصبهانيَّ كان ضعيف الأخلاق ماجناً ؛ فدعاه ذلك إلى أن يختار من حيوات الشعراء ما يوافق هذا الجانب الخُلقيَّ الماجنَ فيه ، فجاء كتابه كتاب خلاعة ومجون . هذا ما كان قاله الدكتور مبارك ، فهل ترى أنَّ ما قاله الدكتور مكي يختلف بشيء عنه ؟ ثمَّ ألا ترى أنه كان من الواجب على الدكتور مكي - وقد أخذ الفكرة وشيئاً من اللفظ فأعادهما - أن يقول بعد كلامه ذاك : « ينظر النشر الفني ... » ؟ ولكنَّه لم يفعل !

ولعلَّكَ تقول : إنَّ الدكتور مكي لم يعتد الإحالة في حواشي كتابه هذا كثيراً . وذلك صحيحٌ منك ، ولكن ما رأيك في أنَّه سرَد قائمة مصادره ، ومراجعته من عربيَّة وأجنبيَّة ، ولم يتعرَّض إلى حرف الزاي من : « زكي مبارك » ، ولا إلى حرف النون من : « النشر الفني » ؟

ولعلَّكَ تُماريني فيما قلتُ من أنه سرق ، فسأطلبُ منك إن فعلتَ تفسيراً لاتِّفاق الأفكار مرَّة ، ولاتِّفاق الألفاظ مرَّة أخرى .

يقول الدكتور مبارك : « كان لهذا الجانب من تكوينه الخُلقي أثرٌ ظاهرٌ في كتابه » ، ويقول الدكتور مكي : إنَّه في كتابه « ... تأثَّر بأخلاقه الشخصية » .

وأنا الآن أريد أن أفهم الفرق بين « تكوينه الخُلقي » و « أخلاقه الشخصية » ثمَّ بين « أثر ظاهر » و « تأثَّر » .

ويقول الدكتور مبارك : « ... إِنَّ كِتَابَ الْأَغَانِي أَحْفَلُ كِتَابَ بَأَخْبَارِ الْخَلَاعَةِ  
وَالْمَجُونِ ، وَهُوَ حِينَ يَعْرِضُ لِلشَّعْرَاءِ يَهْتَمُّ بِسَرْدِ الْجَوَانِبِ الضَّعِيفَةِ فِي أَخْلَاقِهِم  
الشَّخْصِيَّةِ ، وَيُهْمِلُ فِي الْجَوَانِبِ الْجَدِّيَّةِ إِهْمَالاً ظَاهِراً يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَلِيلُ الْعَنَاءِ  
بِتَدْوِينِ أَخْبَارِ الْجَدِّ وَالرِّزَانَةِ وَالتَّجَمُّلِ وَالْإِعْتِدَالِ... » .

ويقول الدكتور مكِّي : « إِنَّهُ اهْتَمَّ بِسَرْدِ الْجَوَانِبِ الْإِنْسَانِيَّةِ الضَّعِيفَةِ فِي  
حَيَاةِ الشَّعْرَاءِ ، وَرَكَزَ عَلَى جَانِبِ الْخَلَاعَةِ وَالْمَجُونِ فِي تَصَرُّفَاتِهِمْ ، وَأَهْمَلَ الْجَادَّ  
الرِّزِينَ الْمُعْتَدِلَ مِنْهَا... » .

والفكرَةُ - كما ترى - هي هي ، والموضوعُ هو هو ، ولم يَزِدِ الدكتور مكِّي على  
أَن يُبَدِّلَ لَفْظَةً بِلَفْظَةٍ ، وَبِتَعْمِيمِ تَخْصِيصاً ، فَقَدْ قَالَ مُبَارَكُ : « يَهْتَمُّ بِسَرْدِ الْجَوَانِبِ  
الضَّعِيفَةِ فِي أَخْلَاقِهِم الشَّخْصِيَّةِ » وَقَالَ مَكِّي : « اهْتَمَّ بِسَرْدِ الْجَوَانِبِ الْإِنْسَانِيَّةِ  
الضَّعِيفَةِ فِي حَيَاةِ الشَّعْرَاءِ » ، فَبَقِيَتِ الْجُمْلَتَانِ إِيَّاهُمَا فِي الْمَعْنَى سَوًى أَمَا كَانَ  
يَتَصَوَّرُهُ مُبَارَكُ أَخْلَاقاً صَارَ عِنْدَ الدُّكْتُورِ مَكِّي : « جَانِباً إِنْسَانِيّاً ضَعِيفاً » وَبَقِيَ  
الْمَعْنِيَانِ فِي دَلَالَتِهِمَا أَمْراً وَاحِداً ، وَبَقِيَ السَّرْدُ سَرْداً ، وَالْجَوَانِبُ جَوَانِبَ ، وَصَارَتْ  
« يَهْتَمُّ » الَّتِي قَالَهَا مُبَارَكُ : « اهْتَمَّ » عِنْدَ الدُّكْتُورِ مَكِّي . أَمَا الْخَلَاعَةُ وَالْمَجُونُ فَقَدْ  
نَقَلَهُمَا الدُّكْتُورُ مَكِّي مِنْ كِتَابِ الْأَغَانِي إِلَى خَيَوَاتِ الشَّعْرَاءِ ، فَبَقِيَ الْجَوْهَرُ هُوَ هُوَ ،  
وَحَلَّ عِنْدَكَ أَخْبَارُ « الْجَدِّ وَالرِّزَانَةِ وَالتَّجَمُّلِ وَالْإِعْتِدَالِ » عِنْدَ الدُّكْتُورِ مُبَارَكُ فَقَدْ يَرَى  
الدُّكْتُورُ مَكِّي أَنَّهُ أَسْلُوبُهُ يَقْتَضِيهِ أَنْ يَخْتَرِجَ لَهَا فِي صِفَتَيْنِ هُمَا : « الرِّزِينَ الْمُعْتَدِلُ »  
وَاهِباً لِلدُّكْتُورِ زَكِيِّ مُبَارَكُ « الْجَدُّ وَالتَّجَمُّلُ » وَالْأَفْهَامُ الَّذِي تَغَيَّرَ ؟!

وَتَأْتِي الْفِكْرَةُ الثَّلَاثَةُ وَهِيَ رُؤْيَا الدُّكْتُورِ زَكِيِّ مُبَارَكُ فِي أَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ  
الْمَاجِنَةَ قَدْ « أَفْسَدَتْ كَثِيراً مِنْ آرَاءِ الْمُؤَلِّفِينَ الَّذِينَ اعْتَمَدُوا عَلَيْهِ ، وَنَظَرَةً فِيمَا  
كَتَبَهُ الْمَرْحُومُ جَرَجِي زَيْدَانُ... وَمَا كَتَبَهُ الدُّكْتُورُ طَهْ حُسَيْنُ... تَكْفِي لِلْإِقْنَاعِ بِأَنَّ  
الْإِعْتِمَادَ عَلَى كِتَابِ الْأَغَانِي قَدْ جَرَّ هَذَيْنِ الْبَاحْثَيْنِ إِلَى الْحُطِّ مِنْ أَخْلَاقِ  
الْجَمَاهِيرِ فِي عَصْرِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَحَمَلَهُمَا عَلَى الْحُكْمِ بِأَنَّ ذَلِكَ الْعَصْرَ عَصْرُ

شكاً ، وفسقاً ، ومجوناً...» ، فقد جاء الدكتور مكّي ليأخذها - وهو لا يمتلك جراحة زكي مبارك في تسمية الناس بأسمائهم - فقال : إنّ ما نقله الأصهباني من جوانب الخلاعة والمجون « يوهّم القاري » - وقد أوهم البعض فعلاً - بأن بغداد لم تكن على أيامه غير مدينة نافقة بالمُجّان والخلعاء والقيان والسكرارى... » .

وكلّ ما فعله الدكتور مكّي أن خصّص « عصر الدولة العباسية » عند الدكتور زكي بـ « بغداد » ، وليس في ذلك فضلٌ كبيرٌ ، ولا عِلْمٌ وافرٌ ، لأنّ أحداً لم يقل إنّ حاضرة الخلافة العباسية كانت إستانبول ، أو نواكشوط ، أو فرانكفورت ، وأنّه اعترف لجورجي زيدان وللدكتور طه حسين بأنّ لهما أنفين ، وأربع عيون ، وعقلين ، ولسانين فجعلهما من الناس ، ثمّ تفضّل عليهما بأنّ جعلهما من الناس الكاتبين المقروئين فقال : « مما يوهّم القاري » - وقد أوهم البعض فعلاً - بأنّ بغداد... » . وأين هذا التعميم من تحديد الدكتور زكي مبارك ؟ ثمّ إذا كان لدى الدكتور مكّي من هذا « البعض » غير زيدان وطه حسين فلماذا لم يتفضّل علينا بذكره ؟

وكان مما يؤيّد عندي أمر السرقة - فضلاً عن القرائن المعنوية واللفظية التي عرضتها - أنّ رأي الدكتور زكي مبارك نفسه لم يكن له أدنى حظّ من الصواب ، وقد فصلتُ هذا فيما كتبتُه عن الأغاني ، ولا أريدُ أن أعيدّه مما يجعلني أشير إليه إشارةً عابرةً فأقول :

إنّ أبا الفرج لم يكن « مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات » ؛ لأنّ المسرف أشنع الإسراف لا يمكنه أن يكتب مثل كتاب « الأغاني » ، ودليلي على ذلك أنّ المرحوم الدكتور زكي مبارك نفسه لم يكن بأقلّ من أبي الفرج إسرافاً ، ولكنّه لم يستطع أن يكتب في كل حياته ما يُعادلُ نصف حجم كتاب الأغاني ، فإذا علمت أنّ أبا الفرج كتب سبعة وثلاثين كتاباً سواء غداً وإحصاء منها « أيام العرب » في ألف وسبعمائة يوم كان ذلك حسبي من أنّه لم يكن مسرفاً إلّا في التأليف . وطلب العلم .

نعم ، كان أبو الفرج يشرب الخمر ، ويلحق النساء ، ويتعشق الغلمان ، ولكنه لم يكن بدعاً في عصره فقد كان القاضي ابن قُرَيْعة مثله ، وكان القاضي الإيذجي مثله ، وكان القاضي التنوخي مثله . وكان مثله محمد بن عمران المرزباني ، فطالما كانت شكواه حين يُسأل عن حاله : « ما حال من ابثلي بقارورتين ، قارورة حبر ، وقارورة خمر » .

هذه واحدة ، فأما الثانية فهي أن اسم كتاب أبي الفرج هو : « الأغاني » فماذا كان ينتظر الدكتور زكي مبارك ، وتابعه مكّي أن يدور في مجالس الفناء غير السكر والعريضة والمجون وتجميش القيان ؟ أيدور فيها مسألة خلق القرآن الكريم أم محنة الإمام أحمد بن حنبل ؟

إنّ الدكتور مكّي كان مسؤولاً - لو لم يكن سارقاً - أن يدلّنا على ما افتأت به أبو الفرج على أخلاق أولئك الشعراء فاختار من أخلاقهم ما يوافق أخلاقه ، وكان مسؤولاً أن يدلّنا على جوانب المجون في ترجمة أبي الطفيل ، وعبد الرحمان بن أبي بكر ، ومالك بن الرّيب ، ومحمد بن كُناسة ، وعشرات سواهم ، أم أن ذنب أبي الفرج أن غلبت الزندقة في العصر العباسي على طائفة من الناس ، حتّى اضطرّ الخليفة المهديّ أن يستحدث « ديوان الزنادقة » ، وأن يكون حمدويه - جدّ الشاعر الحمدوي - صاحب ديوانهم ؟ وسرقة الدكتور مكّي من الدكتور زكي مبارك - رغم وضوحها - قد يصعب تصديقها عند بعض الناس ، مما يضطرّني أن أسوق مثلاً آخر سرّقه بحروفه من محمد عبد الجواد الأصمعيّ ، فأقول :

إنّ الأصمعيّ لم يكن أستاذاً جامعياً ، ولا عالماً بمعنى العلم عند بعض الناس ، وإنّما هو رجلٌ كان يعمل في دار الكتب المصريّة ، ويشرف على ما تطبعه من كتب ، ويفخر بما يهتدي إليه - وهذا من حقّه - من تصويب هذا التصحيف ، وتقويم ذلك التحريف ، ويفرح بصنع هذه الفهارس أو تلك على غرار

ما يصنع المستشرقون ، وبالجُملة فإنَّ الرجل لم يفخر بأن له دكتوراه ، ولم يفرح بأن له تلاميذ ، مع أنه لم يُنْقِصْ من عِلْمِهِ لا عدمُ حمله الدكتوراه ، ولا عدمُ وجدانه التلاميذ . وعلى أيَّة حالٍ إنَّه رجلٌ على قَدِّ حالِهِ - كما ننظر إليه اليوم - وأكبرُ من قَدِّ حالِهِ إذا نظرنا إليه بعيون النصف الأول من القرن العشرين .

وكتب هذا الرجلُ - أعني الأصمعي - كتاباً سَمَّاهُ : « أبو الفرج وكتابه الأغاني » وقد أَرخَ للطبعة الثانية من مقدِّمته فيه بـ « ٢٦ مايو سنة ١٩٥١ » ، وهو كتابٌ يدلُّ على الصبر ، والمعرفة ، والتنقيب ، ولكِنَّه لا يدلُّ على منهج ، وما ذلك - أعني المنهج - بمطلوبٍ منه ، فحسب موظِّفٍ في دار الكتب أن يعرف قيمة ما تضمُّه الدار من نفايس ، ولكنَّ غيابَ المنهج لم يمنع كتابَ الأصمعي أن يكون كتاباً ممتازاً فيما وُفِّره من مادَّةٍ أوَّلِيَّةٍ لدارس أبي الفرج وكتابه .

ولا أكادُ أشكُّ في الدكتور طاهر أحمد مكي يعرف الكتاب ، ولا أكادُ أشكُّ أيضاً في أنه اطَّلَعَ عليه ، وأنَّى له ألاَّ يطَّلَعَ عليه والكتابُ مطبوعٌ في أشهر دار مصرية للطباعة والنشر ، أعني دار المعارف بمصر ، فتعال نرى كيف أفادَ الدكتور مكي من هذا الاطلاع .

قال الأصمعيُّ على الصفحة السادسة من كتابه : « أوَّلُ ظهور كتاب الأغاني في عالم المطبوعات ، وتداول العلماء الأخصَّاء له من قراء العربية هو الجزء الأول ، فقد طُبِعَ بمدينة جوبييز فولد سنة ١٨٤٠م ومعه ترجمته... باللاتينية للعلامة المسيور روزجارتن ، وكلُّ كلماته مضبوطة بالشكل الكامل ، وينتهي إلى أثناء أخبار (ابن محرز ونسبه) ويقع القسم العربيُّ من هذا الجزء في ٢٣٨ صفحة من حجم كتاب الأغاني ، وآخر صفحة فيه تتَّفَق مع صفحة ١٥٢ من الجزء المطبوع بمطبعة بولاق ، و صفحة ٢٨٢ من الجزء المطبوع بمطبعة دار الكتب المصرية... » .

ويقول الدكتور مكّي على الصفحتين ٢٥٤-٢٥٥ : «وكما حاز كتاب الأغاني في القديم شهرةً واسعةً نال في العصر الحديث أهميةً بالغة ، فنشر المستشرق الألمانيّ كوزجارتن (١٧٩٢ - ١٨٦٠) الجزء الأول منه ، رفق ترجمةً له باللغة الألمانية تحت عنوان... في مدينة جريفسفالد... بألمانيا عام ١٨٤٠ ، ويقع القسم العربيّ منه في ٢٢٨ صفحة من حجم الأغاني ، وينتهي عند أخبار (ابن محرز ونسبه) وآخر صفحة فيه تتفق مع صفحة ١٥٢ من الجزء الأول في طبعة بولاق ، و صفحة ٢٨٢ من طبعة دار الكتب ، وكلّ كلماته مضبوطة [كذا] بالشكل» .

وللّقاريه أن يلاحظ خلافاً بين مكّي والأصمعي في اللغة التي تُرجم إليها الكتاب ، وفي اسم المستشرق ، وفي اسم المدينة ، وكلّ هذا صحيحٌ لا غبار على صحّته ، وأريد أن تتذكّر أن الدكتور مكّي قد درس في أسبانيا ، مما يُمكنه من ضبط الأسماء الأجنبية ، ومع هذا كان من حقنا على الدكتور مكّي أن يُشير إلى ما حرّفه الأصمعيّ في الحاشية كأن يقول : « ينظر الأصمعي : ٦ وقد وهم في ذكر اسم المستشرق ، والمدينة ... » ، ولكنه لم يفعل ؛ لأنّه يريد أن يسطو سطواً مفضوحاً عليه ، فيسلخ من كتابه بقيّة المعلومات التي ذكرها سلخاً يكاد يكون حرفاً بحرفٍ ألهم إلّا في قوله : « وكل كلماته مضبوطة بالشكل » فقد أراد أن يهرب من قول الأصمعي : « وكل كلماته مضبوطة بالشكل » وأنّى له أن يهرب ؟ فدلّ على علمه الوافر بالعربيّة! فضلاً عما دلّنا عليه من وجوه هرب السارق البانسة!!

وستقول لي : إنّ فيما أوردته من خلاف بينه وبين الأصمعيّ في اسم المستشرق الألماني ، وفي اسم المدينة التي طُبِع فيها الكتاب ، وما إلى ذلك ما يدلّ على أن الرجل لم يسرق ، وإنّما لديه من العلم بكتاب « الأغاني » مثل ما لدى الأصمعي فاقول :



يقول الأصمعي على الصفحة السادسة من كتابه : « تم طبع كتاب الأغاني ... بمدينة القاهرة في عشرين جزءاً بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) وقد أكمله المستشرق رودلف برونو بطبعه الجزء الحادي والعشرين منه في سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) ، وقد ثبت بعد البحث والتحقيق أن هذا الجزء ليس من تجزئة المؤلف ، بل هو زياداتٌ عثر عليها العلامة المستشرق المذكور في عدة نسخ مخطوطة محفوظة بمكتبات برلين وغيرها عند مراجعته طبعة بولاق على الأصول المخطوطة ، فجمعها في جزء واحد سماه الجزء الحادي والعشرين » .

ويقول الدكتور مكّي على الصفحة : ٢٥٥ يقول :

« تم طبع الأغاني بعد ذلك كاملاً وللمرة الأولى ، بمطبعة بولاق في عشرين جزءاً عام ١٢٨٥ هـ - ١٨٦٨ م وهي طبعةٌ غيرُ مُحَقَّقة علمياً ، وذاتُ أخطاء ، وأضاف إليها المستشرق برونوف ... الجزء الواحد والعشرين ... وهذا الجزء ليس من تجزئة أبي الفرج وإنما مجرد زياداتٍ عثر عليها برونوف في عدة نسخ مخطوطة ، ومخطوطة بمكتبة برلين وغيرها عند مراجعته طبعة بولاق على هذه الأصول فجمعها وجعل منها جزءاً مستقلاً ، أعطاه اسمَ الجزء الحادي والعشرين » .

وسأدع للقاري أن يوازن بين النصين ، فإذا فعلَ فله عليّ أنه لن يجد من فرق سوى تغيير اسم المستشرق برونو إلى برونوف ، علماً أن الصحيح هو برونو كما قرّر الدكتور الطاهر - رحمه الله - في « مقالات » ، ٧١ ، وسوى أن الدكتور مكّي قال عن طبعة بولاق : « وهي طبعةٌ غير مُحَقَّقة علمياً وذات أخطاء » كما لو أنه بقوله ذلك قد فتح عكاً ، وإلا فليذكر لي كتاباً واحداً طُبِع في بولاق كان مُحَقَّقاً تحقيقاً علمياً . وما لي أسأله هذا السؤال الساذج ونحن نتحدث عن القرن التاسع عشر ، ولا أسأله عن تاريخ إلقاء المستشرق الألماني براجشتراسر محاضراته العميقة عن تحقيق النصوص في جامعة القاهرة ؟ ألم يكن ذلك عام : ١٩٣١ ؟

ولك أن تنظر بعد ذلك إلى ما أضافه لقول الأصمعي من قبيل أن يقول الأصمعي : « العلامة المستشرق المذكور » فيفسّر الدكتور مكّي قوله بأنه « برونوف » ، ومن قبيل أن يقول الأصمعي : « ... هذا الجزء ليس من تجزئة المؤلف » فيفسّر قوله بأنه : « ... ليس من تجزئة أبي الفرج » وهكذا .

على أن الذي أحزنني في هذه التفسيرات هو ما صار إليه قول الأصمعي : « عدة نسخ مخطوطة محفوظة... » إذ صار عند الدكتور مكّي : « ... مخطوطة ومحفوظة » . وقدima سئل الجاحظ : ما البلاغة ؟ فقال : « معرفة الفصل من الوصل » . وليس في الجملة فصل فلماذا الواو ؟

وهكذا أراد الدكتور مكّي أن يهرب من عبارة الأصمعي ، فدلّ مرة ثانية على علمه الوافر بالعربية ، فصحّ فيه المثل العربي : « أَحْشَنُ وَسَوْءُ كَيْلَةٍ » ؟ لقد كُنّا نرضى من الدكتور مكّي بالحُشْفِ يزعم أنه رُطِبُ ، بل ويبغّنا على أنّه تمرّ فما عَمَّ أن اكتمال لنا منه بميزانٍ لا تتعادل كفتاه!

وإذاً فليس لي ولك ونحن نقرأ ما سلّم من ركاسة الأسلوب في هذه التفسيرات إلا أن نتذكّر قول الشويعر العربي :

كأئنا والماء من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماءٌ

فكلاهما « قد فسّر الماء بعد الجهد بالماء » .

وأريد أن أقترح أن كلّ هذا ممّا يُماريني فيه الناس ، ومما يماريني فيه الدكتور مكّي نفسه مما يدفعني أن أعرض عن حديثه عن صنع المستشرق الإيطالي جويدي بمعاونة نفر من المستشرقين فهارس الأغاني ، وعمّا وقع للحاج محمد الساسي حين ترجمها ، وأضافها إلى الجزء الحادي والعشرين أقول : سأعرض عن هذا كلّه رغم يقيني الذي لن يتزعزع بأن الدكتور مكّي سرقه من الأصمعي ، وسكت .

ولو لم يكن من مصاديق هذا اليقين إلا أن الدكتور مكّي يعلم علم اليقين أن من حق الأصمعي أن يُذكر كتابه في الحاشية ، لا لشيء إلا لسبقه في التأليف لكان في ذلك الكفاية وما يزيد على الكفاية ، ولكن ذلك لم يحدث ولو مرة واحدة . بل إن الدكتور لم يُكلّف نفسه حتى أن يذكره في قائمة المراجع ذكراً عابراً . فإذا كان لذلك من معنى - وهو كائن - فهو أن الدكتور مكّي قد جعل من نفسه أحد اثنين لا يُشرّفه أن يكون أيّاً منهما ؛ فهو إما أن يكون لا يعرف قواعد البحث الأدبي ، وهذا احتمالٌ مُستبعدٌ جداً - لأنّ حامل شهادة الدكتوراه حتى ولو كانت دكتوراه جامعة يعرف هذه القواعد فما بالك بالدكتور مكّي الذي يمنح الناس شهادات دكتوراه فلسفة (p.h.d) ؟ وإما أن يكون - كما قلت - سارقاً ، وهذا ما أنا مُوقنٌ به ، وإلا لما كتبت .

قلت : سأعرض عن كلّ هذا ، وسأفترض أنه مما يُماريني فيه الناس ؛ لأنّ الذي تحدّث عنه الأصمعي من أمر الأغاني وطبعاته مما يُمكن أن يُهتدى إليه بالرجوع إلى هذه الطبعات نفسها ، ولكن ما رأيك في علاقة خاصّة - هي علاقة مروّس برنيسه - تقتضي أن يأمر أحمد زكي باشا (الرئيس) محمّد عبد الجواد الأصمعي (مروّسه) أن يقوم بعملٍ يخدم به نسخته من كتاب الأغاني ، أعني نسخة أحمد زكي ، فيقوم به ، ثمّ يبدو له أن يتحدّث عمّا قام به إلى الناس في كتابه عن أبي الفرج ، ثم نجد هذا الحديث نفسه عند الدكتور مكّي ؟ يقول الأصمعي :

« كان إمام أئمة اللغة العربية في عصره العلامة المرحوم الشيخ محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي صحّح نسخته الخاصة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٤٤ أدب ش) ، وبذل جهد المستطاع [كذا] في تصحيح ما فيها... فلقد كان أعلم أئمة اللغة العربية في وقته ، وأعرفهم بغريبها ، وأحفظهم لأنساب العرب ، وتاريخهم... بما دونه بخطّ يده على هوامشها ، وفي كلماتها ،

وفي ثنيات سطورها ... وكان العلامة المرحوم أحمد زكي باشا بمناسبة اشتغالي في الخزانة الزكية في ذلك العهد طلب إليّ أن أصحح كتاب الأغاني المحفوظ بخزائنه... على نسخة الإمام الشنقيطي المحفوظة بالدار ، فلبّيتُ الطلب ، وكابدت... لأنني قرأتُ هذا الكتاب بإمعانٍ ودقّةٍ سطرّاً سطرّاً... وكان الإمام الشنقيطي... يكتب صواب الكلمة تارةً بالهامش ، وطوراً يكشطها ثم يكتب صوابها بغاية الدقّة في موضعها الأصلي ، وآونةً يصلح الحرف المغلوط بالحرف الصحيح كالدال في موضع الراء ، ومرّةً يكشط نقطةً أو يضيف على الموجودة أخرى ، أو يعجم الحرف المَهْمَل ، أو يَهْمِل المَعْجَم ، وهلمّ جراً... » . ثم يواصل الأصمعيّ حديثه على الصفحتين ، التاسعة والعاشرة بأنّه أتمّ التصحيحات وأن أحمد زكي أشار عليه بطبعها ، ففعل ذلك على هيئة جداول ليسهل مراجعتها عام ١٩١٦ ، ويأنّ مصححي القسم الأدبي استفادوا منها عند طبع الكتاب .

ويقول الدكتور طاهر أحمد مكّي على الصفحة ٢٥٦ من كتابه :

« كان الشيخ محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي يملك نسخة من طبعة بولاق ، وكان حجة في العلم بغريب اللغة ، وأنساب العرب ، فقام بتصحيح نسخته الخاصة مدوّناً تصحيحاته في الهامش ، أو في ثنايا السطور ، يكشط الكلمة المحرفة ثم يعيد كتابتها بدقّة ، أو يصلح الحرف المغلوط أو يعجم الحرف المَهْمَل ، ويهمل المعجم ، يكشط نقطةً أو يضيفها ، ولما كان شيخ العروبة أحمد زكي يملك نسخة من كتاب الأغاني ، طبعة بولاق ، فقد طلب إلى محمد عبد الجواد الأصمعيّ أن يصحح له نسخته على نسخة الشنقيطي المحفوظة بدار الكتب المصرية ، ورأى فيما بعد أن يجمع هذه التصحيحات ، ويطبّعها في كراسة مستقلة... وقد طبّعت هذه التصحيحات على هيئة جداول ليسهل مراجعتها ، وصدرت في عام ١٩١٦ ، وقد استفاد منها مصحّحو القسم الأدبي عند إعادة طبع الأغاني » .

هذا ما قاله الدكتور مكّي ، ولا أريد أن أعلّق عليه بشيء ، فقد وضح الصبحُ  
الذي عينين ، وإنّما أريد أن اشهد له ببراعة السرقة ، فقد سلخ ما قاله الأصمعي  
في ثلاث صفحات ليضعه في صُرّة لا تكاد تبلغ الصفحة ، وتلك آية بيّنة على  
دُرْبته في النقل ، ومهارته في الإغارة .

ولعله يكون من حقي بعد هذا النصّ أن أقول : إنّ صاحبنا الدكتور مكّي  
قد وقع في الفخّ ، فاعترف - في الأقلّ - بأنّ هناك رجلاً له صلّة بكتاب الأغاني  
اسمه محمد عبد الجواد الأصمعي ، ولهذا الاعتراف ما بعده من اعترافٍ ضمنيٍّ  
بالسطو . وجليّة الأمر وتفصيله أن الدكتور سيحتجّ بنفسه أو يحتجّ له الآخرون  
من تلاميذه الكثر - هكذا أريد أن أفترض - بأنّه رأى نسخة الشنقيطي بنفسه ،  
والدليل على ذلك أنه وضع على عبارة « بدار الكتب المصرية » رقماً أحالنا عليه  
في الحاشية فقال : « النسخة الأصلية للأستاذ الشنقيطي توجد محفوظة بدار  
الكتب المصرية تحت رقم ١٤٤٤ أدب ش » .

وسأغضّ النظر عن اتفاقهما في وصف ما صنع الشنقيطي بنسخته من  
كشط ، وإعجام ، وإهمال ، وما إلى ذلك ، وأغضّ النظر أيضاً - قريبة لوجهه  
تعالى - عن علمه بأن أحمد زكي قد طلب من مروّسه الأصمعي أن يصحّح له  
نسخته . أريد أن أغضّ النظر عن كلّ هذا خشية أن يدّعي الدكتور مكّي أنه قد  
قرأ كلّ ذلك في كراسته المطبوعة عام ١٩١٦ - وأنا لم أطلع على هذه الكراسة  
- ولكنني أريد أن أسأل سؤلين أولهما : أنّه إذا كان الدكتور مكّي قد رجع إلى  
الكراسة فأخذ منها هذه المعلومات فلماذا لم يذكرها في الحاشية ؟ وهي حاشية  
أهمّ كثيراً من ذكر رقم نسخة الشنقيطي في دار الكتب المصرية ؛ لأنّ الأصمعيّ  
نفسه قد ذكر هذا الرقم ، أم يكون الدكتور ممن يَسْتَفْتُونَ في دم البرغوث  
ويمسحون دم الحسين سبط رسول الله ؟

هذا سؤال ، وأما الثاني - وهنا الفخّ الذي وقع فيه الدكتور - فهو أن

الأصمعيّ يقول عن كراسيّ تلك : « واستفاد منها أيضاً مُصحّحو القسم الأدبيّ - وكنتُ منهم - عند إعادة طبعه بمطبعة دار الكتب المصريّة ، ولكن لأمرٍ ما لم يُشر إلى اسمي في هذه الطبعة » . ويقول الدكتور مكّي : « وقد استفاد منها مصحّحو القسم الأدبي عند إعادة طبع كتاب الأغاني » .

وأقول : إنّ اعتماد مصحّحي القسم الأدبيّ على كراسة الأصمعيّ أمرٌ لا يعلمه إلا الأصمعيّ والمصحّحون ، فأما المُصحّحون فقد بلغوا من غمطٍ حقّ الرجل - كما يقول هو نفسه - بحيث لم يذكروا ذلك في طبعة الأغاني نفسها ، ومن هنا ما كان لنا أن نعلم أن كراسة الأصمعيّ كانت أحدَ مراجع التصحيح لو لم يقل الأصمعيّ ذلك بنفسه في كتابه عن أبي الفرج ، فمن أين علم الدكتور مكّي بهذه الحقيقة فأثبتها ؟ ثمّ ألا يُمكن للباحث الباحث أن يشكّ في صدق دعوى الأصمعيّ فيوازن بين كراسيه وطبعة الدار فيأتينا بالخبر اليقين ؟

وأنا إنّما قلتُ ، من أين علم بهذه الحقيقة ، لأنه لم يبق له من مهربٍ إلا الاعتراف بالسرقة فقد « قطعت جهيزة قول كلّ خطيب » . فهو إنّ قال : إنّه أخذها من الأغاني لم يستقم له ذلك ؛ لأنّ مُصحّحي الدار لم يعترفوا بالاستفادة ، ولم ينصّوا عليها مما جعل الأصمعيّ ينتصفُ لنفسه منهم فيذكر ذلك ، وإنّ قال : إنّه أخذها من الكراسة لم يستقم له ذلك أيضاً ؛ لأنّ كراسة الجداول طُبعت سنة ١٩١٦ على حين أنّ الأغاني طُبعت بعد تسع سنواتٍ من صدورهما ، فكيف تسنّى للأصمعيّ أن يشكو من أمرٍ لم يقع بعدُ ، أو أن يُقرّر شيئاً لما يحدث ؟

وإذا لم يبق إلا أن يكون الدكتور مكّي قد سرق كلّ تلك المعلومات من كتاب الأصمعيّ : « أبو الفرج الأصبهاني... » . تلك هي الحقيقة المؤلمة . وأقول مؤلمة ؛ لأنّ من يسرق في كتابٍ لا يُمكن أن يوثق به في كتبه الأخرى ، ثمّ أيّ كتاب ؟ كتاب عن مصادر الدراسة الأدبية كلّ ما فيه أن يصف الأغاني ، أو الشعر والشعراء لا بن قتيبة أو سواهما . ومع هذا يزعم له الدكتور مكّي على

الصفحة الخامسة عشرة أنّه « عمل راند » . وأنا لا أعرف من أين توهم له الريادة ، وكتابه مطبوع عام ١٩٦٨ على حين أن الدكتور أمجد الطرابلسي قد أصدر كتابه « نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب » سنة ١٩٥٤ ، أي قبل أن يصدر كتاب الدكتور مكّي بأربعة عشر عاماً<sup>(١)</sup> ، أننا قرأنا في العام نفسه عام صدور كتاب الدكتور مكّي يوم كنا طلبة في السنة الأولى من كلية الآداب كتابين في مصادر الأدب أحدهما للدكتور عزّة حسن ، وثانيهما للدكتور عمر الدقاق ، ثم ما للريادة ولكُتُبِ هي أقرب ما تكون إلى الارتزاق من جيوب الطلبة منها إلى شيء آخر ؟

وهب أن الكتاب راند في بابيه ، أف تكون الريادة بالسرقة ؟ إنَّ الراند لا يكذب أهله ، فهل صدّقنا الدكتور مكّي ؟ ذلك ما أرجو أن يكون قد اتضح .

---

(١) ينظر « مقالات » ٦٥٠ للعلامة الراحل الطاهر .

## فهرس الموضوعات

5	مقدمة
11	شاعران ثانران:
13	بكر بن عبد العزيز العجليّ
27	محمد مهدي الجواهريّ
43	لُغويّان عبقرَيان:
45	ابن الأعرابيّ
59	مهدي المخزوميّ
73	علويّان مُبدعان:
75	العلويّ الحِمانيّ
81	مصطفى جمال الدين
93	استاذان كبيران:
95	أبو بكر الخوارزميّ
133	علي جواد الطاهر



151	اديبان خالدران:
153	ابو الفرج الأصبهاني
203	الطاهر مرّة أخرى
213	من بغداد إلى القيروان:
215	ابو بكر محمد بن خلف بن المرزبان
241	بريّة بن أبي اليسر الرياضي
257	ملحق: المُستثنى بيلاً:
259	طاهر احمد مكي سارقاً

## للمؤلف ،

- ديوان علي بن محمد الحِماني ، بغداد ، ١٩٧٤ ، ط ٢ بيروت ، ١٩٩٨ .
- الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ط ٢ بيروت ، ١٩٨٥ .
- فن التمثيل عند العرب ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ط ٢ بيروت ، ١٩٨٥ .
- مقالات في الشعر العربي المعاصر ، دمشق ، ١٩٨٥ .
- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (تقديم) ، الجزائر ، ١٩٩٢ .
- رؤيا أوروک (شعر) ، دمشق ، ١٩٩٢ .
- الأمثال لأبي بكر الخوارزمي (تحقيق) ، الجزائر ، ١٩٩٣ .
- مسرحيات شوقي (تقديم) ، الجزائر ، ١٩٩٣ .
- ديوان أبي حكيمة الكاتب (تحقيق) ، دمشق ، ١٩٩٣ ، ط ٢ ألمانيا ، ١٩٩٧ .
- مقتطفات مراثي لابن الأعرابي (تحقيق) ، الجزائر ، ١٩٩٤ .
- ملحمة كلكاش (تقديم) ، الجزائر ، ١٩٩٥ .
- جهاز المغايريات في الحضارة الإسلامية ، دمشق ، ١٩٩٨ .
- ذم الثقلاء لابن المرزبان (تحقيق) ، ألمانيا ، ١٩٩٨ .

## تحت الطبع ،

- الشعر في الكوفة منذ أواسط القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث ، ألمانيا .
- تلقيح العقول لبرية بن أبي اليسر الرياضي (تحقيق) ، ألمانيا .
- ديوان بكر بن عبد العزيز المجلي (تحقيق) ، بيروت .
- نافذة الليل (شعر) ، ألمانيا .

## المُقدّم للطبع :

- أوهام المحققين .
- شذرات من اللغة المولدة .
- كتاب الشعر لابن شمس الخلافة (تحقيق) .

# أبداء وابداء

هذا كتابٌ يكاد يكون مدخولُ النسبةِ في كتبي وليس مدخولها تماماً في كتب الآخرين ؛ لأنه مباحثٌ متفرقةٌ لا يكاد يجمعها جامعٌ ، سوى أنها في تراجم أدباء قداماء كبار ، وذكرياتٍ عن أمثالهم من المعاصرين الكبار . ومن هنا فهو مباحثٌ متفرقةٌ ولكنها مؤتلفةٌ . وحسبك من مفارقة أن يكونَ المتفرقُ مؤتلفاً .

تألفتُ هذه المباحثُ بما يُعجبك من ثورتِي بكر بن عبد العزيز العجالي ، والجواهري - على الرغم من أن بينهما أحد عشر قرناً - ولكنَّ بكرةً لا يأتلف مع الجواهري فنيتاً حتى لو قلتُ لي : إنَّ بكرةً لا يبلغُ خمسَ قامةِ الجواهري شعرياً لوافقتُك . والجواهري لا يأتلف مع بكر فارسَ ميادين وقريع حروبٍ حتى لو قلتُ : إنَّ الجواهري لا يبلغُ خمسَ قامةِ بكر فارسَ ميادين لما جادلْتُك . ولكنهما مع هذا وذاك مؤتلفان إذا نظرتَ إلى ما ينمُّنُ بكرةً إزاء الجواهري ، وإلى ما ليس في الجواهري من بكر ، وأهمُّ من هذا أنَّهما مؤتلفان إذا نظرتَ إلى معنى ثورة الشاعر في القرن التاسع الميلادي ما هي ؟ وإذا نظرتَ إليها في القرن العشرين ما معناها ؟